حيرة عربيّ
وحيرة يهودي

مصطفى الحسيني
ايزاك دويتشر

الغلاف للفنان

محمد العيسوى

تمهيد

يتألف هذا الكتاب من قسمين :

القسم الأول : مستقبل اسرائيل ، وصاحبه هو كاتب هذا التمهيد ، ويضم فصولا أربعة ، لا تتناول كلها موضوع العنوان تناولا مباشرا ، وإن كان ليس فيها ما هو مقطوع الصلة به .

وقد كتبت هذه الفصول ونشرت متفرقة على مدى الأعوام فيما بين ١٩٨٨ و ١٩٩٦ . وقد آثرت أن أنشرها كما هي ، دون أن أعيد النظر فيها ، لأنني اعتبرتها جزءا من ثبت تاريخي الشخصي (الذى قد لا يعني أحدا غيرى) ، ومع ذلك فإنه لغرض هذا الكتاب كان عليَّ أن أقحم على القارىء لمحة من هذا التاريخ الشخصي ، لأنني أعرض عليه ما استطعت أن أمسك بأطرافه من عناصر حيرتي حيال موضوع قدرت أنه يعنيه ، لانه بالضرورة يعنينا جميعا ، أو يجب أن يعنينا جميعا ، هو القضية الفلسطينية .

أما القسم الثاني : اليهودى اللا يهودى (*) ، فمؤلفه هو المفكر

(*) نشرت الطبعة الأولى من هذه الترجمة عن دار الحقيقة في بيروت فى ١٩٧١ ، تحت عنوان : «دراسات فى المسألة اليهودية» .
وقد اخترت هذا العنوان فى ذلك الحين ، مع إثبات العنوان الأصلى داخل الكتاب ، تجنبا لافتقار عبارة «اليهودى اللايهودى» للسلاسة اللازمة لعنوان كتاب باللغة العربية .

اليهودى البولندى الأصل البريطانى الجنسية اسحق دويتشر ، ويضم فصولا متفرقة نشرت فيما بين العام ١٩٤٦ والعام ١٩٦٧ ، أى قبل وفاة المؤلف بأشهر قلائل . وقد جمعت زوجته هذه المتفرقات ونشرتها فى كتاب بعد وفاته .

وفوق مسئوليتى عن ما كتبت فى القسم الأول ، اتحمل مسئولية اختيارى لكتاب دويتشر هذا وترجمته والسعى إلى نشره ، وأتحمل ايضا مسئولية إعداد هذين القسمين للنشر فى كتاب واحد .

وهى مسئولية تحتاج إلى تفسير وربما إلى تبرير ، قد يجدهما القارىء فى سياق القسم الأول من الكتاب ، وقد يلمسهما فى الكتاب بقسميه .

وإن كان ثمة ما يضاف فى هذا الشأن ، فهو أننى اعتبر ما كتبته هنا نوعا من التفكير على الملأ ، أو حسب العبارة الشائعة نوعا من التفكير بصوت عالٍ فى القضية الفلسطينية وأننى رأيت فيما كتبه دويتشر واخترت أن اترجمه إلى العربية نوعا من التفكير بصوت عالٍ فى المسألة اليهودية .

وقد شاءت أحداث التاريخ أو مآسيه أن تتشابك القضية الفلسطينية والمسألة اليهودية على نحو يبدو أن لا فكـــاك له ، إلى حد أن أصبح حل أى منهما مرتبطا إما بحل الأخرى ، أو بإشعالها أو بزيادتها تعقيـــدا .

وأعرف أن مسألة التفكير بصوت عال تجعل القارىء يرتاب فى أن الكاتب يسوقها إما ذريعة لنشر أفكار أو اراء قد تكون قليلة الحظ من القبول العام ، أو أن الكاتب يريد بها أن يتحوط للتراجع عن ما كتب ، ودون حرج .

وقد يصدق هذا على ما كتبت هنا ، بعضه أو كله ، غير أنى لا أرى فى هذا نقيصة فى الكتابة .

فما أردته هو أن اشرك القارىء فى حيرتى التى أصفها فى بعض ما كتبت .

مصطفى الحسينى

١٩٩٦

القسم الأول :

مستقبل اسرائيل

الفصل الأول

مستقبل إسرائيل

أى مستقبل ؟

فإسرائيل تصف نفسها ويصفها أصدقاؤها بأنها «الدولة اليهودية» بينما كان حلم الحركة الصهيونية التى أقامتها أن تكون « دولة اليهود» الدولة التى يهاجر إليها اليهود كلهم من أطراف الأرض أو على قولها «يعودون» ليبنوا دولتهم ، فيصبحوا «شعبا كسائر الشعوب وأمة بين الأمم» .

بعد أربعين سنة من إقامة الدولة «عاد إلى صهيون» من كل أربعة يهود واحد . ويبقى ثلاثة حيث هم ، ومن هاجر منهم فمن «منفى إلى منفى » فالعالم الواسع عند الصهاينة هو المنفى . بل أنهم لا يريدون العودة ، بل إنهم يصلّون كل يوم ثلاثاء «من أجل العودة إلى صهيون» دون نية العودة . وكيف يصبحون «شعبا كسائر الشعوب» بينما ثلاثة أرباع «الشعب» يحملون جوازات سفر دول العالم أو معظمها ، وبينما نسبة غير قليلة من «مواطنى» الدولة يحملون أيضا جوازات سفر دول

أخرى ؟ بينما تعداد اليهود الذين يعيشون فى الدولة يزيد قليلا عن نصف تعداد اليهود الذين يعيشون فى مدينة واحدة ، نيويورك ، حتى أن الصهيونى الأمريكى البارز «لوم ديان» قال عنها وعن إسرائيل إنه «إذا كانت اسرائيل هى مركز العالم اليهودى فإن نيويورك هى مصدر وجوده وليس فقط بعدد يهودها وإنما بأموالهم التى يمدون بها إسرائيل وبنفوذهم الذى يحميها» .

وكيف يصبحون «أمة بين الأمم» بينما دولتهم وبعد أربعين عاما منذ أقاموها ، مازال شغلها اليومى هو الدفاع عن شرعيتها ، عن شرعية وجودها وعن شرعية سلوكها معا ، وبينما مازال مطلبها الذى ترفعه كل يوم .. ومن موقع القوة ! هو المطالبة «بالاعتراف بحقها فى الوجود» .

حتى علم الآثار ، الذى عرفه العالم استجلاء لغابر التاريخ وكشفا عنه ، أصبح فى الدولة اليهودية «أداة لإثبات الوجود» حتى قال فيها الكاتب الأمريكى الفذ جور فيدال « أنها دولة أثرية ، فى حرب مع جيرانها جميعا ، لا تحب العالم وبالتالى لا يحبها »

فأى مستقبل ؟

مفارقات الشتات

وأصبحت المفارقات فى علاقة «الدولة اليهودية » مع يهود العالم أكثر من التوافقات أو أغلب .

فإذا كان لإسرائيل أن تصبح «دولة اليهود» فعلى يهود العالم أن

يهاجروا إليها . بل بغير هذه الهجرة ، فإنه حتى «الدولة اليهودية» قد لا تبقى .

لكنه إذا كان «للدولة اليهودية » أن تقوى لكى تبقى ، فعلى يهود العالم أن يبقوا حيث هم يمدونها بالمال وينودون عنها بالنفوذ .

فأى مستقبل ؟

أى مستقبل لهذه الدولة التى نزح منها ، حسب أكثر تقديراتها الرسمية اعتدالا، واحد من كل عشرة من سكانها اليهود فى السنوات العشرين الأخيرة ، ناهيك عن أن هؤلاء النازحين ، فى أغلبهم ، هم الأكثر فتوة (فئات الأعمار بين ٢٥ و ٤٠ سنة) والأكثر كفاءة .

(فى الولايات المتحدة وحدها ٣٢ ألف أكاديمى و ٨ آلاف مهندس يهود ، والأكثر قدرة على الإبداع والانجاز والأوفر مبادرة نازحين من إسرائيل) .

وأى مستقبل لهذه «الدولة» التى تعرف أن طوق نجاتها الوحيد من الغرق فى المحيط العربى الذى أصبح فى داخلها هو المزيد من الهجرة اليهودية ، ودعك من أن اليهود لا يهاجرون إليها ولا يريدون ، المسألة أن اليهود فى العالم كله يتناقصون . فتعدادهم فى عالم اليوم يقارب ١٣ مليونا حسب احصاءات المنظمة الصهيونية العالمية ، وحسب تقديرها سيصبح تعدادهم بعد ٢١ سنة فى سنة ٢٠٠٠ حوالى ٩ ملايين .

أى مستقبل لدولة معين سكانها ينضب ؟

دولة خيبة الأمل

وهذه دولة الآمال الخائبة ، فضلا عن الأحلام الضائعة .

فإذا كانت الصهيونية قد قنعت من حلم دولة اليهود بواقع الدولة اليهودية فهذا حلم ضائع ، أما الآمال الخائبة فهى آمال هؤلاء اليهود المتدينين الذين ظنوا «العودة إلى صهيون» كفيلة لهم بـ «حياة يهودية كاملة» فوجدوا أنفسهم مواطنى دولة حكامها يجاهرون بالالحاد ، ويحددون اليهودية بأنها تمايز اليهود عن الأغيار ، ويسعون إلى إحلال القومية التى لم يعرفها اليهود من قبل ، محل الدين الذين عاشوا القرون وعبروها واخترقوها يحملونه فى وجدانهم ، وإذا بالصهاينة يفشلون فى خلق الأمة ويضيقون الخناق على الدين الذى يراه هؤلاء المتدينون ويريدونه دينا كسائر الأديان .

وخابت أيضا آمال من داعبتهم أحلام صهيونية اشتراكية تصحح وضع الهرم الاجتماعى اليهودى المقلوب فى الشتات ، وتعيد اليهود إلى قيمة العمل أو تعيد قيمة العمل إلى اليهود كما قال فيلسوفهم بوروخوف، فانشقوا أو تابعوا انشقاق اسلافهم عمًّا كانوا فى صفوفه وأحيانا فى طلائعه من حركات اشتراكية وأحزاب ، ليقيموا اشتراكيتهم على أرض إسرائيل ، فلا يمضى وقت طويل حتى ينهار الحلم ، ويرون الكيبوتز ، صورتهم المثالية للمستوطنة الاشتراكية ، يبتلعه اقتصاد السوق، وإذا عماده ليس العمل اليهودى الذى عادت قيمته

إلى اليهود أو عادوا إليها إنما عماده عمل مأجور ملوث بالتمييز العرقى .

يستخدمون العرب الذين أفقروهم ويميزون اليهود عليهم فى الأجر والرعاية ، بل ويستخدمون المهاجرين اليهود الذين جاءوا من بلاد العرب، وأيضا يميزون أنفسهم عليهم فى السلطة التى اتتهم من ملكية الكيبوتز الجماعية الاشتراكية ، ويتحول أبناء الكيبوتز أو أصحابه إلى نخبة أسبرطية تتمتع بالامتيازات وتتميز بالصلف وتتيه بالزهو على من سواها من المواطنين بأنها الأكثر ولاء للدولة وكأن لها على ولائهم مطعناً .

وأيضا خابت آمال هؤلاء اليهود الذين هاجروا من بلاد العرب ، حيث كانوا - معظمهم - فى صفوف طبقاتها الوسطى ، أو كانوا متميزين فى تلك الطبقات ، وما لبثوا أن وجدوا أغلبيتهم فى الدولة اليهودية محصورة فى قاع المجتمع ، دون فرصة تذكر للنمو أو للصعود أو للانتقال ، فهذه دولة أقامها يهود أوربا لأنفسهم وعلى هيئتهم وقياسهم ، وعلى من يريد الصعود من سواهم فعليه أن يتماثل معهم ، ينضو عنه تراثه وثقافته ويهوديته الشرقية الأصلية ويرتدى يهودية أخرى غريبة وغربية ، نمت أو بالأحرى تعوق نموها ، فى أحياء اليهود المعزولة فى مدن أوروبا وأصبحوا ، هؤلاء اليهود الشرقيون ولا يسمعون عن ثقافتهم بل وعن يهوديتهم إلا الزراية بينما لا يرون فيها

ما يزرى ، فهى توصف بألسنة يهود المعازل الأوروبية بأنها شرقية وبأنها عربية ولذلك فهى لزوما متخلفة ، بينما الذى يميز إسرائيل هو تفوقها النوعى على العرب الذى هو ضمان أمن اسرائيل ، ناهيك عن بقائها .

فأى خيبة للآمال !

اليهود يضطهدون اليهود

وبررت الحركة الصهيونية حلم «دولة اليهود» الذى اختزله الواقع إلى «دولة يهودية» بأن هدفها ومسعاها ومبررها هو «تحرير اليهود» فإذا الدولة اليهودية هى أكبر مستودع فى العالم للتفرقة والتمييز ضد اليهود!

ففى الجيش الاسرائيلى ما يسمى خريطة عملياتية (أى غير رسمية) للأمن الطائفى : على أساسها يعامل الجيش جنوده اليهود . وتقسمهم الخريطة إلى الفئتين المعروفتين : الاشكناز أى اليهود الأوروبيين والسفارديم أى اليهود الشرقيين ، وتعتبر هذه الخريطة أن الفئة الأولى أكثر ولاء للدولة ، وأكثر كفاءة وبالتالى فمن المفروض أن تشكل هيكل الجيش والمؤسسة الأمنية كلها ، بينما تعترف للفئة الثانية بالولاء الشديد للدولة ، لكنها تراها ذات كفاءات غير مستوية ، وبالتالى فمهمتها أن تزود الجيش ومؤسسة الأمن بالطاقة البشرية الكبيرة الحيوية لمهمات الأمن ، أى بالوقود البشرى .

وطبقا لهذه الخريطة ، كان ٦٧ ٪ من الأنفار وضباط الصف في الجيش الإسرائيلى في أواخر السبعينات من السفارديم ، بينما كان نصيبهم بين صغار الضباط حتى رتبة نقيب ٣٠٪ ، تتضاءل إلى ٣ ٪ (ثلاثة) بين كبار الضباط ، أما مجموعهم في سلك الضباط فلم يزد على ١٧٪ ومن بين ٢٥ ضابطا برتبة لواء في الجيش الإسرائيلى، كان ثلاثة فقط من السفارديم ، واحد منهم فقط يحتل منصبا عسكريا فعليا .

ويقول عالم الاجتماع الإسرائيلى سامى سموحة (ويبدو من اسمه أنه شرقى - سفاردى) الذى رسم هذه الخريطة أو كشف عنها ، إن هذا ليس وضعا مؤقتا ولا عابرا والأسباب عديدة : فالجيش الإسرائيلى هو امتداد للهاجاناه، التى أقامها المهاجرون اليهود الأوروبيون الذين أقاموا الدولة ، فأقاموا الجيش على عقلية غربية أوروبية ، اعتبروها متفوقة ، واعتبروا تفوقها هو الذى يضمن التفوق النوعى على الجيوش العربية واعتبروا هذا «التفوق النوعى» ضرورة وجود لإسرائيل .

لكن سموحة يقول : أن المسألة أعمق ، فكما الجيش كما المجتمع ، فهو يقرر أنه في إسرائيل هناك تطابق بين الخريطة الطبقية والخريطة الطائفية ، فالشريحة الهامشية فى المجتمع ، معظمها يهود شرقيون ، وشريحة العمالة الدنيا ، كلها شرقيون تقريبا ، وشريحة العمالة الماهرة، معظمها شرقيون ، وفى الطبقة الوسطى وحدها يوجد قدر من التوازن

بين الشرقيين والاشكناز مع أفضلية للأخيرين ، أما الطبقة الوسطى - العليا ، فمعظمها من الاشكناز ، ونخبة السلطة اشكنازية بالكامل تقريبا .

ويقول إنه مع ذلك فما زالت المسألة أعمق ، لأن هذا التطابق بين الخريطتين الطائفية والاجتماعية قد تحول إلى ظاهرة دائمة فى المجتمع، ينتقل من جيل إلى جيل ويكتسب شرعية إجتماعية .

فأى تحرير لليهود !

وقالت الصهيونية أن دافعها وغرضها معا هو تحرير اليهود من العداء للسامية .

وبعدما أقامت الدولة اليهودية ، اكتشفت أن جرائم النازية قد حذرت العالم وطهرته من هذا العداء للسامية ، أو العداء لليهود .

فانزعجت ، لأن اليهود عندما لا تواجههم مشكلة يهودية بهذا المعنى، فهم لا يهاجرون ، لا يعودون إلى صهيون ، يبقون حيث هم .

واعتبرت «الدولة اليهودية» اختفاء المشكلة اليهودية من الشتات عرضا لمرض مستفحل وعدم واقعية ، وأحد معالم التفسخ والاحتضار كما يورد ميخائيل روزنيك ، وهو استاذ مرموق لفلسفة التربية فى الجامعة العبرية .

بينما يرى يهود الشتات (أى الذين لم يهاجروا إلى إسرائيل) أن

اليهود فى إسرائيل ، هم بالأحرى الذين يواجهون مشكلة يهودية أمنية ديموغرافية ، فجيرانهم لايريدونهم ، ولأن غير اليهود الذين يعيشون معهم سيصبحون أكثر منهم عددا فى مستقبل منظور .

الدولة اليهودية لا تستطيع أن تقيم وفاقا بينها وبين يهود العالم الذين تعتبرهم امتدادها الطبيعى فى هذا العالم .

فأى مستقبل ؟

وأرادت الصهيونية أن تحرر اليهود من عقد المنفى ، لكن بن جوريون عندما أبلغ فى ١٩٧٥ بأن الأمم المتحدة أدانت الصهيونية بالعنصرية كفكر وكحركة ، لم يجد ما يقوله سوى « ليس مهما ما يقول الأغيار ، المهم ما يقول اليهود» .

وهى عقدة من عقد المنفى .

وعندما تجد إسرائيل نفسها معزولة عن العالم وأممه ، لا شغل لها فى مجتمع الدول سوى الدفاع عن سلوكها ، لاتجد ما تقوله سوى «العالم كله ضدنا» .

وهى عقدة أخرى من عقد المنفى ، سوى أنها قبل إقامة الدولة كانت صيحة مريرة عاجزة ، أما بعد إقامة الدولة فترجمت نفسها فى الاعتماد على القوة العسكرية دون غيرها من وسائل الدول .

وبررت الصهيونية حلمها أو مشروعها بأنها تبغى تحرير اليهود من

الطفيلية الاقتصادية ، لكنها – الحركة الصهيونية – لما أقامت الدولة ، لم تلبث أن وجدت أنها أقامت دولة ذات اقتصاد طفيلى ، يعتمد على العون من الخارج ، ويقول مفكر استراتيچى أمريكى مرموق – انتونى كورد سمان – أنه لن يلبث أن يتحول إلى اقتصاد متسول .

بينما يقول مفكر إسرائيلى إن اقتصاد إسرائيل قد تحول إلى «اقتصاد مضاربات ، غير منتج ، يبتعد بإجماله عن جوهر الحلم الصهيونى الذى تطلع إلى مجتمع يهودى عامل ومنتج ، ويبدو أحيانا أن اقتصاد المنفى دخل من جديد إلى تخوم دولة إسرائيل » .

فأى مستقبل ؟

انكار اليهودية

والدولة اليهودية هى الدولة الوحيدة فى العالم التى لاتنتمى إلى مجموعة طبيعية من الدول .

وأعتبرت الدولة اليهودية أن الشتات اليهودى يعوضها عن ذلك رغم أن حلمها ، أو الحلم الذى قامت كى تحققه هو أن ينتهى الشتات الذى أعتبرته كتلتها الطبيعية .

إنما فوق عجزها عن إقامة وفاق بينها وبين هذا الشتات فهى لاتفتا تهدده وفى يهوديته ، فلو أخذت إسرائيل بالتعريف الأورثوذكسى لليهودى، لأنكرت على غالبية الشتات يهوديته ، وفى هذه الأغلبية معظم

اليهود الأمريكيين مصدر المال الذى يدعم والنفوذ الذى يحمى والضغط فى إسرائيل للأخذ بهذا التعريف قوى ومتزايد .

ثم إنها تطالب هذه الكتلة الطبيعية بولاء مزدوج ، تطالبهم بالولاء لها ، لا موازيا وإنما متقدما على ولائهم للبلدان التى يحملون جنسيتها ويعيشون فيها .

لكن كثرتهم تقول لإسرائيل « أنا أمريكى أولا ، أو أنا فرنسى أولا ثم يهودى ثانيا » حتى ولو كانوا يقولونها ، رعاية لمصلحة ظاهرة وحاكمة.

وتقول هذه الكثرة للإسرائيليين : لقد حققتم مشروعكم - الدولة - فلماذا تحاولون تخريب مشروعنا - الاستقرار ؟

فأى مستقبل ؟

المسكينة العظمى

وإسرائيل أصبحت الدولة الأعجوبة بين الدول ، فهى الدولة المسكينة التى يحاصرها بحر من العرب يناصبونها العداء وتتعاظم قوتهم كل يوم، لكنها تتصرف كأنها دولة عظمى فتفرض إرادتها وسطوتها على هؤلاء العرب ، ولا تفتأ تتحدث عن ذراع إسرائيل الطويلة ، وتقرر بقنابل الطائرات أن لها ، ولها وحدها حق تحديد سقف التطور العلمى والتكنولوچى للعرب أجمعين ، على نحو ما فعلت بالمفاعل النووى العراقى.

حتى أصبح العالم يحار كيف يعاملها هل هى دولة من الدول تدافع عن مصالحها الأمنية المشروعة أم هى عنصر لعدم الاستقرار فى النظام الدولى كما قال دبلوماسى إسرائيلى بارز .

فأى دولة ؟

أى دولة تلك ، التى يأخذ فيها فريق من الناس القانون بيدهم فى أدق ما يعنى الدولة - أى دولة - من أمور . فتقول حركات مثل حركة المستوطنات وهتحياه وموراشا وكاخ وغيرها إن الحكومة التى تتنازل عن أى جزء من الأراضى المحتلة حكومة غير شرعية ، وكلها حركات مسلحة برضا الدولة أو برضوخها . بمقتضى الاستيطان الذى هو من مقتضيات أمن إسرائيل .

فهنا مقتضيات أمن إسرائيل تتحدى أمن إسرائيل إن رأت حكومة ذات يوم أن الانسحاب من الأراضى المحتلة يوفر لإسرائيل الأمن .

فأى دولة ؟

ماذا لو ؟

أى دولة هذه التى تقوم على حلم تحقق القومية والاستقلال لشعب تصورته لنفسها (بقى معظمه خارجها يحمل جنسيات دول أخرى) ثم لا تلبث أن تجد نفسها رهينة وملحقا لدولة أخرى ، وتجد نفسها كذلك بحكم الضرورات التى كانت هى صلب إقامتها ؟ أو كما يقول بيتر

جروز وهو كاتب أمريكي صديق لإسرائيل ، يعمل مديرا لتحرير مجلة فورين افيرز «الشئون الخارجية» ومديرا لبرنامج الشرق الأوسط فى مجلس العلاقات الخارجية الأمريكى الذى هو من أهم المؤسسات الفكرية للسياسة الأمريكية إن لم يكن أهمها جميعا ، يقول جروز : «إسرائيل محمية اقتصادية لدولة أجنبية كبرى هى الولايات المتحدة ، لهذا فإن وضع إسرائيل الاقتصادى لم يعد مسألة داخلية ينبغى بقاؤها فى أيدى الاسرائيليين وبذلك تلاشت رؤيا الاستقلال الاقتصادى التى عول عليه الحالمون الصهيونيون الذين أقاموا الدولة ، وعاجلا أو أجلا ، سيكون للأمريكيين شاءوا أو أبوا ، كلمتهم فى تحديد الأولويات السياسية لإسرائيل » .

ولقد رأت إسرائيل فى ضمان الولايات المتحدة لوجودها ، ثم لأمنها، ثم لرخائها أيضا ضمانا ما بعده ضمان .

لكن ما فاتهم أن يروه ، كما يقول ديبلوماسى إسرائيلي مخضرم هو سيمحا دينتز الذى عمل فى سفارتها فى واشنطن من بعد حرب ١٩٦٧ حتى عام ١٩٧٨ ، وزيرا مفوضا ثم سفيرا ، يقول إن ما فاتهم أن يروه هو أن إسرائيل ليست الرصيد الإستراتيچى الوحيد للولايات المتحدة فى هذه المنطقة ، فهناك أيضا :النفط وطرق نقله إلى مواقع استهلاكه فى الغرب .

على أى حال ، فهو لا يمد هذه النظرة التحذيرية على استقاماتها ، فيقول أن المصلحة الأمريكية الأصلية هى النفط وطرق نقله ، وهى التى بيد العرب ، وإن مكان إسرائيل في هذه المصلحة الأمريكية هو مكان وظيفي .

أى إنه إذا تغيرت المصلحة ، أو تغيرت الموازين التى تحكمها ، تغير المكان الوظيفي ، إلى حد أنه يمكن أن تفقد وظيفتها .

وفى إسرائيل هذا قلق كبير على مستقبل الدولة يعبرون عنه بالقول إنه لا أحد فى إسرائيل يجرؤ أن يسأل نفسه ماذا لو غيرت الولايات المتحدة موقفها ، أو فقدت مصالحها فى المنطقة ، أو تغيرت أقدارها ومقاديرها ، أو تغيرت موازين القوى ، أو تغيرت قواعد الصراع الدولى أو حل فى علاقات السوفييت والأمريكيين نوع من الوفاق الإيجابى بدلا من الاستقطاب أو ما سبق بينهما من وفاق بالامتناع ، بل إذا حل السلام الشامل الذى تقوله إسرائيل إنها تنشده ؟

وهو سؤال أصبح من الشيوع ، بحيث يختصره الإسرائيليون فى كلمتى : ماذا لو .

لكن الإسرائيليين لايسألون أنفسهم : وماذا لو استجمع العرب أمرهم وغيروا ما بأنفسهم ، واستبدلوا بضعفهم قوة ، واحتكموا على النفط وسيطروا على طرقه ؟

فأى دولة ؟

لا بالحرب ولا بالسلام

وأي مستقبل ينتظر دولة تواجه مأزق أمن ، لا تخرجها منه الحرب ونتصور أنه لن يخرجها منه السلام ؟

وقد بدأ مأزق الأمن مع النشأة ، بل هو صلب هذه النشأة ذاتها ، فقد بنت الحركة الصهيونية تصورها عن دولة اليهود على وهم آخر من الأوهام ، وهم أن فلسطين التى تسميها أرض إسرائيل هي أرض بلا شعب وبالتالى يستحقها هذا الشعب اليهودى الموهوم والذى لا أرض له. لم تكن المسألة تدور بين المعرفة والجهل ، لأن العالم كله كان يعرف أن هذه الأرض هي أرض شعب آخر ، لكن المسألة هى أن الطمع فى الحقائق لا تبرره إلا أوهام ، وقامت الحركة الصهيونية فنظمت وخططت وعملت وتآمرت متذرعة بهذا الوهم ، وجاءت بمن استطاعت أن تجئ به من اليهود ، ووجدت أن إقامة الدولة تقتضى أن تضعهم وتضع نفسها في خدمة القوى التى بيدها الأمر فلم تتردد . لم يجعلها تتردد أن هذه القوى التى بيدها الأمر ، كانت قوى معادية للأمة التى ينتمى إليها الشعب صاحب الأرض ، بل أن ذلك بالذات كان يناسبها ، فالطامع لا يعينه إلا المغتصب ، وكانت هذه هى البذرة الأصلية لمأزق الأمن ، جاءت الدولة اليهودية محمولة على موجة معادية ، وقاتلت الحركة الصهيونية لتقيم الدولة ونجحت ، وأقامتها وإن يكن على قسم من أرض إسرائيل ،

وإذا كان أصحاب الأرض قد غلبوا ، فإنهم لم يستسلموا ، فبدأ نمو مأزق الأمن .

فالعرب لم يعترفوا بأن هزيمتهم في ١٩٤٨ و ١٩٤٩ هزيمة نهائية ، فانتهت تلك الحرب بهدنة مسلحة ، أدت إلى حرب أخرى ومن حرب إلى حرب ، كما هو معروف .

وفي كل حرب انتصرت إسرائيل وهذا أيضا معروف ، حتى حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، رأت فيها إسرائيل هزيمة في البداية ونصرا في النهاية.

لكن النصر في هذه الحروب جميعا كان نصرا كالهزيمة .

لأن هذا النصر لم يحقق لها اعتراف العرب .

ولأن هذا النصر هو الذي قاد الدولة اليهودية إلى أن تصبح تابعة ، ملحقة ، رهينة لقوة دولية كبرى على نحو ما رأينا ونرى .

ولأنه من مفارقات هذه الحروب جميعا ، أنه كلما كان النصر العسكري الإسرائيلي واضحا وحاسما، كلما ضؤلت ثماره السياسية ، مثلما حدث في حربي ١٩٥٦ / ١٩٦٧ ، وكلما كانت نتيجة القتال بين - بين استطاعات إسرائيل أن تجني بعض الثمـــار مثلما حـــدث في حرب ١٩٤٨ حيث جنت إقامة الدولة وإن لم يكن على أرض إسرائيل كلها ، ومثلما حدث في حرب ١٩٧٣ حيث جنت إسرائيل سلاما مع مصر .

وكان من شأن هذه المفارقة أن تتعلم إسرائيل درسها ، فكان من شأن نتيجة حرب ١٩٧٣ مثلا ، أن تتعلم الحركة الصهيونية أن طريقها إلى حل مأزق الأمن هو مبادلة الأراضى بالسلام على نحو ما حدث مع مصر .

لكنها لم تتعلم .

هل نقول لأنه ليس ممكنا أن تتعلم ؟

لم تتعلم «الدولة اليهودية» أن الحرب لن تأتيها بالأمن ، رغم أن مأزق الأمن أصبح يبتلع ثلث ناتجها الاقتصادى ، ورغم أن كل حرب «ظافرة» تزيد من هذا العبء ، ورغم أن كل حرب «ظافرة» تؤدى بها إلى امتداد أوسع لما تعتبره مصالحها الأمنية حتى وصلت هذه المصالح إلى حدود الهند شرقا والمحيط الأطلسي غربا وجنوب أوروبا شمالا ، والمحيط الهندى وجواره فى شرق أفريقيا جنوبا .

وكأنها امبراطورية عظمى من امبراطوريات التاريخ .

أليست مفارقة أن هذه الدولة المسكينة ترى لنفسها مصالح أمنية تفوق أحلام الاسكندر الأكبر ، وحدود الأمبراطورية الرومانية وأطماع بونابرت ؟

وهل تطيق دولة مثل إسرائيل بحجمها وبعدد سكانها من اليهود ، وقدرتها الاقتصادية مضافة إليها معونات الامبراطورية التى تحميها ومعونات يهود العالم ، هل تطيق هذا الدور ؟

أم أنها لا تستطيع أن ترى ما تحت أنفها من حقائق ؟

فأى مستقبل ؟

والدولة اليهودية تعتصم بالحرب لأنها تخاف السلام .

تخاف إن حل السلام أن تفقد وجهها فى المطالبة بالعون ، سواء من الولايات المتحدة أو غيرها من الدول ، أو من يهود العالم .

وهى فى غياب العون لا تستطيع أن تعيش ، فقد جاءت إلى هذه الأرض بشعب يريد أن يحيا الرخاء فى اقتصاد فقير بالضرورة ، وعودته أن له حقا فى أن يعيش الرخاء على حساب الآخرين .

فهى تؤسس حقها فى المعونة الأمريكية بالقول أن حاجة الولايات المتحدة إليها ، لا تقل عن حاجتها هى إلى الولايات المتحدة .

لكن الأمريكيين فى الحقيقة يشكون فى ذلك ، يقول بيتر جروز الذى سبق ذكره «أن هناك نزاعا أمريكيا - اسرائيليا خفيا حول شرعية المعونة الأمريكية ، التى ينفقها الإسرائيليون على الاستهلاك ، ويرون أن لهم حقا فيها لأنهم يعيشون على جبهة استراتيچية : الحياة عليها قصيرة» .

فإذا حل السلام ، لم تعد الدولة اليهودية هى هذه الجبهة الاستراتيچية التى يتحدث عنها الإسرائيليون ، أو لم تعد لها هذه الأهمية ومن شأن هذا أن يأكل مبرر المعونة .

حتى ولو أتى هذا التغير بطيئا ، وهو بالضرورة سيأتى بطيئا .

وتخاف إن حل السلام أن يستعيد اليهود الشرقيون وهم الآن أغلبية السكان وعيهم بأولوية هويتهم الشرقية التى يسميها الاشكناز بازدراء : عربية .

تخاف المؤسسة الصهيونية - إن حل السلام - أن يتوحد اليهود الشرقيون مع العرب ضد المؤسسة الصهيونية .

تخاف السلام لأسباب تمتد من أكبر القضايا إلى التفاصيل والعوامل الثانوية والتنبؤات الاحصائية .

ولأنها تخافه ، فإنها لا تريده قائما حتى على شىء من العدل .

فهى تعرف أن العرب مستعدون لقبول سلام قائم على قدر من العدل .

لكنها بعد أن حاربت هذه الحروب كلها وقاتلت هذا القتال وحققت هذه الانتصارات أصبحت تخشى أن قدرا من العدل فى صلب السلام ، سيؤدى إلى أن يطمع بها العرب .

لذلك لا تريد إلا سلاما تفرضه وإن يكن من خلال شكل المفاوضات، تريد سلاما يقنع العرب بقوتها وسطوتها وبأنها لا تهزم أو تتراجع .

أى تريد سلاما مستحيلا .

وحتى لو حصلت عليه ، لو حصلت على سلام يعطيها ما تحتل من الأراضى ، أليست هذه بذرة حرب جديدة ؟

وحتى لو حصلت على السلام على هذا النحو ، فالمفارقة فيه تصل إلى حد الكارثة بالنسبة للدولة اليهودية ، ففي ظل هذا السلام يصبح العرب هم أغلبية سكانها خلال ربع قرن من الزمان أو يزيد قليلا .

وتكف إسرائيل عن أن تكون دولة يهودية وتجد الحركة الصهيونية نفسها صفر اليدين ، فبعد أن ضاع الحلم يضيع الواقع الذى حققته .

وقد تؤجل هجرة يهودية يشجعها السلام هذه الكارثة لكنها لن تلغيها .

وهذا كله إذا حققت إسرائيل السلام بشروطها ، وفى الوقت ذاته أقرت لسكان ما ستضمه من أراض بحقوق المواطن .

فإذا أنكرت هذه الحقوق ألقت ظلالا كثيفة على ديموقراطيتها فى نظر قسم من شعبها اليهودى ، وفى نظر العالم ، وهذه الديموقراطية هى إحدى وسائلها فى استدرار التعاطف والمعونات .

حتى إذا قبلت سلاما قائما على قدر من العدل ، فانسحبت من الأراضى التى احتلتها فى ١٩٦٧ فإن الأغلبية العربية سوف تتأجل ، إنما ليس وقتا طويلا ، إلى حوالى النصف من القرن المقبل ، بدلا من حوالى الربع منه .

وهذا هو مـأزق الأمن الذى لم تحله الحـرب ، ولا تثق إسـرائيل ، بل لا تعـتقـد ، بأن السـلام قادر على إخراجـها منه ، وعندها فى هذا ما يقرب من اليقين .

لذلك تجد نفسها محكومة بالمضى من حرب إلى حرب .

كأنه قدر !

فأى مستقبل ؟

بل ، ويااله من مستقبل !

الفصل الثانى

مستقبل إسرائيل - ٢

مأساة الوطن المستحيل

صفة الوطن أن يكون تاما ونهائيا لمواطنيه. تاما تعنى أن لا تعتقد جماعة معتبرة من المواطنين أن شيئا من أرضه يقع خارج حدوده السياسية المعترف بها، ونهائيا تعني أن لا جماعة معتبرة من المواطنين تتطلع إلى غيره وطنا لها.

مثال هذا : مصر للمصريين ، وفرنسا للفرنسيين ، وبريطانيا للبريطانيين ، على تعدد أعراقهم، وهكذا.

مصر للمصريين وطن تام ونهائي، فلا أحد من المصريين - فضلا عن جماعة معتبرة منهم - تعتبر الوطن منقوصا حتى . دعاة وحدة وادي النيل وأنصارها، لم يدخل فكرهم يوما أن مصر لا تتم إلا

بالسودان، وإن جاز القول انهم اعتقدوا انها «تزداد تماما» وإن كان الارجح أن صياغتهم لتلك الدعوة ومعتقدها ألبست المصلحة ثوب وحدة الوطن والتراب، بحكم أن المصالح ثابتة وغلابة ولا متناهية ومصكوكة فى التراب معجونة بمياه النيل.

وحتى دعاة القومية العربية وأنصارها ، لم يدر بخلدهم أن مصر وطن ناقص أو منقوص بكون امتداد التراب العربى يقع خارج حدوده، انما ربما قد رأوا فى الجامع العربى حافظا للهوية، أو مبررا لدور مصر فى «مجال حيوى» لا غنى عنه، أو تعويضا عمّايعرفون أن عليهم بذله نودا عن بيئة تربطهم بها وشائج تاريخية ودينية وثقافية عميقة، وفى سبيل تحقيق قدر مطلوب من وحدة القياس مع شعوبها، أو صياغة أرقى للمصلحة المشتركة تتنزه بها عن عارض الغرض.

وهذا هو معنى أن مصر «وطن تام» للمصريين.

أما معنى نهائيته فأيسر أمرا، فلا جماعة معتبرة من المصريين تتطلع إلى وطن آخر بديل للوطن، فمن يهاجرون يعودون، ومن يهاجرون هجرة نهائية أفراد من الجماعات كلها، لكنهم ليسوا جماعة بعينها ولا من جماعة بذاتها.

ولقد استغرق المثال المصرى على تمام الوطن ونهائيته ما استغرق

من سطور هذا المقال، رغم أن هذا المثال ليس موضوعا له، إنما لأنه هو المثال القريب الحميم لتوضيح فكرة قد تتبدى غير واضحة.

- ١ -

اما الموضوع فهو إسرائيل.

هل هى وطن لمن تقول دعواها وعقيدتها أنهم مواطنوها؟

هل يمكن أن تصبح وطنا لهم؟

هل يمكن أن تبقى كذلك إن هى أصبحت؟

مايبرر طرح هذه الأسئلة وعلى هذا النحو أن الحركة الصهيونية، وعاء العقيدة التى قامت عليها الدولة قد انتحلت صفة «حركة التحرر الوطنى».. وبهذا الانتحال وصفت هدفها بأنه «إعادة إقامة الدولة اليهودية فى وطن اليهود» أو «فى أرض الميعاد» أو فى «أرض إسرائيل» على تنوع الصياغات دون اختلاف الدلالات وعلى ما يجمع بين هذه الصياغات من إبقاء «تراب الوطن» محاطا بالغموض، فتحديده غيبى وحدوده مغيبة.

أى أن إسرائيل تزعم أنها «وطن اليهود» أو أنها تريد أن تكون كذلك، أو فى نهاية المطاف ستكون، ولايرضى عقيدتها أن تكون «وطنا لليهود» بما يعنيه هذا الوصف الأخير من أن تكون إسرائيل وطنا لليهود ولغيرهم، وفى الوقت ذاته أنه تكون لليهود أوطان أخرى غير إسرائيل.

أنظر الجدل الدائر حول الحفاظ على «يهودية الدولة» وهو الجدل الذى يدور بين «الحمائم» السياسيين الذين يعارضون ضم الأراضى المحتلة «محافظة على يهودية الدولة» من طغيان محتوم لأعداد غير اليهود، وبين «الصقور» السياسيين الذين يدعون الى التوسع أو «استكمال التراب الوطنى» وطرد السكان غير اليهود، وأيضا «محافظة على يهودية الدولة».

أنظر أيضا فى علاقة «الدولة» اليهودية و«الحركة» الصهيونية باليهود الذين لم يصعدوا (يهاجروا) إلى إسرائيل، تراها علاقة تعيير وصل إلى واحد من حدين لئيمين، بن جوريون يدعو إلى «التسامح» مع هؤلاء و«الصبر» حيالهم. بينما مناحيم بيجين يعيرهم بنقص يعيب «يهوديتهم» ، وهى فى الحالين علاقة ابتزاز، فعليهم أن يفعلوا ماتأمرهم به إسرائيل أو الحركة الصهيونية وأن يدفعوا ما تطلبه منهم ممتثلين صاغرين.

– ٢ –

إسرائيل – إذن – تزعم أنها «وطن اليهود»..

وعلينا أن ننظر فى هذا الأمر وأن نرى إلى ما له من أوجه.

وطن اليهود فى عقيدة الدولة الصهيونية تعنى أنها وطن لليهود جميعا، ولذلك يقول إعلان قيامها انها «سوف تفتح أبواب الوطن على

مصاريعها أمام كل يهودي» وأنه سوف تفتح دولة إسرائيل أبوابها أمام الهجرة اليهودية لتجميع شمل المنفيين»..

ولقد أوفت إسرائيل بما وعدت، ولكن أغلبية اليهود لم يذهبوا، لم يهاجروا إليها، لم «يصعدوا» إلى «أرض الميعاد» . فمازال اثنان على الأقل من كل ثلاثة يهود يعيشون «خارج الوطن» ولاينوون «العودة» إليه، لكن إسرائيل تعتبرهم «منفيين» أي أنها تعتبرهم «مواطنين» وتعتبر نفسها «وطنا» لهم بالمآل.

أي انه بهذا الوجه من أوجه هذا الأمر، فإن إسرائيل قد أصبحت «وطنا» يعيش أغلبية «مواطنيه» خارج حدوده،. حاملين جنسيات أخرى، منقسمين في «مواطنات» أخرى، ولاينوون «العودة» إلى ذلك الوطن، وأقصى مايقول بعضهم صادرا عن «ورع صهيوني» ، أن إسرائيل هي «وطنهم الروحي»، أو أقصى مايقول بعضهم صادرا عن «خوف يهودي» أن إسرائيل هي «وطن الملجأ الأخير» يقصدون «الملجأ الأخير» أن تحققت أسوأ مخاوفهم، واندفع – مرة أخرى – إلى العلن والعمل ما هو مستكن في الحضارة المسيحية الأوروبية من عداء لليهود يتسمى «العداء للسامية».

إسرائيل إذن، وعلى خلاف دعاواها جميعا، ليست وطنا – لا حقيقيا ولا موهوما، لا راهنا ولا مأمولا، لأغلبية ساحقة من مواطنيها المفترضين.

فلننظر إذن فى مواطنيها المقيمين، واحد على الأقل من كل عشرة منهم يعيش - نهائيا - «خارج البلاد» وإن كان يحتفظ بجنسيتها وما إلى ذلك من سمات، والمقصود هنا هم المواطنون اليهود، ويقول بعض مفكريهم أن من أبرز خواص «الشعب الإسرائيلى»، أى هؤلاء اليهود المقيمون فى الدولة، والتى لايصارح أحد نفسه بها أن «عقدة الحصار» تستحكم بهم، فالدولة انشئت محاصرة، ولذلك ما أن يجد واحدهم فرصة للفرار حتى يهرب متظاهرا بنية العودة حتى لايواجه نفسه بالتخلى عن أسطورة الانتماء إلى «أرض الميعاد» وهى الأسطورة التى تشكل قوام وجدانه.

حتى ان بعض الساخرين المتشائمين من هؤلاء يقولون أن «السلام» مع العرب، وانتهاء الحصار يهدد الدولة بهجران سكانها أو معظمهم، ففى ظل الحصار غادرها الأكفاء والأذكياء ما لم يكونوا متعصبين.. وما لم يكونوا عظما من عظام المؤسسة الصهيونية، وما أن يحل السلام حتى يجد الأقل كفاءة وذكاء فرصتهم فى الفرار أيضا، حيث يمكن أن تكون فرصهم أفضل فى مجتمعات أقل تقدما، خصوصا من تعود أصولهم إلى تلك المجتمعات.

إلى هؤلاء تعرف الدولة اليهودية ضربا من المواطنة لم تعرفه دولة لا من قبل ولا من بعد، هؤلاء هم «المواطنون العابرون» الذين هاجروا إلى الدولة لكى لايستقروا فيها . وانما لانها «معبر» ضرورى إلى بلد آخر.

أحدث الأمثلة لهؤلاء «المواطنين العابرين» هم اليهود الذين هاجروا إلى إسرائيل من بلدان الاتحاد السوفييتى السابق فى السنوات الأخيرة. ذهبوا إلى إسرائيل لأنهم يريدون أن يهاجروا إلى الولايات المتحدة ويستقروا فيها، لكن تلك الأخيرة - خدمة للمشروع الصهيوني - حجبت عنهم سمات الدخول إلى أراضيها، فذهبوا إلى إسرائيل معلقين الآمال على «العلاقة الخاصة» التى تيسر لمواطنى الدولة اليهودية الدخول إلى أرض الأحلام.

هل يمكن القول أن إسرائيل «وطن نهائى» لهؤلاء وأولئك؟ لمن هاجروا منها ولمن ذهبوا إليها «عابرين»؟

وليست هذه وتلك هى منتهى مفارقات «الوطن» اليهودى، فالمفارقة الكبرى هى حالة المواطنين الإسرائيليين من غير اليهود ، أى الفلسطينيين، واحد من كل خمسة مواطنين اسرائيليين من هؤلاء. والمفارقة أن هؤلاء هم الجماعة الوحيدة المعتبرة من بين السكان التى يستقر اليقين بأنهم يعتبرون ذلك البلد «وطنا نهائيا لهم» وإن لم تكن الدولة دولتهم ، بل وإن كانوا - فى نهاية التحليل - أعداء لتلك الدولة.

هذا بصفة عامة هو مدى «نهائية» اسرائيل كوطن لسكانها، اليهود وغير اليهود، وهذه هى حدود هذه النهائية.

- ٣ -

أما «تمام» الوطن، فهو المسألة الكبرى فى إسرائيل، فهى موضوع

انقسام «الشعب» كما أنها باقية مصدرا للنزاع والصراع مع العرب، حتى ولو تحقق السلام، وبعد أن يتحقق السلام إن كان له أن يتحقق .

منذ أن بدأ الاستيطان اليهودى المنظم فى فلسطين مطلع هذا القرن، أو ما أسمته الحركة الصهيونية «استعمار فلسطين» والخلاف ناشب فى صفوف الحركة الصهيونية حول «حدود الوطن اليهودى» أى حول التعريف الجغرافى لأرض الميعاد. فى الأساس - أى فى الأسطورة - لم يختلفوا كثيرا، فلم يقل أحد أو طرف انها ليست من النيل إلى الفرات، حسب ما أصر المتطرفون، إنما كان النزاع حول ما هو «مثال» وما هو «ممكن» كان خلافا بين «التبشيريين» وبين «السياسيين» اذا شئت، لذلك عندما اقترحت بريطانيا، عظمى الدول فى ذلك الزمان فى الثلاثينات ، خطة لتقسيم فلسطين بين العرب واليهود، دعا ديفيد بن جوريون، إلى قبول الخطة، بينما رفضتها الأغلبية فى المؤتمر الصهيونى العشرين . لكن بن جوريون استطاع أن يحصل على ترخيص له بالتفاوض حول الخطة البريطانية، وكانت أقوى حججه التى اتاحت له الحصول على ذلك الترخيص بالتفاوض أنه رأى «إمكانية نقل السكان العرب، برضاهم أو بالقوة، ومن ثم توسيع الاستيطان اليهودى».

وتكرر الخلاف نفسه وبالأبعاد ذاتها حيال قرار الأمم المتحدة تقسيم فلسطين فى ١٩٤٧، وعندئذ كسب «السياسيون» الجولة من «التبشيريين» لأن بن جوريون أصدر أوامره إلى قوات

الهاجاناه والبالماخ بتوسيع حدود الدولة وراء ما قررته الأمم المتحدة.

لكن الحدود لم تكن أبدا نهائية ومازالت كذلك.

اقرأ برنامج الليكود للانتخابات الاسرائيلية (التى ستكون قد جرت عندما يصدر هذا المقال) : «حق شعب إسرائيل فى الحياة من البحر المتوسط إلى نهر الأردن.. حق أبدى لايمكن زعزعته ، وإن هضبة الجولان هى جزء لايتجزأ من أرض إسرائيل».

ويجوز القول أن هذه الدعاوى هى الأقرب تمثيلا للتفكير السائد فى إسرائيل، فبرنامج التحالف العمالى – المعتدل – يأخذ منها بطرف غير قليل، فما سيجرى بحثه فى مفاوضات «الوضع النهائى» مع الفلسطينيين هو «الحدود الفاصلة» بين إسرائيل وبين هؤلاء، اما الحدود الأمنية للدولة فهى نهر الأردن، وما يمكن أن تقدمه إسرائيل مقابل السلام مع سوريا هو «انسحاب في الجولان» وليس من الجولان.

الوطن إذن – فى نظر الحركة الصهيونية والدولة الإسرائيلية لم يتم بعد.. وفى اعتبار العقيدة الصهيونية فإن هذا الوطن لايتم إلا وفق الاشارات الاسطورية التوراتية.

– ٤ –

قد يتبين ذات يوم ان مأساة الصهيونية هى فى تلك العلاقة الجدلية بين صفتى الوطن اللازمتين ليكون وطنا، أن يقتنع مواطنوه بتمامه ونهائيته.

والمصدر الممكن والمحتمل لمأساوية تلك العلاقة أن الوطن اليهودى الذى أرادته الصهيونية فى فلسطين لن يكون وطنا نهائيا لغالبية سكانه من اليهود إلا عندما يتحقق تمامه.

ومقتضى تحقق هذا التمام أن يتفق الصهاينة فيما بينهم على تطبيق جغرافى لأرض الميعاد. ومقتضى العقيدة الصهيونية فى هذا الشأن أن تتطابق رؤى «التبشيريين» من الصهاينة مع رؤية «السياسيين» منهم، فإذا استطرد المناخ الروحي السائد فى إسرائيل الآن، سيكون على «السياسيين» أن يحققوا «للتبشيريين» رؤاهم وهو مانرى مقدماته في وجل السياسيين، متشددين ومعتدلين، أمام حركة الاستيطان اليهودى فى أراضى الضفة الغربية وقطاع غزة.

لكننا نرى هذا المقتضى ذاته في عمق أبعد غورا أو أشد خطورة، فى حرص الدولة اليهودية على استبقاء سلاحها النووى حتى «بعد أن يتحقق السلام» وهو حرص عبر عنه «الحمائم» الحاكمون الآن بأوضح مما عبر عنه «الصقور» المعارضون، ومهما كانت الذريعة التى تقول أن إسرائيل تحتاج سلاحها النووى «كملجأ أخير» أى إن أصبح وجودها كدولة معرضا للخطر، فإن أحدا فى هذه الأمور لا يفصح عن حقيقة أغراضه، أما الغرض الأولى بالاشتباه فهو أن مزاوجة بين الاستيطان وبين السلاح النووى تعبر عن خطة ابتزاز عسكرى ترمى إلى «إتمام» الوطن حسب الرؤية التبشيرية الصهيونية.

حتى هنا قد تكون هذه مأساة العرب فى المستقبل، مأساتهم حيال الدولة اليهودية التي يسعون الآن إلى إقامة سلام معها وفق شروطها.

لكن ما يرشح المستقبل لأن يكون مأساة الصهيونية او المأساة التي تجلبها الصهيونية على اليهود، هو مفارقة انه إلى جوار إسرائيل، وممتدا فى داخلها، وكامنا تحت سطحها وطن آخر يتوازى معها ويتناقض، وهو وطن يعي مواطنوه أنه لم يحقق تمامه بعد، لكنه في كل الأحوال وطنهم النهائي الذين لم يتطلعوا يوما ولن يتطلعوا يوما إلى سواه.

موضع المأساة أن الوطن اليهودى، لايتم إلا على حساب الوطن الفلسطينى بإلغائه، وأن الوطن الفلسطينى، لايتم إلا على حساب الوطن اليهودى وبإلغائه.

وقد تبدو هذه وكأنها مأساة الاستحالة، مستحيل يقابل مستحيلا وينازعه.

وهى مأساة لايحلها إلا جدل التاريخ وتجربته القاسية، انما سيظل كون اسرائيل وطنا «غير نهائى» لمواطنيها المقيمين والمفترضين - الذين تصفهم بالمنفيين، خميرة حية لعدم استقرارها.

لكن الأخطر هو اقتناع اسرائيل - مواطنين ومؤسسات والدولة ذاتها - بأنها «وطن لم يتحقق له التمام بعد، فسيبقى هذا الاقناع مصدرا لعدم الاستقرار فى المنطقة كلها، رغم اى اتفاقات للسلام وايا كانت شروطها.

الفصل الثالث

من التسوية إلى اعادة توحيد فلسطين

لا يمضغ الاسرائيليون كلامهم . فلماذا نمضغ نحن كلامنا ؟

بينما يقول منهم قائل «ولا شبر من الأرض» ، يقول منا قائل أننا نقبل «نهائيا» بتسوية «نهائية» نتنازل فيها «نهائيا» عن أكثر من ثلاثة أرباع الأرض .

وبينما يقول منهم قائل بضرورة طرد العرب من فلسطين ، يتحدث البعض منا عن التآخي الفلسطيني - الاسرائيلي أو العربي - الصهيوني.

وعندما يأتي إلينا «دعاة السلام» منهم يطلبون منا المزيد من التنازلات كي «يدعموا بها موقفهم معنا» و «ليكسبوا بها الجمهور من المتشددين» ، نغرق طواحينهم بزيت التنازلات ومشكلتنا في هذا كله :

أننا عندما نعلن التنازل النهائى عن الأرض لا نصدق أنفسنا فلا يصدقنا الاسرائيليون .

وأننا عندما نتحدث عن التآخى معهم نشد وتر إنسانيتنا أكثر مما يطيق ، فنفقد الكرامة ولا نكسب الواقعية ، فيستهين بنا الاسرائيليون .

وأننا عندما نغرق طواحين «دعاة السلام» بزيت التنازلات ، نقوى مراكز المتشددين بل والمتعصبين .

الفرق بيننا وبين الاسرائيليين فى هذا المجال ، أنهم حيث لا يمضغون كلامهم ، يصفُّون العالم من ورائهم كى يقنعنا بالمزيد من التنازل ، ولكى يسعى إلى ارضائهم ، بينما نغالط نحن أنفسنا ، ونظن أننا نكسب اعجاب العالم ورضاه بسماحتنا وأريحيتنا ، ونكسب بالتالى تأييده ، بينما ما يراه العالم فى هذا هو «واقعيتنا» التى لا تعنى أكثر من اقرارنا بالهزيمة .

لقد عرف الاسرائيليون ، ولم نعرف نحن : أن الصراع بيننا وبينهم قد وصل إلى حد أصبحت فيه الصراحة جارحة ، والغمغمة عديمة الجدوى .

وقد اختاروا الجارح .

بينما اخترنا ما لا يجدى .

صراحتهم الجارحة هى مطالبهم القصوى.

فهل لنا صراحتنا الجارحة؟

نعم ، بل وإن الصراحة الجارحة هى بعض ما نحتاج الآن ؟

وفى هذه الصراحة الجارحة علينا أن نقول الآن وعلنا ورسميا ما يلى :

- ١ -

إن التسوية المطروحة الآن ، تسوية تعنى بمستقبل اسرائيل وليس بمصير الشعب الفلسطينى ، فهدفها هو ضمان أمن اسرائيل واستقرارها ورخائها وبقائها .

وأن ادراج «حق الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره» - المختلف عليه ، والقبول غير الشامل حتى الآن بقيام دولة فلسطينية مستقلة فى الضفة الغربية وقطاع غزة - كحد أقصى ، إنما يقع فى سياق هذه التسوية كأحد الضمانات التى تقدم لاسرائيل .

وهنا علينا أن نقول أن ما يعنينا هو مستقبل فلسطين وليس مستقبل اسرائيل .

أى أن الفرق بين التسوية المطروحة وبين ما يعنينا ، هو أنه فى تلك التسوية ، أمن اسرائيل وبقاؤها هو الأصل ، وما عداه فروع وضمانات. أما عندنا فإن مستقبل فلسطين هو الأصل ، ما عداه تفريعات ورواسب وبقايا غير باقية فى مسيرة التاريخ .

- ٢ -

إن هذه التسوية يطرحها إجماع دولى تحركه عوامل سلبية ، تحركه الحاجة إلى وضع حد لهذا الصراع العربى - الاسرائيلى الذى أرهق أربعين عاما من السلام العالمى المفترض ، وأصبح استمراره مهددا لهذا السلام .

ولم يكن لهذا الاجماع الدولى أن ينعقد ، لولا أن أحس أطرافه بخطر هواننا ، وهو الخطر الذى رآه فى الانتفاضة الفلسطينية . ولولا أن استفزتهم مغالبة اسرائيل الاعتراف بحدود قوتها .

فهو إجماع ينعقد لصالح أطرافه ولصالح اسرائيل ، أكثر مما هو لصالحنا.

- ٣ -

إننا ندرك أن لا حيلة لنا فى قبول هذا الإجماع الدولى ، لأنه لا مفر لنا من قبوله . وهذه هى الأسباب :

أ - أنه إجماع شامل وضاغط ، يضم أصدقاءنا إلى حلفاء أعدائنا .

ب - أنه رغم ترتيبه لأولوياته - أمن اسرائيل وبقاؤها هو الأصل والدولة الفلسطينية هى الفرع وهى من الضمانات التى أصبحت ضرورية للأصل - رغم ذلك ، يمكننا أن نحقق من خلاله وعلى أساسه ما لا نستطيع أن نحقق بدونه .

ج - أننا نعرف أن العالم على أبواب توازن دولي جديد ، وأننا نتخوف من أن هذا التوازن الجديد لن يكون خادما لما قد نسعى إليه من بناء قوتنا على نحو يرفعها إلى مستوى مهمات الصراع ومتطلباتها ، لذلك ، فإن مسعانا هو اللحاق بذيول التوازن المتقادم بما استجد فيه لصالحنا - ولو كان ثانويا ، ولأن ندخل ما ندركه بالتسوية المطروحة في صلب التوازن المستجد .

- ٤ -

إن هذا الأجماع الدولي الموصوف ، يرتكز على حصيلة تاريخ الصراع حتى الآن ، أو بالأحرى ، تاريخنا في الصراع حتى الآن .

وهو تاريخ من الانتصارات الاسرائيلية ، وأن احاطتها في المراحل الأخيرة انتكاسات محدودة يقدر على استيعابها المنتصر ، مقابل تاريخ من الهزائم العربية ، لمعت وسطها في المراحل ذاتها مؤشرات على قدرات ، لكنها لا تقيم عثرة المهزوم .

وانتكاسات المنتصر وقدرات المهزوم قرائن .

ففي حرب ١٩٧٣ ، كما في غزو لبنان ١٩٨٢ ، بانت حدود لا تستطيع قوة اسرائيل العسكرية أن تحقق شيئا بعدها ، كما استبانت للقدرة العسكرية العربية - المصرية والسورية في الأولى ، والفلسطينية

واللبنانية فى الثانية – ممكنات جديرة بأن تكون عوامل انتصار ، إن نمت وتراكمت .

لكن التراكم التاريخى للنصر إلى جانب والهزيمة على جانب ، أتاح للاسرائيليين أن يحققوا على أساس حرب ١٩٧٣ ما يفوق حدود قوتهم ، ومنع العرب من أن يدركوا بها ما كشفت عنه تلك الحرب من قدرتهم.

وجرى الشئ الشبيه من حول حصيلة حرب لبنان ١٩٨٢ ، فقد كسبت منها اسرائيل ما يفوق قوتها : أرضا لبنانية محتلة . معترفا بها كأمر واقع حتى من الأمم المتحدة ، ومزيدا من التمزيق فى لبنان ، ولم يدرك الفلسطينيون من شجاعة صمودهم ومعهم اللبنانيون فى بيروت المحاصرة ، ما هو أكثر قليلا من «خروج المقاتلين الشجعان» .

بل وأكثر من هذا بالنسبة لحرب لبنان : إذ يمكن أن توسم فى تاريخ الصراع بأنها الحرب الأولى من حروبه التى أدار لها بقية العرب ظهورهم وأغمضوا عنها العيون : فلا القتال ولا المدد ولا حتى الكلام .

هل ينكأ هذا جراحا ؟

لا بأس ؛ فالجرح المفتوح أقرب إلى الشفاء من الجرح الملتئم على صديد .

بل ، ولقد كانت حرب لبنان - فى ناحيتنا التى تعنينا - حربا كاشفة .

فهى لم تكشف فقط عن أن الدول العربية قد برمت بتكرار الحرب مع اسرائيل ورضيت بمراوغة النصر أو يئست منه .

إنما كشفت أيضا عن الطبيعة الحقيقة للحروب العربية السابقة ضد اسرائيل .

كشفت عن أنها كانت حروبا من أجل الأمن لا من أجل النصر ، فقد كانت حروبا ضد العدوان الاسرائيلى الشامل الذى يهددها ، وليست حروبا ضد المشروع الصهيونى الذى ابتلع فلسطين ، كشفت عن أن هذه الحروب كانت تعبيرا عن مخاوف الدول العربية وليست سعيا إلى أهدافها .

حرب ١٩٤٨ ، خاضتها دول عربية حديثة الاستقلال ، ترى أمامها قرارا دوليا يقطع أرضا من مشروع دولة شقيقة لها ، فكانت حرب الخوف من اتساع القرار الدولى أو تكراره لمصالح أخرى ، كما كانت حرب تأكيد هذه الذاتيات الوطنية المستجدة ، تأكيدها للذات فى مواجهة العالم ، كما فى مواجهة بعضها البعض .

بينما كانت حربا ١٩٥٦ و ١٩٦٧ ، وقوفا فى وجه عدوان اسرائيلى لا جدال يذكر على وصفه بذلك .

وكانت حرب ١٩٧٣ ، هى حرب تحقيق مطلب «إزالة آثار العدوان ، أى إعادة الجغرافيا السياسية إلى ما كانت عليه قبل حرب ١٩٦٧ ، بما فيها وجود اسرائيل كما كانت قائمة قبلها .

- ٥ -

أننا نقبل بهذا الاجماع الدولى الموصوف ، المرتكز على هذا التوازن ، لأننا نقر بهذا التوازن . نقر بأن المسعى العربى لرد العدوان الصهيوني على أرض فلسطين ، بالسلاح ، لم ينجح .

وأننا بهذا القبول وهذا الاقرار نحاول أن ندرك بالسياسة وبالدبلوماسية ما لم ندركه بالمدفع .

فهدف حرب ١٩٧٣ - إزالة آثار العدوان - لم يتحقق بعد ، والتسوية المطروحة ، هى مسعى لتحقيق هذا الهدف بالسياسة ، إنما مقابل ثمن هو أن تكون «إزالة آثار العدوان» أو ما يتحقق منها هى نهاية المطاف أو خاتمة الصراع .

ومن صالحنا ، على خلاف ما يظن الكثيرون ، أن نقول صراحة أننا نقبل الهدف ، أما الثمن فمسألة أخرى ، قد نقر به اليوم ، لكننا نترك مصيره للمستقبل .

لأننا ، اذ نقر بهذا التوازن ، وما قد يودى إليه هذا الاقرار ، ندرك فى الوقت ذاته أن أساس هزيمتنا هو ضعف تصميمنا الوطني ، وليس افتقارنا إلى عوامل القوة .

وأننا نقبل النتيجة المترتبة على هذا التوازن ، أى التسوية المطروحة ، لأنها قد تفسح لنا من المواجهة مع النفس ما يتيح لنا تنمية عوامل قوتنا ويرأب ما فى تصميمنا الوطنى من صدوع .

أى أننا نرى فى حصيلة التسوية – عندما تتحقق إن تحققت – الطريق إلى فرصتنا التى لم ندركها بالحرب .

أى أننا ، وبصراحة جارحة ، نقبل بالتوازن ونسعى إلى ما تسعى إليه التسوية المطروحة من سلام نراه سلاما جريحا أو هدنة مستقرة ، لأن هذا قد يحقق لنا أهدافنا بغير الحرب.

فهدفنا ، بوضوح لا يقبل المضغ أو الغمغمة ، هو أن نهزم الصهيونية : نظرية وحركة وواقعا على الأرض ، فعندئذ تصبح اسرائيل – حتى لو بقيت دولة – كيانا عاريا عن المبرر . كذبة مكشوفة ، تتكفل بها عوامل فشلها .

– ٦ –

أننا لا ندخل إلى مجرى هذه التسوية عراة تماما مما يستر عورة الهزيمة .

فالانتفاضة الفلسطينية هى التى حركت الاجماع الذى يطرح التسوية وبلورته .

وهى التى جعلته يخاف على اسرائيل وعلى سلام العالم من عمق هواننا . لكن علينا هنا أن نعرف حدود هذا الرصيد .

فإذا كانت الانتفاضة تبدو للبعض ، وبما للكثيرين ، تصحيحا لمسار سابق راوغه الصواب ، فإن وعدها كأسلوب حاسم فى النضال قد انقضى مع ما انقضى من تاريخ ، فالانتفاضات أو «حركات المقاومة الشعبية» تجد مكانها الصحيح فى مجرى الصراعات عندما تكون تمهيدا أو مقدمة لالتقاء السلاح بالسلاح ، ثم تصبح مؤخرة مدنية له ، لكن الحاصل هو أن الانتفاضة تخوض مجدها بينما الشعار العربى المطروح هو : «وداعا للسلاح» .

لذلك ، فالانتفاضة بكل ما لها من مجد ، ليست حربا أرقى ولا أفعل من كل الحروب ، إنما هى ، ولسبب لا يرجع إليها ، وإنما يرجع إلى موقعها فى زمن الصراع وتطوره ، هى «الحرب المظلومة» . فهى الحرب التى يقتل فيها المدنيون ويتعذبون ويتألمون ، بينما أصحاب الجيوش والسلاح يطاردون موائد التفاوض .

لأنه ، والوضع هو ما نعرف ، لا مفر من التفاوض .

وعلى هذه القاعدة تتخذ الانتفاضة موقعها الصحيح .

فهى الدعم الأقوى والأكرم لمفاوض يحاول أن يستخرج أفضل النتائج من حرب انتهت بالهزيمة .

- ٧ -

أنه لولا هذا الرصيد ، ولولا معرفتنا أنه هو الذى حرك الاجماع الدولى وبلوره ، ما قبلنا الدخول إلى مجرى هذه التسوية ، حتى ولو كانت قد طرحت .

فنحن نعرف أننا سندخل مفاوضات تسوية مع عدو غير ضعيف الثقة فى قوته ، ويعرف أن ميزان القوى يميل إلى كفته . وأن معقد الاجماع الذى يطرح التسوية هو تحقيق أقصى ما يمكن له محفوفا بأدنى ما يمكن لنا ، لذلك يطرح مطالبه القصوى .

وعندما يطرح عدو هذا وصفه ، مطالبه القصوى ، فإنها تكون هى برنامجه الذين لا يقبل التنازل .

لا يقبل التنازل إلا إذا أدرك أنه يتفاوض مع خصم يعرف أيضا قيمة ما لديه من قوة ، وهذه القوة ليست مجرد الانتفاضة ، وإنما كون الانتفاضة هى التى فرضت إجماعا دوليا يطرح التسوية بعد أن كان ينتظر منا التسليم .

- ٨ -

وأننا ندخل أيضا إلى مجرى التسوية المطروحة ، لأننا نرى فى وضع العدو ما لا يحب أن يرى ، نرى عوامل الضعف التى

تسدب فيه ، فى داخله . فى مركزه الدولى ، فى علاقته مع يهود العالم .

ونراها عوامل ضعف قد يرعاها السلام ، وقد يحفز استمرار الحرب مقاومة لها .

فالديموغرافيا تصبح تدريجيا عدو اسرائيل الأول على مستويات ثلاثة :

* المستوى الأول أنه ، حل السلام أم لم يحل ، يتغير التوازن السكانى فى فلسطين لصالح العرب على حساب اليهود .

وهو تغير تعطله هذه الهجرة اليهودية الضخمة والمضطردة ، والتى تعلق عليه الحركة الصهيونية آمالها .

وقد أتت هذه الهجرة بفعل عوامل لا تتصل بصراعنا مع اسرائيل أو الحركة الصهيونية ، وأحد الرهانات هو أن تحقيق هذا النوع من السلام لن يكون حافزا على الهجرة ، بل وقد يوقف قدرة اسرائيل على استيعاب الهجرة ، وفى مسعانا أن يكون من شروط السلام وقف الهجرة .

* المستوى الثانى : أنه بافتراض أن أبواب الهجرة إلى اسرائيل ستبقى مفتوحة ، وأنها ستبقى قادرة على الاستيعاب ، وهما شرطان يرجح تحققهما فى مناخ استمرار الحرب وغياب التسوية ، فإن الديموغرافيا اليهودية هنا ، وليست مجرد الاسرائيلية أو الفلسطينية ،

تعمل ضد اسرائيل ، فيهود العالم يتناقصون عددا وبمعدلات غير قليلة ولا بطيئة .

ورغم أن تاريخ الديموغرافيا لم يشهد ارتدادا عن اتجاه مطرد إلى التناقض ، فإن افتراض هذا الارتداد يبقى قائما - نظريا على الأقل ، وتحفزه عوامل الخوف ، أما الطمأنينة فأكفل أن تدع الطبيعة تجرى على أعنتها .

* أما المستوى الثالث : فهو تنامى انقسام التجمع اليهودى فى فلسطين بين سحنتين وثقافتين وحضارتين .

فالمشروع الصهيونى كما نعلم - فكرة وحركة ثم دولة - ولد فى أحضان اليهودية الغربية الاشكنازية ، هى التى فكرت وهى التى نظمت، وهى التى قاتلت ، وهى التى أقامت الدولة ، وهى التى جذبت وجلبت إليها المهاجرين .

لذلك قامت الدولة على قياس الاشكنازيين وتحت سيادتهم ، وكجهاز لتمييزهم وتحقيق الأحلام لهم والأوهام ، كانت هذه ثمار النصر الذى حققوه فاستحقوها .

لكنهم فى تيار هذا كله ، جذبوا وجلبوا إليها مهاجرين يهودا ليسوا منهم : يهودا شرقيين ، يهوديتهم مغايرة ، ثقافتهم مغايرة ، الحضارة التى نشأوا فيها وتوارثوا قيمتها مغايرة ، هى فى الحقيقة أحد أوعية الثقافة والحضارة العربية الاسلامية .

ودون خوض في التفاصيل : في عنفوان المشروع الصهيوني ، كان هذا التمايز غائب الفعالية ، وربما زاد من هذا الغياب مجهود متعمد لتربية عداء للعرب لدى هؤلاء اليهود الشرقيين .

ثم إنه إبان هذا العنفوان كانوا أقل عددا ، وأضعف تعليما ، وأهون تنظيما لكنهم الآن قد أصبحوا الأغلبية المتزايدة .

وهي أغلبية تعيش وضعا بالغ التعقيد ، فيه من التماهي الحضاري - الثقافي مع العدو ، الذي هو نحن ، وفيه من العداء الذي تربى عن عمد ، وفيه من الاحساس بالغربة عن الاشكنار ، وفيه من التمثل بهم والنزوع إلى التماثل معهم ، فيه من السخط على الاشكناز الذين يحكمون في الدولة ، وفيه من الاحساس «بعزة الدولة» وفيه من عجز الأغلبية العددية عن أن تترجم نفسها إلى أغلبية سياسية ، وفيه من الركون إلى الأقلية العددية التي هي الأغلبية السياسية المتفوقة .

وهم ، بهذه المواصفات وغيرها ، قوة يمكن أن تفعل فعلها في اتجاهين متضادين :

اتجاه أن يغلب تماهيها الثقافي والحضاري ، وإتجاه أن تغلبها التربية الاسرائيلية . فتقيس نفسها على اليهودي الاشكنازي .

والظن الأرجح ، أن سلاما – ولو كان جريحا أو كان هدنة مستقرة – أولى بتغليب عوامل التماهى الثقافي والحضارى معنا لدى اليهود الشرقيين .

ولولا ادراكنا لعوامل الضعف هذه فى اسرائيل ، ورهاننا المحدد – وربما المتفائل – عليها ما جاز أن نقبل الدخول في مجرى التسوية .

وبالطبع ، ليست هذه كل ما هنالك من عوامل ضعف فى اسرائيل ، إنما هذه هى الأهم ، لأنها الأقرب والأميل إلى الاضطراد ، ولأنها التى تتصل بصلب المشروع الصهيونى .

أى أننا – ولنقل هذا بصراحة جارحة – ندخل إلى مجرى التسوية وهذه العوامل فى حسابنا .

أى أننا نتهيأ للدخول إلى تسوية مع عدو مقضٍ عليه بهزيمة تاريخية ، نريد – بالتسوية – أن نعجل بحلولها ، وأن نجعلها أقل إيلاما وأكثر رحمة ، وليكن هذا هو منتهى اسهامنا الانسانى فى تحسين مصير اليهود .

– ٩ –

أى أننا الآن نقبل الدخول فى مجرى تسوية مطروحة تقوم على تأكيد تقسيم فلسطين ، إنما باعتبارها نقطة الانطلاق إلى إعادة توحيد فلسطين .

نقبل الدخول فى مجرى هذه التسوية باعتبارها حصيلة لتوازن موصوف ، ولذلك فإن مهمتها هى تحقيق قدر من الاستقرار للصراع عند مستوى معين ، كى تبدأ ممارسته انطلاقا من هذا الاستقرار .

فالاستقرار هو الحصيلة القصوى لهذا المستوى من السلام ، وأساسه هو شرعية معينة تحظى بقبول عام من الأطراف ومن الضامنين ، وهى شرعية تعبر عن التوازن الذى سبق وصفه وتعتمد عليه .

إنما لا يجوز الخلط بين هذه الشرعية وبين العدل ، فهذه الشرعية لا يجوز أن تعنى أكثر من اتفاق دولى على طبيعة الترتيبات القابلة للتحقيق ، وليس على الأهداف التى يسمح لكل طرف بالسعى إليها ، إنما الوسائل التى لا يجوز أن يستخدمها كل طرف لتحقيق أهدافه .

فالتسوية التاريخية ، وما نحن بصدده قد يكون كذلك ، تقوم على محاولة التوفيق بين ما يعتبر عدلا وبين ما هو ممكن ، الممكن يتوقف على التوازن . أما العدل فيتوقف على الامكانيات .

فخلاصة التاريخ كله فى الحروب والمفاوضات والتسويات والمصالحات ، أنه عندما تسكت المدافع لا تتهيأ التسوية ، وعندما

تعقد التسوية لا يحل السلام ، وعندما يبرم السلام لا يتحقق العدل :

طالما أن القضية لم تجد حلها بعد .

لأنه ، إذا اتخذ المسار الحالى للصراع العربى - الاسرائيلى مجراه ، وحقق مطامحه القصوى ، أى ، إذا انسحبت اسرائيل إلى الحدود التى كانت فيها فى ٤ يونيو / حزيران ١٩٦٧ ، وقامت فى الضفة الغربية وقطاع غزة دولة فلسطينية مستقلة ، وأبرم هذا كله فى إطار تعاقدى . معاهدات سلام بين اسرائيل والدول العربية بما فيها الدولة الفلسطينية المفترضة ، وأحيطت هذه المعاهدات بضمانات دولية ؛

فإن السلام لن يكون قد تحقق .

إنما ستكون قد تحققت هدنة مقبولة من الأطراف جميعا : من العرب ، ومن الدولة الصهيونية ، ومن القوى الدولية التى ضمنت الهدنة تحت اسم السلام .

والهدنة المقبولة لا تعنى بالضرورة ترقب استئناف بالحرب ، مثلما لا يعنى السلام مجرد تجنب الحرب .

فالهدنة المقبولة والسلام الذى يعنى مجرد منع الحرب ، صنوان ، أو هما سيًان بل هما فى الحقيقة الشئ ذاته .

أى أن الهدنة المقبولة هى منع الحرب باسم السلام .

وما نحن بصدده الآن هو السعى إلى هذا النوع من السلام.

لكنه ليس السلام .

فإذا كنا - العرب والصهاينة والعالم أو دوله المتنفذة - ننشد السلام، فالسلام صنو العدل لا يقوم بدونه .

وما يترتب على هذا أن نعرف ، أن يعرف الجميع ، أن الصراع سوف يتواصل بأسلحة أخرى ، وأن نعرف أيضا أن الهدنة مهما كانت مقبولة ، إذا كانت لا تؤدى بالضرورة إلى استئناف الحرب ، ولو بعد حين ، فإنها أيضا لا تلغى احتمال الحرب إذا لم يتحقق السلام بالأسلحة الأخرى .

إن من مصلحة السلام أن يستمر الصراع .

- ١٠ -

بما أننا نتكلم باسم أنفسنا ، لا نيابة عن العدو ، فإننا نقول أن الدولة الفلسطينية التى قد تتمخض عنها التسوية فى حدها الأقصى ، رغم أنها دون الحق الفلسطينى بكثير ، وتظلم العدل ، فإنها مطلب يستحق النضال ، بل أنها مطلب دونه نضال لا يستطيع أحد فى هذه اللحظة أن يقيس مداه ، ولا أن يتصور أبعاده ، ولا أن يتخيل ما قد يحفل به من مخاطر وأخطار .

لماذا ؟

لأن هذه الدولة ، هى الاقرار المتجسد لاعتراف العالم ، وأهم ما فيه اعتراف الحركة الصهيونية ، بأن للفلسطينيين حقا فى دولة وطنية ، شأنهم شأن سواهم من شعوب المنطقة .

فالفلسطينيون يعيشون فى منطقة هي منظومة من الدول الوطنية ، ومن لا دولة وطنية له ، هو ببساطة – فاقد الهوية .

حتى وإن قيل أن الدولة الوطنية – مفهوما وتكوينا – قد عفا عليها الزمن ، وحتى لو قيل مع أنصار اللحاق بالعصر أن العالم يتخطى الآن مفهوم الدولة الوطنية وتكوينها ، فلا الاتحاد السوفييتى دولة وطنية ، ولا الولايات المتحدة دولة وطنية ، وها هى ذى أوروبا تسعى للتوحد من فوق الحدود الوطنية جميعا : حدود السياسة والثقافة واللغة :

فالفلسطينيون أبناء لهذه المنطقة من العالم دون سواها وحقهم أن يتميزوا فيها تميز غيرهم من أهلها والقاطنين فيها .

حتى وإن قيل أن الفلسطينيين هم جزء من أمة أكبر هى الأمة العربية ، فهذه الأمة إن كانت يوما سوف تجتمع فى دولة واحدة ، فلسوف يحدث هذا عبر الدول الوطنية العربية القائمة ، ومن لا دولة وطنية له لا دور له ولا صوت فى تشكيل تلك الدولة العربية

الموحدة التى تداعب الأمل والمخيلة عن بعد مازال فى رحم ما هو آت من تاريخ .

- ١١ -

إننا نقبل هذه الدولة الفلسطينية ، بل ونناضل فى سبيل قيامها ، مع أننا نعرف أن هذه البقعة المقسومة من الأرض ، مزدحمة بسكانها ، فأين لها أن تستوعب النصف الآخر من الفلسطينيين ؟

ونعرف ما يترتب على ذلك :

مشكلات توطين حبلى بالتوترات الخطرة ، فى لبنان وفى سوريا وفى الأردن .

وعن التوطين تتوالد مخاوف الولاء المزدوج : ولاء الفلسطينى الذى لم يتسع له ما تبقى من وطنه ، فقبل مواطنة أخرى ليست من اختياره ، ولا من اختيار من فرضت عليهم التسوية توطينه .

ومشكلة «مصداقية ولاء» لابد أن تزداد حدتها داخل اسرائيل . فهؤلاء الفلسطينيون الذين يحملون جنسيتها أصبحت لهم دولة هى منهم على طول ذراع .

فوق هذا وأكثر منه تعقيدا ، مسألة «قانون العودة» المعمول به فى اسرائيل والذى يبيح لليهودى فى أى من أرجاء الأرض آن يهاجر إلى اسرائيل ويحصل على جنسيتها بمجرد أن تطأ قدماه الأرض التى تحتل .

ولا مـــراء فى أن من شـــأن هذا القـــانون إذا بقى أن يكون فى المستقبل حافزا على التوسع ، إلى بذرة خبيثة للحرب .

خصوصا إذا اقترن هذا القانون بمشكلة أخرى هى : أين يقيم الفلسطينى وأين يقيم اليهودى على أرض فلسطين .

فالصهيونية تعتبر أن من حق اليهـودى أن يقيـــم فى أى بقعة يختـــار من «أرض الميعاد» والفلسطينى بغير شـــك يعتبر فلسطين كلها له ، ولكل منهما اليهـــودى والفلسطينى حـــق فى ذاكـــرته التاريخية مهما طعن عليها الآخر . ثم إن الفلسطينيين من غير أبناء الضـــفة والقطـــاع ، بهم ولا شك شـــوق إلى العودة إلى بيوت الأهل أينما كانت

وبقدر ما يعتمد الفلسطينيون على الحق التاريخى وعلى الحق القانونى للاجئين فى العودة أن اختاروا ، يعتمد الصهاينة على ما يعتبرونه حقا تاريخيا والهيا ولو رأيناه أثريا ، لكن حجتهم القوية عند التفاوض أنه طالما تسمح الدولة الصهيونية لعرب بالإقامة فيها كمواطنين ، فليقابل هذا سماح من الدولة الفلسطينية المفترضة عندما يقبلون بها إذا قبلوا ، بأن يقيم فيها يهود ، لكن اسرائيل أيضا بعقلية المنتصر المزهو والمتعصب ، قد تطلب أن يبقوا على أرض الدولة الفلسطينية مواطنين للدولة الصهيونية يخضعون لقوانينها ويشاركون فى حياتها السياسية .

وهكذا تبدو الدولة الفلسطينية المستقلة فى الأراضى التى احتلتها اسرائيل فى حرب ١٩٦٧ وكأنها ستخلق من المشاكل أكثر مما سوف تحل .

ومع ذلك نقبـــل بها ، وليكن واضحـــا أننا لا نفعـــل ذلك من باب التضحية فى ســـبيل السلام ، وإنما لأننا نـــرى فيها منطلقا نحـــو هدفنا الذى هو الســـلام العـــادل القائم على وحـــــدة فلسطين ضمن بيـئـنـهـا العــــربية الغالبـــة ، بل ونرى فى هذه المشـــاكل التى ســـوف تترتب على قيامهـــا منطلقا عمليا نحو هذا الهـــدف .

- ١٢ -

هذه المشـــاكل الجـــديدة التى ســـوف تتـرتب على التـســـوية المطـــروحـة عندما تتـحـقق إن تحـقـقت ، هى الأســـاس العمـــلى لاستمرار النضال .

لأن هذه المشاكل هى التعبير عن الفجوة ما بين حصيلة تلك التسوية وبين العدل ، الذى هو الأساس الوحيد المتين للسلام .

هذه المشاكل ووجهة حلها تشير إلى طريق محدد ، هو أن لا حل لها إلا «إعادة توحيد فلسطين» .

وهو حل يشـمل بالعدل حقـوق العرب ومـأزق اليـهود من سكان اسرائيل . فـهذه دولة محكوم عليها بالتحلل والانهيار الداخلى ، وخير

لهؤلاء السكان اليهود أن يحدث ذلك عندما يحدث ، في ظل مناخ من السلام . عندئذ يكونون قد أصبحوا أبناء للمنطقة وبيئتها الثقافية والحضارية ، قادرين على العيش فيها ، جديرين بكل ما تضفيه عليهم هذه البنوة من حقوق والتزامات .

وما تعنيه «إعادة توحيد فلسطين» هي أن تعود إلى ما كانت عليه عند نهاية الحرب العالمية الأولى وبدء تصفية الدولة العثمانية واقتسامها ، عندما كانت فلسطين مفهوما جغرافيا سياسيا موحدا (وإن كان لم يكتسب صفة الدولة حتى ذلك الحين) أي توحيد الأردن والدولة الفلسطينية المفترضة واسرائيل في كيان سياسى واحد.

عندئذ لن تكون هناك مشاكل استيعاب أو توطين أو ولاء مزدوج ، أو ولاء يفتقر إلى المصداقية ، ولا نزاع على اقتسام الثروات.

إنما ما أسهل إطلاق هذا القول وما أصعب تحقيقه .

- ١٣ -

على هذه الأسس ، يمكن الدخول إلى مجرى التسوية المطروحة بضمير وطني مرتاح . شرطه اللازم هو وضوح الأفق .

عندئذ لا يصبح التفاوض مع اسرائيل والصلح معها والاعتراف

بها ، وتبادل العلاقات معها . لا يصبح هذا كله ، ولا أى منه ، تراجعا .

إنما يصبح شرطا ضروريا للانتقال إلى مرحلة أخرى من النضال .

طالما بقى هذا كله محاطا بفهم واضح لمعنى هذا النوع من السلم .

فبعد هذا السلم وفى ظله يبقى العدو عدوا ، والفرق بين ما قبل السلم وما بعده ، أن الأخير قرار بالتعايش إلى أن يتحقق السلم الحقيقى باقرار العدل .

وهنا يجب أن يفهم هذا السلم على أنه تحديد واضح متفق عليه لما بيد كل طرف من الحق المتنازع عليه .

ويكون النزاع قد تمت تسويته فى إطار ظروف محدودة أملت طبيعة هذه التسوية ، فإن منطق التسوية لا يفترض انتهاء الصراع ، إنما قد يفرض تغيير ادوات التعامل معه .

وفى هذا النوع من السلم بين العرب واسرائيل يجب أن يكون واضحا أن أساسه هو أن مستقبل فلسطين هو توحدها وبقاؤها جزءا لا يتجزأ من بيئتها العربية الغالبة .

وأن التسوية هى خطوة فى هذا الاتجاه .

وإذا كان وضوح الأفق شرطا لازما لقبول النتائج المتوقعة والمفهومة للتسوية المطروحة ، فإن اعلان الأفق على نحو واضح ومسئول ، شرط لازم لهذا الوضوح .

وقيمة الاعلان أنه يشكل مناخ المفاوضات . ففى عمليات التفاوض ، المناخ هو الذى يحدد مجراها ، لأنه إعلان من كل طرف عن فهمه لذاته وللطرف الآخر . والمناخ هو الذى يحدد سقف المطالب وقاع التنازلات .

الفصل الرابع

حيرة عربى وحيرة يهودى

لماذا آعيد نشر هذا الكتاب (*) فى هذا الوقت ؟

ربما لا يستوفى هذا السؤال جوابه دون سؤال أخر : لماذا ترجمت هذا الكتاب ونشرته منذ آكثر من عشرين سنة ؟ فلست مترجما محترفا، بل وقد أقول إننى لا آحب الترجمة ، ومع ذلك نقلت إلى العربية كتبا ثلاثة غير هذا الكتاب (١) وكان دافعى إلى ذلك واحدا فى المحاولات جميعا : يعجبنى كتاب أو يثير اهتمامى إلى حد أن أحس أنه يجب أن ينشر بالعربية ، فأحاول إقناع أحد غيري بترجمته ، فإن فشلت فى هذا المسعى ، قمت أنا بالعمل وأمرى إلى الله . وبالطبع لم يحدث هذا فى شأن الكتب التى أعجبتنى أو أثارت اهتمامى جميعا إلى حد الرغبة فى أن أراها منشورة بالعربية ، وإنما فى هذا العدد القليل منها .

(*) المقصود : كتاب دويتشر الذى سبقت إليه الاشارة .

ولقد أقول أيضا أن هذا الكتاب بالذات قد ألح على إلحاحا خاصا ، لأسباب عديدة قد لا يكون - بينها من صلة سوى المؤلف : ايزاك دويتشر .

بدأت معرفتي بأعمال دويتشر في النصف الأول من الستينيات ، وأذكر أن أول ما قرأته له كانت ثلاثيته عن ليون تروتسكي ، ذلك الرجل الفريد من بين قادة الثورة البلشفية الروسية ، الذي تمرد على الحصار الذي فرضه يوسف ستالين على حلم الثورة الاشتراكية العالمية وعلى الثورة ذاتها في روسيا «وطن الاشتراكية في بلد واحد» ، حسب الاختيار الذي رآه ستالين اختيارا واقعيا . وهو التمرد الذي جعل مصير تروتسكي النفي ثم الموت غيلة . في هذه الثلاثية يبدو ليون تروتسكي شخصية رومانسية وتراچيدية من طراز فريد . وقد كتب عنه دويتشر كتابة مؤرخ وفنان ، أوفت التاريخ حقه من التوثيق والتقييم ، بينما الرومانسية وضاءة وآسرة ، والتراچيديا عنيفة وأخاذة .

وكان أن شرعت في ترجمة هذه الثلاثية ، إلى أن «أنقذني» من هذه المهمة أن عرفت أنها تترجم في لبنان .

لكن دويتشر استحوذ على قدر مني ، فسعيت إلى كتبه الأخرى ، وهو هذا البولندي الذي تعلم الانجليزية وعمره يناهز الثلاثين ، فكتب بلغة منها لا يكاد يبلغها كثير ممن تربوا على تراثها ، لغة تجمع إلى الدقة العنفوان وقوة الإيحاء .

وهو هذا الماركسي الذي أصبح من قادة الحزب الشيوعي في بلده في مطلع العشرينيات من عمره ، ثم تمرد على الحزب وعلى الشيوعية «الدولية» عندما صدمته التجربة الستالينية ، فخرج عن الشيوعية كما هي معروفة واستبقى الماركسية أو استبقته حتى آخر يوم في حياته ، وبغض النظر عن قبول الفلسفة الماركسية أو رفضها أو التحفظ عليها ، فإن مفارقة دويتشر تستلفت النظر ، خروج على الشيوعية «الستالينية» وبقاء على الماركسية . ما يستلفت النظر وموقع المفارقة هو نجاته من «الاستدراج الفكرى» إن جاز التعبير . ففي الحركات السياسية المذهبية يبدأ الخلاف عادة من السياسة ، لينتهي تدريجيا إلى تآكل الاقتناع بالمذهب ، وفي معظم الأحيان العداء له والانضمام إلى صفوف خصومه، وهو مصير آل إليه الشيوعيون الذين خرجوا على الستالينية جميعا وبلا استثناء يستحق الذكر تقريبا . لكن دويتشر لم يطرق هذا الدرب ، بل وشغلته ظاهرة الاستدراج الفكري هذه ، فوضع كتابا عن أبرز من مضوا عليه ، وكان عنوانه يلخص رؤيته لهم «هراطقة ومارقون».

وفي العنوان رنين من الستالينية ، فلو أن ستالين تناول الموضوع نفسه ، ما خرج عنوانه عن هذه المعاني .

وهو هذا اليهودي الذى حيرته يهوديته ، تربى تربية تكاد تكون يهودية خالصة وفي بيئة يهودية تكاد تكون مغلقة ، وعندما بلغ الثامنة (!) كان قد قرأ أصول الديانة على حاخامات مدينته كراكوفيا ببولندا وأدى امتحان الحاخامية . وفي مراهقته وشبابه الأول كتب الشعر بلغة يهود شرق آوربا - البيدش ، وقرأه على تجمعات اليهود ، وكان فى خروجه على الستالينية شيء من هذه اليهودية ، فقد انـدلع الخلاف من رفض الشيوعيين الستالينيين تحذيراته من خطر النازية على اليهود .

ولا يملك قارىء أعمال دويتشر إلا أن يلحظ ذلك الجهد الذى يبذله كي يبدى تماسكا روحيا وانسجاما ، إنما لا يفوته أن فى عمق هذا الذي يبديه جهدا خارقا لتحقيقه ، أى لطمأنة نفسه إلى تماسكه الروحى، وقد وضح هذا فى عنوان هذا الكتاب الذى صدر بعد وفاته : «اليهودى اللايهودى» وليس هو الذى اختار عنوان الكتاب ، وإن كان عنوانا لأحد فصوله ، وهو لم يكتب ما ضمه الكتاب لكى يكون كذلك ، فهى مقالات ومحاضرات وأحاديث إذاعية وصياغة لأحاديث صحفية تفرقت ما بين الأعوام من ١٩٤٦ إلى ١٩٦٧ ، أى عام وفاته ، ثم جمعتها وأشرفت على تحريرها ونشرتها زوجته «تمارا» ، وربما كان العنوان الأوفق هو «اللايهودى اليهودى» ، فقد خرج دويتشر عن يهوديته

خروجا كاملا ، أو هكذا اعتقد ، وبقى يهوديا . والعنوان تعبير ساطع عن حيرته الروحية .

لذلك عندما سمعت بهذا الكتاب سعيت إليه ، وما إن انتهيت من قراءته ، حتى راودنى هذا الشعور بأنه يجب أن يتوافر بالعربية .

إنما كان هذا واحدا فقط من سببين رئيسيين لقرارى بأن أترجم هذا الكتاب ، إذ يبقى سؤال : ولماذا هذا الكتاب بالذات دون غيره من كتبه ؟

والجواب بإيجاز هو ان حيرة دويتشر كانت تقابلها عندي حيرة أخرى ، تختلف وتلتقى .

فى ذلك الوقت ، أخر الستينيات وأول السبعينيات ، كنت فى خضم الخروج من تجربة فى حياتي لها قدرها من الخصوصية وقدرها من العمومية ، أى من الاتصال بالحياة العامة .

ودون الخوض في كثير مما لا يتسع له هذا الفصل ، وليس هذا مجاله على أى حال ، كنت فى بداية العام ١٩٦٨ ، متأثرا بهزيمتنا الساحقة والمهينة في ١٩٦٧ ، قد وضعت مهنتي وقلمي (وحياتى الخاصة جانبا) وذهبت إلى الأردن والتحقت بصفوف حركة «فتح» الفلسطينية .

ولم يطل بى الوقت حتى اكتشف أو أدرك أن هذه الحركة التى

تحمل هدف تحرير فلسطين «من النهر إلى البحر» حسب التعبير الشائع آنذاك ، يموج داخلها بأفكار وتيارات وقوى تصطرع ، قد يجمعها هذا الهدف ، لكن أيا منها لا يكاد يتضح لديه ما الذي يعنيه بالضبط «تحرير فلسطين» ، ولا كيفية تحقيقه بأي معنى من معانيه ، وكان مصدر هذا الارتباك يدور في نهاية المطاف حول مصير السكان اليهود الذين يعيشون على أرض فلسطين في «دولة إسرائيل» وكانت التيارات تتراوح ما بين أكثرها سذاجة المرتكنة إلى العموميات : أن فلسطين بلادنا أو أنها جزء من الأرض العربية وأنها حق للفلسطينيين أو للعرب دون غيرهم وأن مصير اليهود الذين يعيشون على هذه الأرض «ليس مشكلتنا» . وبين من لا يخفى انشغاله بمشكلة هؤلاء اليهود ودولتهم ، فيقول عنهم قائل إن على الدول العربية الأخرى أن تفتح أبوابها وقلوبها لعودة اليهود الذين هاجروا منها ، وأن هذا سيوفر للعرب المبرر الأخلاقي لدعوة بقية دول العالم إلى «استعادة يهودهم» . ويقول منهم قائل إن اليهود «الآخرين» ، أي الذين جاءوا إلى فلسطين من غير البلاد العربية ، لن يقبلوا - على أي حال - أن يعيشوا تحت حكم عربي (عندما تتحرر فلسطين) ، إلى قائل إنه يجب تصنيف اليهود ليس فقط حسب «أصولهم القومية» ، وإنما حسب «أقدميتهم» في فلسطين ، فمن كانوا فيها مستقرين قبل «إقامة الدولة» ، لهم دون من عداهم حق البقاء ... إلى ما لا نهاية من التباديل والتوافيق .

ولم تكن الحيرة أقل فيما يخص الطريق إلى «تحرير فلسطين» كان الشعار الشائع هو أن الكفاح المسلح هو الطريق الوحيد ، مع التشديد على كلمة «الوحيد» إلى قائل أن «التحرير» لا يتحقق إلا بوحدة عربية تخنق «الدولة» ثم تجهز عليها ، إلى قائل أن «الكفاح المسلح» من أجل التحرير هو الذى سيحقق تلك الوحدة ، التى هى القادرة دون غيرها ولا أقل منها ، على تحقيق التحرير ، إلى قائل إن العرب قد تكرر خذلانهم للفلسطينيين ، فليس أمام الفلسطينيين إلا «أن يأخذوا قضيتهم بيدهم» ليحرروا أنفسهم وأرضهم ، إلى قائل بأن «التحرير» إنما يعنى «نزع الصهيونية» عن الدولة اليهودية ليسهل إدماجها فى اتحاد عربى لن يلبث أن يستوعب اليهود متفرقين فى بلاد العرب لا متجمعين فى دولتهم ، وأن الطريق إلي هذا هو إقناع اليهود من مواطني الدولة اليهودية أن دولتهم لا توفر لهم الأمن ولن يكتب لها البقاء ... أيضا إلى ما هنالك من تصورات السبل والوسائل .

وكان طبيعيا أن يشارك واحد مثلى فى هذا الجدل ، خصوصا وأننى «هناك» .

وقد كان لبعض أحداث هذه التجربة ما له صلة بقرارى ترجمة هذا الكتاب (وهى صلة أراها الآن فيما كان مختزنا فى وعيى الباطن أنذاك).

من هذه الأحداث أن المناضل الفقيد (وعلى عهدتي : الفريد) خليل الوزير (أبو جهاد) عضو قيادة «فتح» وافق على اقتراح تقدمت به إليه ، بأن تنشيء «فتح» «مدرسة كادر» . وكانت موافقته محاطة بغير قليل من التحفظ الضمني ، فقد اقترح أن نبدأ بدورة تجريبية ، أكون وحدى المسئول عنها ، ويختار هو «الدارسين» فيها . واختار مقرا لها بيتا ريفيا متواضعا فى سقبا ، واحدة من قرى غوطة دمشق ، وعين لنا مسئولا عن إعاشتنا واحدا من قدامى المجاهدين الفلسطينيين الذين قاتلوا فى حرب ١٩٤٨ ، عرفناه باسم «أبو أحمد» ، وكانت عدتنا - غير الإعاشة - مكتبة متواضعة وبستان فسيح وقرية يحترم سكانها «المجاهدين» . وحدد أبو جهاد للتجربة شهرا واحدا . فإذا اقتنع بنجاحها ، دخلنا بها إلى مرحلة تجريبية أوسع . ولقد استنتجت فيما بعد ، وعلى ضوء خافت من الملابسات ، أن تحفظه كان يرجع إلى عدم حماس أعضاء آخرين فى قيادة تلك الحركة بفكرة «مدرسة الكادر» ، كما فهمت أن بعض مراجع عدم الحماس هذا ، ضمن أشياء أخرى هو نوع من «القبلية» أو «العصبية» الذى يوجد على نحو طبيعى فى مثل هذه الحركات التى تبدأ سرية وفى ظروف صعبة تؤدى بها إلى تحالفات متضاربة وإلى عداوات لا تقل تضاربا . وكانت هذه عصبية «القدامى» حيال «المستجدين» ، فالأولون هم الموثوق بهم والمجربون . أما الآخرون

فـ «الله أعلم بهم» . وكنت أنا من «المستـجدين» . إنما على مسـتوى أوسع كانت تلك الحركة السرية قد فاجأتها الظروف بنجاح لم يكن في حـسـابهـا ، دفـع بهـا إلى العلن ، ودفـع إليـهـا بسـيل مـتـدفق من «المستجدين» .

فبعد معركة «الكرامة» في مارس ١٩٦٨ (٢) ، تدفق هذا السيل من المتطوعين ، ولم تكن قيادة «فتح» تتوقعه ولا كانت قادرة على استيعابه . كما لم تكن تستطيع رفضه ولا كبحه . وفي هذا السياق فإن إنشاء «مدرسة كادر» يعني عمليا ، ادخال عناصر جديدة ، سيكون أغلبها بالضرورة من «المستجدين» إلى مستويات قيادية ، وكان طبيعيا أن يثير هذا مقاومة «القدامى» .

وبالطبع ، كان هناك أيضا ذلك الحرص على «نقاء» فكر الحركة والتوجس من المدخلات الجديدة .

وعندما أقنعت المرحلة التجريبية الأولى «أبو جهاد» بالفكرة ؛ إنما – فيما استنتج – لم تقنع سواه من أعضاء القيادة ، انتقلت المدرسة إلى مرحلتها التجريبية الثانية . فأصبح مقرها موقعا إلى الجنوب الغربي لدمشق على الطريق إلى بيروت في مقر مصنع مهجور للحلوى يضم مبنيين وبقايا بستان قاحل وفناء فسيحا وعزله عن بيئة الحياة العادية . وتقرر أن تستغرق هذه التجربة أشهرا ستة . وأن تصبح مسئوليتها

مشتركة بيني وبين المناضل الراحل سعيد حمامى (٣) . ثم انضم إلينا فيما بعد الزميل القديم فاروق القاضى ، الذى عرف فيما بعد فى الأوساط الفلسطينية باسم أحمد الأزهرى . كما أوكل إلينا - حمامى وأنا - مهمة اختيار «الدارسين» من أوساط مراكز إعادة التدريب العسكرى التابعة للحركة ، بالإضافة إلى أعضاء الدورة التجريبية الأولى .

لكن هذه الدورة لم تكمل عمرها على أى حال ، فقد فضتها قيادة «فتح» بعد حوالى ثلاثة أشهر ، فى انقلاب خاطف ، فى غيبة «أبو جهاد» الذى كان يرعاها ويحميها من المعترضين .

لكن هذه قصة أخرى ، وأيضا ليس هنا مجالها .

إنما أروى هذا الجزء من التجربة لعلاقته فى وعيى الباطن بقرارى ترجمة هذا الكتاب .

فقد كان أسلوب العمل فى المدرسة مزيجا من المحاضرات المثيرة للجدل ، فى فروع عديدة من المعرفة ، والنقاش الحر المفتوح بلا كوابح ، حول الأفكار والأحداث ، وتشجيع القراءة على نحو يستهدف تأصيل المعارف وتنويعها وتوسيعها ، ومناقشة ما يقرأ .

وفى العمر القصير لتلك الدورة ، بدأ يتوضح عندي مدى الحيرة السائدة ، ليس فى صفوف المقاومة الفلسطينية فحسب ، إنما التى لابد

أن تمسك بخناق كل من يتعرض للقضية الفلسطينية ، بدءا من محاولة تحديد ما هى هذه القضية ، وليس انتهاء بمن يحاول أن يبحث لها عن حل .

ومن أحداث هذه التجربة أيضا ، أنه فى مطلع ١٩٦٩ ، انتدبتنى «فتح» ضمن وفد لها لحضور مؤتمر الحزب الاشتراكى الموحد الفرنسى، الذى كان يقوده آنذاك ميشيل روكار . وكانت المرة الأولى التى يدعو فيها حزب أوروبى وفدا فلسطينيا لشهود مؤتمره . ورأيت أن أنتهز هذه الفرصة لأختبر بعض حيرتي (وأظنها عندئذ والآن حيرة عامة) وأجرى اتصالا مع بعض عناصر اليسار الإسرائيلى المقيمين فى فرنسا ، وكنت قد سمعت بمنظمة إسرائيلية اسمها «ماتسبين» أى «البوصلة» . واطلعت على وثائقها الأساسية ، كما عرفت أنها تجد قدرا غير قليل من الصدى والاهتمام فى أوساط الشباب فى إسرائيل . وعن طريق زميل فرنسى رتبت لقاء فى باريس مع بعض من يمثلونها .

إنما ما كنت أحسب أنه سيكشف عنى بعض حيرتى ، لم يفعل سوى أن يزيدها عمقا وارتباكا . فهؤلاء الشباب (ماركسيون - تروتسكيون) المعادون للصهيونية ، كانوا يرون حل المشكلة الفلسطينية ومعها المشكلة اليهودية فى الثورة التى ستعم العالم كله ذات حين ، ربما وجدت فى هذا تعليقا للمستقبل على المجهول ، إنما يبدو أيضا أننى تعلقت بأمل أو وهم أن يستطيع أمثال هؤلاء أن يكسبوا

رأيا عاما فى إسرائيل . وقادنى هذا التعلق إلى أمر آخر لن يلبث أن يأتى ذكره .

أمـا الحـدث الثـالث ، فى تجـربتى الفلسطينيـة ، أو قل إنهـا «الفتـحوية»، والذى أحس أن له صلة بالحيـرة التى جعلتنى أترجم هذا الكتـاب ، فـهـو أنه فى أواخـر عـام ١٩٦٨ ، وقـبل لقـائى مع ممثلى «ماتسبين» ، كنت ضمن مجموعة عمل انعقدت فى القاهرة ، لصياغة خطاب ألقاه الدكتـور «نبيل شـعث» (باسم حـركة فـتح) أمـام مؤتمر «نصرة الشعوب العربيـة» الذى شهـدته القاهرة فى نهـاية ذلك العـام ، وتداولت المجموعة أفكارا متعددة ، وتذاكرت أحداثا من التاريخ القريب للفكر السيـاسى الفلسطينى ، وفى سيـاق المناقشـة بزغ أمـامنا مـا اعتبرناه ضوءا ساطعا ؛ كانت لجنة تحقيق بريطانية / أمريكيـة قد زارت فلسطين فى عام ١٩٤٦، واستمعت إلى شهادات عديدة ، كانت من بينها شهادة للقائد النقابى الفلسطينى سامى طه ، الذى رأى الحل فى إقامة دولة واحدة فى فلسطين تتساوى فيها المصالح والحقوق بين المواطنين ، المسلمين والمسيحيين واليهود على السواء ، وقد أخذت اللجنة بهذا الرأى فى توصيتها الأولى . وعلى هذا الضوء كتبنا خطابا يدعو إلى أن تكون «فلسطين دولة ديمقراطية علمانية يعيش فيها العرب واليهود على قدم المساواة »، وفى اليوم التالى عرضنا مسودة الخطاب على صـلاح خلف (أبو إياد) عضـو قيادة فتح المسئول عن الإعداد

للمشاركة الفلسطينية فى المؤتمر ، فأقره . وعرف هذا فيما بعد بأنه «خط الدولة الديمقراطية العلمانية» .

وفى البداية ، أحدث الخطاب ما يمكن وصفه بأنه «صدمة ايجابية» فها هم الفلسطينيون لا يريدون «إلقاء اليهود فى البحر» ، بل يريدون التعايش معهم وترددت لذلك أصداء إيجابية أيضا على نطاق العالم ، خصوصا فى أوساط اليهود ، وبدت معالم انقسام حوله فى «الوسط السياسى» الإسرائيلى .

لكن هذا كله لم يلبث أن ذهب أدراج الرياح . فدون خوض فى التفاصيل ، بقيت البرامج السياسية الفلسطينية والممارسات تعتبر «الكفاح المسلح الطريق الوحيد لتحرير فلسطين» واستخدمت الحركة الصهيونية ومؤسستها الإسرائيلية الحاكمة هذا «الكلام» لإقناع الآخرين بأن «الدولة الديمقراطية العلمانية» مجرد دعاية ونفاق .

أما الحدث الأخير الذى سأذكره فى هذا الشأن ، فهو أننى فى وقت ما من العام ١٩٦٩ ، كنت ضمن مجموعة عسكرية من «فتح» قامت بضرب هدف مهم فى إسرائيل بصواريخ «كاتيوشا» . وكانت الضربة فى غبشة الفجر ، وكان بوسعنا أن نرى بالعين المجردة ما لحق بالهدف من دمار وما حققناه من نجاح . إنما لم تحل السابعة صباحا إلا وكانت الطائرات الاسرائيلية تقصف المدينة الأردنية التى أطلقت

الصواريخ من تخومها ، وعلى الفور عرفنا معرفة مباشرة فداحة الخسائر التى لحقت بسكان المدينة من المدنيين . ومع نشرة الأخبار الأولى من الإذاعة الإسرائيلية ، سمعنا بخسائر اسرائيل ، وقالت تلك الإذاعة فيما قالت أن من بين المصابين طفلة رضيعا تمزقت أحشاؤها ونقلتها طائرة مروحية إلى مستشفى فى وسط اسرائيل . وكان ضمن المجموعة التى نفذت العملية : سعيد حمامى . وما إن طرق سمعه ذكر الطفلة الرضيع ، حتى قال فى هدوء كظيم كان يتميز به عند الغضب : لسنا مناضلين ، نحن مجرمون وقتلة . تخيل لو أن غارة إسرائيلية أصابت «رشا» أو «مصعب» (طفليه) وقال إن هذه هى نهاية صلته بالعمل العسكرى ، ليس فقط ممارسة ، وإنما مجرد التأييد .

وربما كنت فى ذلك الحين أكثر «برودا» أو أقل حساسية من سعيد حمامى . ففهمت غضبه لكنى لم أفهم قراره . فهؤلاء الإسرائيليون يقتلون منا ، كبارا وأطفالا ، كل يوم ، ثم : أليست هذه هى الحرب ؟

إنما فيما بعد ، أخذت أسأل نفسى إن كانت الحرب هى السبيل ؟ وحتى هذه اللحظة لم أصل بينى وبين نفسى إلى إجابة على هذا السؤال.

إنما بقى السؤال يمسك بخناقى ويزيد حيرتى عمقا .

أما الأمر الآخر الذى قادنى إليه لقائى مع جماعة «ماتسبين» ، فهو

أنني بعد أن تركت «فتح» وعدت إلى مصر ، شرعت فى وضع كتاب عن «الاتجاهات غير الصهيونية فى إسرائيل» . وانتهيت منه ودفعت به إلى واحدة من دور النشر ، فقبلت نشره .

إنما بعد ذلك أقلقني الكتاب ، واستبد بى هذا القلق أثناء زيارة قمت بها إلى لندن ، فأبرقت من هناك إلى الناشر أطلب ألا ينشر الكتاب . ولم ينشر .

لماذا فعلت هذا ؟

كان ما اقلقني فى الكتاب هو ما أسميه الآن «طابعه المعملي» . ففي ذلك الحين كان في اسرائيل العديد من الحركات السياسية والدينية الصغيرة المعادية للصهيونية ، وبعضها يرفض من الأساس وجود دولة يهودية أو دولة لليهود . وتلك الحركات هى التي تناولتها فى ذلك الكتاب. وبعد أن انتهيت منه لم أحصد إلا القلق . إذ أدركت أنه عندما يركز الكاتب اهتمامه ونظره على ظاهرة محددة ، فإنها ستبدو للقارىء أكبر من حجمها بكثير . ومهما تحفظ الكاتب إلى نسبية الظواهر والأشياء ، فإن قيام هذا الانطباع لدى القارىء وارد وباحتمالات كبيرة . وعندئذ ألا أكون مذنبا بخلق «وهم ما» لدى القراء العرب ، وهو وهم له أخطاره البالغة ؟ ألا أكون مذنبا بتعليق المستقبل على المجهول كما تفعل جماعة «ماتسبين» وهو ما أخذته عليها ؟

وكان وضع الكتاب ثم النكوص عن نشره عنوانا آخر من عناوين «حيرتي العربية» التى تقابل «الحيرة اليهودية» التى أحسستها فيما يكتبه إيزاك دويتشر .

لكننى لم أكن قد قرأت بعد شيئا مما كتبه دويتشر عن اسرائيل أو الصهيونية أو فلسطين أو العرب .

إنما فى ذلك الوقت تقريبا ، قــــرأت له هذا الكتاب ، فقــــررت أن أترجمه لعله يســـــاعدنى على أن أشرك غيرى فيما أعانى من حيرة .

وفى ذلك الحين ، كتبت لهذه الترجمة مقدمة (قصيرة تميزت بالتحفظ) . أو قل إنه الحذر ، فالكتاب «يساعد على الفهم» .

لهذا – إذن – ترجمت هذا الكتاب فى سنة ١٩٧٠ .

فلماذا أعيد نشره الآن ؟

أبدأ بأن أقول إنها مصادفة ، لكن هذا يحتاج إلى تفصيل .

كنت مع مضى الزمن واضطراب الحياة ، قد فقدت الكتاب ، طبعته الأصلية بالإنجليزية وترجمتى له إلى العربية . لكن أمرا ما – لا أعرفه – جعلنى أتذكره دون أن أتذكر شيئا محددا من محتوياته ، أو أنه كان مختلطا بما قرأت فى غيره وممتزجا .

إذ يبدو أننا عندما نستوعب ما نتلقى من أفكار ، تدخل فى سياق تفكيرنا العادى ، لا مقبولة كلها ولا مرفوضة كلها ، ولا تعود تتمايز

فيما بينها ، ولا فيما ساعدتنا على تكوينه وتشكيله من آراء . حتى يصعب أن نكون قادرين على أن ننسبها إلى مصدرها .

ولذلك ، عندما تذكرت الكتاب ألح عليّ سؤال ذاتي : يا ترى ما هى أفكارى المتعلقة بما تناول من موضوعات ترجع إلى هذا الكتاب ؛ إثباتا أو نفيا ؟ ما الذى ساعدنى هذا الكتاب على قبوله من أفكار وما الذى ساعدنى على رفضه منها ؟ على أى نحو أسهم فى صياغة تفكيرى ؟ فأخذت أبحث عن نسخة من الكتاب ، إلى أن وجدت نسخة من الترجمة وقرأتها . وعند تلك القراءة المتأخرة ، كانت قد تغيرت أمور كثيرة .

كانت البيئة التى يجرى فيها هذا الصراع العربى / الإسرائيلى ويدور ، غير البيئة التى كانت سائدة وقت أن ترجمت الكتاب وكتبت له تلك المقدمة المتحفظة والحذرة .

وليس هنا مجال التعرض لما تغير فى هذه البيئة ، فمجرد سرد الأحداث والتطورات التى أدت إلى هذا التغيير ، فضلا عن تحليلها وتصور آثارها ، يحتاج إلى كتب عديدة وكثرة من المؤلفين .

لكن ما قد يتسع له المجال هنا هو القول إن الموقف العربى قد أحاط به تغير كبير ، من أهم معالمه انحسار موجة القومية العربية أو انكسارها وخفوت الاقتناع بها خصوصا فى صفوف ما تعرف بأنها «النخب السياسية والفكرية» وأن هذا شمل النظرة إلى الصراع ومكانه فى تسلسل الأولويات العربية . وأن الانقسام العربى قد دخلت إليه

خطوط فاصلة مستجدة ، فى مقدمتها حلول الانقسام على قاعدة من الثروة والفقر محل الانقسام على قاعدة من الراديكالية والاعتدال . وأن الانقسام العربى بصيغته المستجدة قد ازداد عمقا بينما أصبحت أساليب معالجته أكثر خفوتا أو هدوءا ، ربما على أساس من القبول المتبادل أو الاعتماد المتبادل . وكان السلام المصرى / الإسرائيلى الذى وقع منفردا فى تلك الفترة ، وأيا كان الرأى فيه ، قد أصبح من المكونات التى لا يمكن تجاهلها فى بيئة الصراع وأخذ يدرج لكى يصبح (أو هو قد أصبح) توجها عربيا عاما . وكانت حرب ١٩٧٣ التى أنتجت هذا السلام ، ثم حرب ١٩٨٢ الإسرائيلية / الفلسطينية / اللبنانية ، قد أنتجتا معا معالم اقتناع عربى بأن الحرب ليست هى الوسيلة المثلى ، أو على الأقل أنها ليست الوسيلة الوحيدة أو الفعالة لمعالجة هذا الصراع . وأصبح الجدل يدور حول شروط السلام مع إسرائيل وليس حول السلام معها من حيث المبدأ . وخرجت من التصور العربى لمآل هذا الصراع أفكار من قبيل «عودة اليهود من حيث أتوا» ، ومن قبيل أن يعيش اليهود كأقلية دينية قومية ضمن دولة عربية فلسطينية أو أكبر من فلسطينية . وفتحت الحرب الأهلية اللبنانية العيون العربية وبقسوة شديدة ، على أوضاع الأقليات الدينية والعرقية أو القومية التى تعيش وسط الأغلبية أو الأغلبيات العربية على مستوى ، والمسلمة على مستوى آخر ، والمسلمة السنية على مستوى ثالث ، من الأكراد إلى البربر إلى

الزنوج ، ومن الموارنة إلى الشيعة ، وبدأ يدخل إلى الوعى العربى تفكير فى تلك الأقليات يتحول من التجاهل والاستثناء والتسامح إلى الإقرار بالحقوق .

وبالطبع ، ليس هذا حصرا لمعالم التغير فى البيئة العربية ، وإنما كان هذا التغير يتميز بصفات أساسية ثلاث :

١ - أنه شمل الفلسطينيين فيمن شمل من سواهم من العرب . وأقصد بالفلسطينيين هنا المؤسسة الكبرى المعبرة عنهم - منظمة التحرير الفلسطينية - وبفصائلها جميعا الراديكالية منها والمعتدلة ، وما كان «برنامج النقاط العشر» الذى أقره المجلس الوطني للمنظمة في عام ١٩٧٤ ، و «جبهة الرفض» التى اصطفت ضده إلا من مخاض هذا التغير ، فقد أقر هذا البرنامج إقامة «سلطة وطنية فلسطينية» على أى جزء من الأرض الفلسطينية يتحقق «تحريره» . وكان رفض «جبهة الرفض» يدور حول ما يعنيه هذا بالنسبة لمستقبل الصراع ، أكثر مما هو رفض لفكرة «قيام سلطة وطنية فلسطينية» تتوازى مع اسرائيل وتتجاور ، وإن كان ظاهر لغة تلك الجبهة يتباين مع ذلك ، فالمقياس الأولى بالاعتبار هو أن «جبهة الرفض» تلك بقيت في صفوف المنظمة وكأنها حزب معارضة برلمانية .

٢ - أن هذه التطورات ، شأن التطورات التاريخية عموما فى كل زمان وكل مكان وحيال كل قضية ، لم تكن متجانسة ، لم تكن صفتها

الغالبة التحرك التاريخي إلى الأمام ولا الارتداد التاريخي إلى الخلف ، كانت تفاعلات حياة يدور فيها ما يدور في الحياة من زيادة ونقصان ، من تقدم وتأخر ، من اندفاع وتعثر ، من ائتلاف وتضارب ، إنما هذه التغيرات ولدت احساسا عربيا يكاد يكون شاملا بالتراجع والهزيمة ، وشاعت في التعبيرات العربية كلمات من قبيل «الزمن الرديء» ، كما شاع بين العرب تسليم بالهامشية والعجز عن الفعل ، وأصبح جدلهم يدور حول تأثيرات التطورات والأحداث وأفعال غيرهم عليهم . وغاب عن هذا الجدل أو كاد ، الحديث عن دور لهم أو فعل ، شاع التسليم بأننا «موضوع» بلا «ذات» . «الذات» هي الآخر ونحن «الموضوع» ، وإن دار الحديث عن دور للعرب أو فعل ، تدهور إما إلى المثل وإما إلى التصورات فضلا عن الادعاءات . وأصبح الحنين إلى الماضي قريبا كان أو بعيدا حالة نفسية شائعة ، أصبحت «السلفية» عامة ، وتكاد تكون شاملة ، لا تقف عند حد ما يرتكز على الدين ، والبديل الشائع لهذه السلفية ، إن كان لها بديل شائع ، أصبح هو السعي إلى الاستعارة والمحاكاة والنقل عن الغير ، والذي هو «الآخر» الذي هو الغرب ، والذي كان هو «العدو» حتى وقت قريب ، وفي أعمق أعماق الوعي لا يزال ، إنما أصبح يبدو وكأنه «عدو محبوب » .

٣ - أن أيا من هذه التغيرات لم يكن حاسما ولا نهائيا ، ولم يزل كذلك ، لذلك أراها إلى التقلصات والمخاض أقرب ، ولعل في هاتين

الصفتين الأخيرتين شيئا من معالم الفترات الانتقالية فى التاريخ ، أو أن هذا ما بقى لدى من أمل أتعلق به . لكن المقلق هو شيوع التخلى عن الإرادة كظاهرة اجتماعية وجماعية ، الذى يعبر عنه شيوع النظر إلى الذات باعتبارها موضوعا .

وإذا كانت البيئة العربية الحاضنة لهذا الصراع قد تغيرت على هذا النحو (وأكثر وأعقد) ، فإن اسرائيل والحركة الصهيونية ويهود العالم ، قد أصابهم بدورهم وبالضرورة قدر غير قليل من التغير ، لن أتعرض (هنا) إلا لأقل القليل منه ، ففيما يخص إسرائيل ، كانت قد دخلت فى تجربة احتلال أرض لا يسلم لها بها مجتمع الدول شأن الأراضى التى أقيمت عليها فى ١٩٤٨ . واشتبكت اشتباك حياة أو موت مع عرب غير الذين حاولت وتحاول منذ ١٩٤٨ ، استيعابهم وعزلهم فى الوقت ذاته ، وهى محاولة عزل مزدوجة ، عن المجتمع اليهودى فى إسرائيل من ناحية وعن بيئتهم العربية من الناحية الأخرى . واتصور أن ترددها فى ضم ما احتلت من أرض ، لا يرجع إلى محاذير الشرعية الدولية ، بقدر ما يرجع إلى محاذير التفكير الصهيونى أو العقيدة الصهيونية ، وهو ما يعبر عنه الخوف على «يهودية» الدولة ، وبقدر ما يرجع إلى حيرة تشبه حيرتنا ونحن ننادى بتحرير فلسطين أمام وضع السكان اليهود فى إسرائيل ، وما سياسة التهجير الجماعى المعروفة باسم «الترانسفير» والتى تراود اسرائيل ، إلا المقابل الإسرائيلى لفكرة «عودة اليهود من

حيث أتوا» التى نادينا بها ذات حين . كما أنه فى هذه التجربة يمثل أمام إسرائيل ما أصبح يعرف باسم «القنبلة الديمجرافية» ، أى تفاوت التزايد السكانى الطبيعي بين اليهود والعرب في إسرائيل وفى الأرض التي تحتل . كما واجهت اسرائيل في سياق هذه التجربة اهتزاز الصورة التي تحرص على أن تقدم عن نفسها إلى العالم : صورة تلك الدولة «الإنسانية» و «الديمقراطية» ، كما أن المتغيرات العربية التى ترى فيها كثرة العرب انكسارا وتراجعا ، تبدو فى رؤية اسرائيل حبلى ببذور النهوض والتقدم ، بدءا من القدرة العسكرية العربية التى عبرت عن احتمالاتها فى حرب ١٩٧٣ ، إلى قدرة المقاومة الشعبية ، أى غير الرسمية سواء فى برود «السلام المصرى / الاسرائيلى» ، أو فى المقاومة اللبنانية أو فى الانتفاضة الفلسطينية ، إلى تقدم انتشار التعليم والتخصص العلمى عند العرب بالمقاييس النسبية ، إلى ما تراه إسرائيل نضجا وواقعية في التفكير السياسى العربى ، على نحو تراه يضعها فى خطر مواجهة السلام بعد أن تعودت على رؤية نفسها فى مواجهة خطر الحرب ، وعلى نحو ما تنبأ به كاتب يهودى فرنسى «مارك هيليل» فى ١٩٦٨ .

وبالطبع ، ليس هذا كل ما هنالك من تغيرات على تلك الجبهة ، فالحركة الصهيونية آخذة بتخفيض مثلها النهائية ، فتحل «الدولة اليهودية» محل «دولة اليهود» . وتعبر اليهودية العالمية من أن لآخر عن

تململها من سياسات اسرائيل أو من مطالبها ، ويتوضح مدى الوهم فيما اختارت إسرائيل وقيادتها الصهيونية أن تتصوره من «وحدة روحية» و «ارتباط مصير يهودى» بينها وبين يهود العالم ... وغير هذا كثير .

لكن لب هذا التغيير أن ثقة اسرائيل بنفسها ، لم تعد كما كانت تبدو . وأن حيرتها أمام مصيرها ، أصبحت توازى الحيرة العربية أمام المسألة الفلسطينية ، إن لم تكن أكبر .

ولقد جرت هذه التغيرات كلها ، وغيرها كثير ، ومع ذلك بقى معنا صراع عربى / إسرائيلى يطلب حلا .

هذا فى الشأن العام .

أما فى الشأن الخاص ، أى شأنى ، ففى تلك الفترة انتقلت بحياتى مرة أخرى إلى خارج مصر . وفى هذا الانتقال امتزجت ضغوط عامة بأسباب شخصية ، لكن ما استطيع قوله هنا إننى قضيت أحد عشر عاما من نهاية ١٩٧٥ إلى نهاية ١٩٨٦ فى غربة إنما لم اغترب ، أو حاولت جهدى ألا أغترب . توزعت تلك الفترة ما بين بريطانيا ولبنان والولايات المتحدة الأمريكية على الترتيب وعلى تفاوت فى عدد السنوات. وتخللها سفر غير قليل . وفيها توفر لى احتكاك متفاوت الاقتراب مع ثقافات وحضارات وتجارب وأفكار ، تأملتها وحاولت فهمها ما استطعت، وبإيجاز ، كان لما جرى علىّ فيها تأثيره الكبير على تفكيرى.

لكن مجمل هذا التأثير لا يخرج عن محاولة أن أستوعب ما يحل بالعالم وبما يخصنا منه من تغيير ، ما استطعت . وأن أتوصل فيه إلى ما اعتقد صوابه من استنتاجات . ومجمله لا يخرج عن هذه النتيجة ذاتها وهى أنه أيا كانت التغيرات والتطورات ، فهذا الصراع العربى / الاسرائيلى لم يحل بعد ، وأن تصور حله لابد وأن يكون على خلاف ما درجنا عليه وتربينا ، أى الرفض المطلق لاسرائيل بسكانها ، وأن وسائل حله لابد وأن تتغير .

وعاد إلى ذاكرتى ذلك المشروع السياسى القديم الذى أسهمت فى صياغته ، مشروع «الدولة الفلسطينية الديمقراطية التى يعيش فيها العرب واليهود على قدم المساواة» . وبدأت أفكر فى أن هذا المشروع المفعم بالمثالية والعدل ، قد ضاع أدراج الرياح أو دفنته الرمال . ورحت أتأمل ما الذى أدى به إلى هذا المصير . وتوصلت إلى أن قدر المسئولية الذى يتحمله الصف الذى أنا فيه ، يمكن تلخيصه فى أن من يقول بهذه الفكرة ، لا يقول فى الوقت ذاته إن «الكفاح المسلح هو الطريق الوحيد لتحرير فلسطين» . فالحرب ليست الوسيلة الوحيدة لحل المشاكل مع من نتصورهم شركاء فى الوطن ، لكن هذا هو ما حدث . ولا تغنى أسباب حدوثه شيئا فى تدارك الخسارة إلا بالتعلم من تلك الأسباب . لكن ، وفى الوقت نفسه ، لم يغب عن تفكيرى أن معالجة هذا الصراع تحتاج إلى مزيج من العنف والسياسة مع دقة النسب فى هذا المزيج ، وتغيرها

وتفاوتها حسب ظروف الصراع ومجرياته وتطوراته ، وأصبح يتردد على تفكيرى مثال المؤتمر الوطني الإفريقى بقيادة نلسون مانديلا ، فهو من ناحية قد وضع «الكفاح المسلح» فى مكان بين الوسائل ليس على رأسها فضلا عن أن يكون وسيلة وحيدة ، وهو ، من ناحية أخرى ، رفض التخلى عن العنف ، وما زال يرفض حل الجناح العسكرى للمؤتمر رغم وصول المفاوضات لتصفية الحكم العنصرى إلى مراحل متقدمة (*) .

كان هذا هو قدر المسئولية الذى يتحمله الصف الذى أنا فيه ، وهو لا يعفي الآخرين من مسئوليتهم ، على أى نحو وبأى قدر .

وفي ١٩٨٨ ، حاولت صياغة بعض أفكارى في مقال لمجلة «الهلال» حول «مستقبل إسرائيل» ، واختصار هذا المقال أننى لا أرى لها - كما نعرفها وكما هى قائمة - أى مستقبل (٤) .

وفي ١٩٨٩ ، وكنت فى زيارة طويلة لباريس ، وجدت نفسى استجمع حصيلة ، مناقشات مطولة ، بعضها مع صديقى القديم لطف الله سليمان أمد الله فى عمره (**) ، ومعظمها مع صديقة لبنانية

(*) رفض «المؤتمر الوطني الافريقى اعلان «التخلى عن العنف» إلى أن تسلم السلطة فى البلاد عن طريق الانتخاب وفقا للدستور المؤقت الذين توصلت إليه المفاوضات .

(**) توفى لطف الله سليمان فى ١٩٩٥.

يستهويني ويستفزني دائما الجدل معها ، فهي تداوم على اعتـــراض أفكاري على نحو يضيف إليها وينضجهـــا ، هي «ليلى غانم» . ورغم تمكنهـــا من ناصية ثقافة واسعة ، وتمتعها بذهن متوقد تمتزج فيه طاقة فنية لم تجد تعبيرها بعد ، فهي - على كرمها - بخيلة أو كسول ، نادرا ما تكتب .

المهم . استجمعت حصيلة هذه المناقشات في مقال طويل ، هو بالبيـــان أشبه ، واخترت له عنوانـــا «من التسوية إلى تحرير فلسطين» .(٥) ولا أحتاج إلى القول إن لطف الله سليمان وليلى غانم اعترضا على الكثير منه . وبالطبع لا يحمل أيهما أي مسئولية عنه . ودفعت بالمقال إلى صديقي وزميلي بلال الحسن ، الذي كان يرأس تحرير مجلة «اليوم السابع» على مدى عمرها القصير (حوالي ٨ سنوات) ، واقترحت نشره فاتحة لنقاش حول «المسألة الفلسطينية» . وإذ كانت المجلة تعبر على نحو غير رسمي عن منظمة التحرير الفلسطينية ، فقد رأى بلال أن يبدأ بعرض المقال على بعض قادة المنظمة . وبعد مفاوضات أحسست بما بذل فيها بلال من مشقة ، لم ينشر المقال ، وبقي طي أوراقي ، حيث كنت أتحين فرصة أو مجالا لينشر من منبر فلسطيني ، وقد كانت «اليوم السابع» وكما تبين فيما بعد - للأسف - ملجأ أخيرا .

إنما نشر المقال بعد ذلك ، في صيف ١٩٩١ ، في وقت واحد في كل من «السفير» اللبنانية و «صوت الكويت» التي كانت تصدر في لندن .

بعد ذلك خطر على ذهنى هذا الكتاب الذى ترجمته ونشرته منذ أكثر من عشرين سنة .

فلما قرأته تلك القراءة المتأخرة ، تراءت لى فائدة إعادة نشره بعد هذا الزمن ، فلعل من بعض حكمة إيزاك دويتشر ، التى تبدت فى بعض ما تضمنه هذا الكتاب من فصول ، أنه لا يرى حلا للمسألة الفلسطينية/ الاسرائيلية إلا أن يكون منصفا للطرفين : الفلسطينيين الذين طردوا وأهينوا ، والعرب الذين هزموا وأهينوا وانتهكت آمالهم ، ولليهود الذين هاجروا إلى إسرائيل ، بعضهم بأوهام الحلم الصهيونى وجاذبيته لهم ، وبعضهم بعد أن انهارت ثقتهم بالحضارة المسيحية - اليهودية الأوروبية، لكنهم ذهبوا إلى فلسطين أو إسرائيل ، ليعيشوا على فتات أفضالها ، ويحتموا بنفاق دعمها مقابل أن يكونوا عملاءها وحراس مصالحها . وبعضهم بتأثيرات دينية أو أوهام أسطورية .

وأعتقد - واثقا - أو أننى أتطلع - متمنيا - أن يجد القارىء فى بعض ما كتب دويتشر ما وجدت ، وأنه لن يقبل من أطراف أفكاره ما لم أقبل ، وسيتحفظ على ما أتحفظ عليه ، على خلاف فى المواضع والتأكيدات والتخفيفات .

ولعلنى لم أخطىء



تذييل

كتب هذا الفصل في شهر فبراير ١٩٩٢ ، أي قبل أن يتوصل الفلسطينيون والإسرائيليون إلى الاتفاق المعروف باسم «غزة – أريحا أولا» ، وكان من بين العناصر الرئيسية وراء ما ورد فيه – الفصل – من أفكار واقعة لم تنكر فيه ، وملخصها أن كاتب هذه السطور ، في سبتمبر ١٩٩٢ قد تداول مع عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية محمود عباس (أبو مازن) في فكرة فتح «مسالك» غير رسمية بعضها غير علني ، توازي المفاوضات العلنية التي كانت دائرة في واشنطن في ذلك الحين بين الفلسطينيين والإسرائيليين . ويقر الكاتب أنه في تلك المداولة كان يحبذ هذا المسلك ، ويسجل – على مسئوليته – أن الفلسطيني الذي كان في ما بعد هو المفاوض الرئيسي حول الاتفاق المذكور ، قد شاركه هذا الرأي ، بل وأبدى أنه يستطلع سبلا لفتح مسالك تفاوضية من هذا القبيل .

هوامش الفصل الأول

(١) الكتب التى أشير اليها هى :

١ - الدون الهادىء : رواية الكاتب الروسى ميخائيل شولوخوف الحائز على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٦٥ ، ولم يقدر لهذه الترجمة أن تنشر كاملة . فقد صدر القسمان الأول والثانى منها عن دار النديم بالقاهرة عام ١٩٥٨ ، وقد اغلقت تلك الدار ضمن الحملة على الشيوعيين فى مطلع ١٩٥٩ .

وفى ١٩٦٥ وبعد حصول شولوخوف على جائزة نوبل ، طلبت منى «دار الكتاب العربى» (الآن : الهيئة المصرية للكتاب) حقوق نشر الترجمة الكاملة ، وأعادت طبع القسمين اللذين سبق نشرهما ، وضاعت ترجمة القسمين الآخرين فى دهاليز تلك المؤسسة بعد صدور أمر طبعهما ، وهو ما كان قد طمأنني إلى التخلص مما كان عندى من نسخ هذه الأصول !

٢ - الاقتصاد والادارة فى مصر في مطلع القرن التاسع عشر : بالاشتراك مع الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى . دار المعارف - القاهرة - ١٩٦٧ وهو ترجمة كتاب The Agricultural Policy

of Mohamed Ali in Egypt تأليف هيلين آن ريفيلين ، وقد تغير العنوان في العربية لأن الرقابة آنذاك كانت تمنع ذكر اسرة محمد على في عناوين الكتب !.

٣ - مدخل إلى التاريخ الاقتصادى للشرق الاوسط للكاتب الاسرائيلى ن . هرشلاج - دار الحقيقة - بيروت - ١٩٧٢ .

كما ترجمت للبرنامج الثاني - الثقافى - فى الاذاعة المصرية الأعمال المسرحية للكاتب الروسى الكسندر بوشكين ، ومسرحيتين للكاتب البريطانى جون أوزبورن هما : «لوثر» و «تحت غطاء شفاف» .

ولم يطبع أى من هذه الترجمات .

(٢) الكرامة : مخيم فلسطينى تحول إلى قرية ، يقع في غور الأردن شمال جسر اللينى ، بعد حرب ١٩٦٧ أصبحت الكرامة «قاعدة ارتكاز» لقوات المقاومة الفلسطينية . وشنت عليه اسرائيل هجوما جويا وبريا فى ٢١ مارس ١٩٦٨ وأبلى الفلسطينيون والجيش الأردنى بلاء حسنا .

(٣) سعيد حمامي : مناضل فلسطينى أغتيل في لندن فى يناير ١٩٧٨ ، وكان ممثلا لمنظمة التحرير الفلسطينية في العاصمة البريطانية، ورغم أن قضية اغتياله لم تحل بعد ، شأنها شأن كثيرات مثلها ، فإنه يعتقد أن للاغتيال علاقة غير مباشرة بالحدث الذى أرويه

هنا ، فقد كان تحوله إلى «الدبلوماسية» مترتبا على تلك التجربة ، وفى عمله الدبلوماسى تولى بعض مسئولية الاتصالات السرية مع شخصيات اسرائيلية للبحث عن أرضية مشتركة لحل الصراع .

(٤) انظر الفصل الأول .

(٥) انظر الفصل الثالث .

القسم الثانى :

اليهودى اللايهودى

مقدمة الطبعة الأولى

قيمة هذا الكتاب لا تمثلها الآراء والأفكار والاحكام التى يقدمها مؤلفه اسحق دويتشر . فهذه الآراء والأفكار والأحكام الصائبة كثيرا ، المخطئة قليلا ، الموضوعية أحيانا ، المتحيزة أحيانا ، العلمية آنا، والعاطفية آنا ، نقول هذه الآراء والافكار والاحكام ، فى قيمتها الكبيرة وعلى أصالتها وعمقها ليست هى وحدها التى تعطى الكتاب قيمته . قيمة الكتاب أنه صدر عن دويتشر بالذات ، أو بالأحرى عن تجربته بالذات .

فقيمة تجربة اسحق دويتشر ، من زاوية المشكلة اليهودية وإسرائيل، ناجمة عن أنها تجربة تمت في ثلاثة اتجاهات :

أولا : تربية وثقافة يهودية عميقة وواسعة ، تعرضت من قبل صاحبها الى إعادة نظر نقدية ، يغلب عليها الموقف العلمى الأصيل .

ثانيا : ثقافة ماركسية واسعة ، يعمقها ويؤصلها ، ويزيد من قيمتها ثقافته التاريخية الواسعة وتحرره من الدوغمائية والذرائعية .

ثالثا : تجربة وممارسة واسعة فى الحياة فى المجتمع الغربى ، وهى أيضا تجربة استوعبها النقد العلمى الدقيق ، وشغلت من حياة صاحبها نصفها الأنضج .

لذلك ، فقيمة الكتاب أساسا ، ليست فى أنه كتاب يقف معنا أو ضدنا ، أو فى أنه كتاب يقدم لنا حقائق جديدة لا يقدمها كتاب غيره ، وإنما فى أنه كتاب «يساعدنا على الفهم» ، بسبب نوعية تناول كل من القضية والمادة، ذلك التناول الذى يتم من خلال تجربة خاصة جدا ، وعامة جدا ، فى وقت واحد ، وتكاد تكون فريدة .

فمن بين المفكرين اليهود فى الغرب ، دويتشر أحد القلائل الذين عاشوا وعملوا فى قلب يهودية شرق أوروبا ، التى انتهى بها المطاف ، قاعدة واحتياطيا للحركة الصهيونية العالمية .

ومن بين المفكرين الماركسيين ، ذوى الأصول اليهودية ، دويتشر أحد القلائل ، الذين تجاوزوا مرحلة المعارضة الديمقراطية ، على مستوى أو النكوص النظرى على مستوى آخر .

ومن المفكرين الماركسيين ذوى الأصول اليهودية الذين تمردوا ، دويتشر هو ـ عدا تروتسكى ـ الوحيد الذى عاش الحياة الغربية . علما بأن تروتسكى ، المثل الأعلى لدويتشر ، لم يكن يهوديا بأى معنى ، سوى معنى وراثة الديانة شكليا عن الأبوين .

فالكتاب ، خلال هذه التجربة المتشابكة شبه الفريدة ، يعاوننا على فهم قضيتين :

الأولى: كيف نعالج الموقف من قواعد الحركة الصهيونية عموما ، ومن جماهير اليهود فى إسرائيل على وجه الخصوص .

ويوضح الكتاب أن تلك قضية لا تحتمل التبسيط الشائع ، بل أن هذا التبسيط الشائع يشكل كارثة بالنتيجة .

الثانية : كيف نفهم ونعالج قضية موقف أجزاء واسعة من اليسار العالمى من الحركة الصهيونية واسرائيل .. دون أن نقع فى غشاوة الاستفزاز والحنق .

وهما قضيتان مهمتان للنضال العربى الآن .

وبالطبع ، فإن الكتاب ليس وحده الذى يساعد على الفهم فى هذا المجال ، إنما هو واحد من كتب أخرى ، لكنه ـ فى موضوعه ـ كتاب فعال .

القاهرة ـ أيلول / سبتمبر ١٩٧٠

مصطفى الحسينى

كلمة المحرر

ننشر هذه المقالات في مجلد واحد ، بعد وفاة مؤلفها . ولو أن اسحق دويتشر كان حيا ، لبذل مزيدا من العناية في مراجعة عمله ، وقد قررت أن يكون تدخلي في هذه المقالات ، أقل ما يمكن ، وهي مقالات سبق نشرها في وقت أو آخر ، فأضفت هامشا هنا ، وحذفت جملة هناك ، لقد تحملت مسئولية تحرير المحاضرة التي تتناول «الثورة الروسية والمسألة اليهودية» والتي تركها مؤلفها ناقصة . أما مقاله «من هو اليهودي؟» فقد احتاجت قدرا أكبر من العمل في الاختيار والتركيز .

ولا مفر من بعض التداخل ، في حالة تجميع محاضرات ومقالات ومحاورات تتناول موضوعا واحدا معينا ، رغم أن تناوله قد يتم من زاويا مختلفة . ومع ذلك ، فلن يجد القارىء ذرة من الشك ، في أن اسحق دويتشر ظل موضوعيا في آرائه حول دور اليهود البالغ التعقيد، وحول مصيرهم المأساوي في أوروبا وفي اسرائيل .

وإني على يقين ، بأنني خلال عملي في هذه المقالات ، قد نجحت في أن أحافظ بإخلاص ، في كل الأحوال ، على فكر اسحق دويتشر .

تامرا دويتشر

لندن - يناير ١٩٦٨

اسحق دويتشر

١٩٠٧ ــ ١٩٦٧

بدأت شهرة اسحق دويتشر فى البداية كشاعر ، عندما نشرت قصائده ، وهو بعد فى السادسة عشرة من عمره فى المجلات الأدبية البولندية ، ولقد كانت قصائده الأولى ، التى مازال جمهرة قرائه المبعثرين يحملونها فى ذاكراتهم ، تحمل أصداء قوية للغيبية اليهودية ، بقعا من التاريخ اليهودى والأساطير الدينية اليهودية ، وتمزج الرومانسية البولندية بالفولكلور الغنائى اليهودى ، فى محاولة لبناء جسر على البرزخ الفاصل بين الثقافتين البولندية واليدشية . كما ترجم قدرا كبيرا من الشعر العبرى واللاتينى والألمانى واليدشى الى البولندية .

وعندما كان يتلقى ــ كطالب مستمع ــ فى جامعة ياغيلون كراكوفيا ، التى تحمل طابع العصور الوسطى ، محاضرات فى الأدب والتاريخ والفلسفة ، أصبحت الأمسيات المخصصة لقراءة شعره ، أحداثا ملحوظة فى تلك المدينة البولندية التى عرفت بطابعها الفنى والاكاديمى .

وعندما بلغ الثامنة عشرة ، غادر كراكوفيا الى وارسو ، كما هجر الشعر الى النقد الأدبى ، والى دراسة أوسع للفلسفة والاقتصاد والماركسية ، وحوالي سنة ١٩٢٧ ، التحق بالحزب الشيوعي البولندى المحظور ، وسرعان ما أصبح رئيسا لتحرير الصحافة الشيوعية السرية وشبه السرية . وفى عام ١٩٣١ ، قام برحلة واسعة فى الاتحاد السوفييتى ، ليتعرف على أحواله الاقتصادية فى ظل الخطة الخمسية الأولى ، ورفض عروضا لاحتلال مراكز أكاديمية فى جامعتى موسكو ومينسك ، كأستاذ لتاريخ الاشتراكية والنظرية الماركسية . وفى العام التالى طرد من الحزب الشيوعى .

وكان السبب الرئيسى لطرده أنه «بالغ فى خطر النازية» وأنه كان «ينشر الذعر فى صفوف الشيوعيين» . إذ أنه فور عودته من الاتحاد السوفييتى ، نظم ، مع ثلاثة أو أربعة من رفاقه ، أول معارضة للستالينية فى الحزب الشيوعى البولندى ، وقد اعترضت مجموعته على خط الحزب الذى اعتبر الاشتراكية الديمقراطية والنازية «ليستا صنوين وإنما توأمين» . وعندما ظهرت الصحف الشيوعية السرية ذات يوم تحمل عنوان «خطر البربرية فوق أوروبا» ، طرد رئيس التحرير من الحزب ، ومنذ ذلك اليوم أصبح ظلان يتبعانه : واحد تستخدمه الشرطة البولندية، والآخر متطوع من الخلية الحزبية الستالينية .

في أبريل ١٩٣٩ غادر دويتشر وارسو الى لندن كمراسل لصحيفة يهودية بولندية ، كان قد عمل فيها أربع عشرة سنة كمصصح تجارب طباعة ، وكان من حسن حظه ، أنه عندما اندلعت الحرب ، وانقطع عنه دخله ، رفضت صحيفة بيدشية ، تصدر في لندن مساهمته فيها ، فاضطره هذا الى التفرغ بأقصى ماليه من طاقة وحماس لتعلم الانجليزية ، وكتب مقالته الأولى بالانجليزية مستعينا بكومة من المعاجم وكتب النحو والصـــرف والمراجع ، وأرسلها الى «الايكونوميست» فنشـــرت في الأسبوع التالى ، ومن وقتها أصبحت مقالاته تنشر بانتظام .

في ١٩٤٠ ، التحق دويتشر بالجيش البولندى فى سكوتلاندا ، لكنه انفق معظم خدمته العسكرية في معسكرات العقاب كعنصر «خطر وهدام» جزاء اعتراضاته المستمرة على الموقف المعادى للسامية الذى كان سائدا فى هذا الجيش . وعندما سرح سنة ١٩٤٢ ، انضم إلى هيئة تحرير الايكونوميست ، وأصبح خبيرها فى الشئون السوفييتية ، ومعلقها العسكرى ، ومراسلها الرئيسى فى أوروبا ، كما انضم إلى أسرة تحرير الاوبزرفر ، التى أصبح مراسلا متجولا لها فى أوروبا يكتب باسم أدبى هو «برجرين» .

حوالى عامى ١٩٤٦ ـ ١٩٤٧ ، ترك الـ «فليت ستريت» شارع الصحافة فى لندن ، والعمل الصحفى المنتظم ، ليتفرغ لعمل ذى قيمة

أكبر . وفي ١٩٤٩ نشر كتابه «ستالين، سيرة سياسية» الذى وصف بأنه «أكثر السير إثارة للنقاش في عصرنا» ، فنشر فى طبعات عديدة ، وطبع باثنتى عشرة لغة ، وتضم طبعته التى صدرت سنة ١٩٦٧ ، ملحقا عن سنوات ستالين الأخيرة .

وقد أدى نشر «ستالين» الى الاعتراف بدويتشر كمرجع فى الشئون السوفييتية ، وكمؤرخ للثورة الروسية ، أما ثلاثيته عن تروتسكى : «النبى المسلح» ١٩٥٤ ، و«النبى الاعزل» ١٩٥٩ ، و«النبى المنبوذ» ١٩٦٣ ، فلقد ركزت سمعته ككاتب يسيطر على النثر الانجليزى . وقد اعتمدت سيرة تروتسكى تلك على بحث تفصيلى فى ملفات تروتسكى فى جامعة هارفارد ، على أن قدرا كبيرا من مادة المجلد الثالث ، تعتبر مادة فريدة، لأنه حصل على أذن خاص من أرملة تروتسكى - المرحومة نتاليا سيدوف ـ بأن يقرأ فى القسم المغلق من الملفات ، والذى سيظل بناء على وصية تروتسكى نفسه ، مغلقا حتى نهاية هذا القرن .

وقد كان فى خطة دويتشر أن يختتم سلسلة سيره ، بدراسة عن لينين ، وكثيرا ما عبر عن أمله ، فى أن ينظر الى عمله «كمحاولة واحدة فى التحليل الماركسى لثورة عصرنا ، وكذلك كثلاثية تتمتع بقدر من الوحدة الفنية» .

ولقد حاضر دويتشر ضمن برنامج ج.م. تريفيليان فى جامعة

كمبريدرج سنة ١٩٦٦ ـ ١٩٦٧ ، واستمع إليه جمهور غفير ، أحرز انتباهه الفائق واستجابته الحارة ، ونال الصدى نفسه خلال اقامته لستة أسابيع فى جامعة ولاية نيوريورك فى بنجهامتن ، كلية هاربر ، وكذلك عندما حاضر فى جامعات نيوريورك وبرنستون وهارفارد ، وكولومبيا فى ربيع ١٩٦٧ ، ولقد ظهرت محاضراته في برنامج ج.م. تريفيليان تحت عنوان «الثورة غير المنتهية» فى أربع عشرة أو خمس عشرة لغة . ورغم أن كتبه ظهرت فى طبعات كثيرة وترجمت الى لغات عديدة ، إلا أن أيا منها لم ينشر حتى الآن فى بلدان الكتلة السوفييتية ، ومع ذلك فهناك ما يدل على أنه له هناك قراء شجعان ومتحمسين غير قليلين .

وكثيرا ما خاطب دويتشر ، كخطيب ذى قدرات مسيطرة ، ومناقش ذى قدرة جدالية ، جماهير غفيرة على شاطىء الأطلنطى ، وفى عام ١٩٦٥ ، اشترك فى أول ندوة تثقيفية عن فيتنام ، حيث انتظم خمسة عشر ألف طالب فى جامعة بركلى ، ليستمعوا الى بيان اتهامه ضد الحرب الباردة .

ولقد كان دويتشر على قدر غير عادى من الحيوية ، مكنه ، رغم انشغاله بمفرده تقريبا ، فى عمله الفكرى الخالد ، من أن يواصل

متابعة السياسات الجارية باهتمام حار ، وطوال أربع عشرة سنة ، كانت تحليلاته للأحداث الدولية الرئيسية تلقى جمهورا واسعا من القراء، فى الصحف الرئيسية فى أوروبا والولايات المتحدة واليابان والهند وأمريكا اللاتينية .

ولقد ظل يعمل حتى آخر يوم من حياته ، ومات فى روما فى ١٩ أغسطس «آب» ١٩٦٧ .

مايو «أيار» ١٩٦٨ .

تامرا دويتشر



اليهودى اللايهودى (1)

هناك قول تلمودى قديم ، يقول : «يظل اليهودى الذى يرتكب خطيئة، يهوديا» وتفكيرى يذهب بالطبع إلى أبعد من فكرة «الخطيئة» أو «عدم الخطيئة» لكن هذا القول ، أعاد لى ذهنى ذكرى من ذكريات الطفولة ، قد لا تكون عديمة الدلالة بالنسبة للموضوع الذى أتناوله .

أذكر أننى فى طفولتى ، قرأت المدراش (التفسير اليهودى التقليدى للتوراة) فصادفت قصة ووصفا لمشهد استولى على خيالى ، تلك هى قصة الحاخام ماير ، القديس والحكيم العظيم وعماد الارثوذكسية اليهودية وأحد واضعى المدراش ، والذى تلقى دروسا فى اللاهوت من الملحد إليشا بن أبيوه ، الملقب بـ «آخر» (أى الغريب) .

فذات يوم سبت كان ماير مع معلمه . وكالعادة استغرقا فى نقاش عميق ، وكان الملحد راكبا حماره . ولما كان الحاخام لايستطيع الركوب فى يوم السبت ، فقد كان يمشى الى جواره ، وينصت باهتمام الى

---

(1) بنيت هذه المقالة ، على محاضرة ألقيت على المؤتمر اليهودى العالمى فى فبراير ١٩٥٨ ، خلال أسبوع الكتاب اليهودى .

كلمات الحكمة ، التى تخرج من شفتيه الملحدتين ، وقد استغرقه الانصات الى حد أنه لم يلحظ أنه هو ومعلمه قد وصلا الى الحد الذى تمنع الطقوس اليهودية اليهود من اجتيازه فى يوم السبت ، فاستدار الملحد العظيم الى تلميذه وقال : «انظر ، لقد وصلنا الى الحد ، فيجب أن نفترق الآن ، ليس لك أن تصاحبنى الى أبعد من ذلك . عد» وعاد الحاخام ماير الى الطائفة اليهودية ، بينما واصل الملحد مسيره الى ما وراء حدود اليهودية .

كان فى المشهد مايكفي ليثير حيرة طفل يهودى أورثوذكسى . كنت اعجب لماذا يتلقى الحاخام ماير ، ذلك الضوء الموجه من أضواء الارثوذكسية ، دروسه على الملحد ؟ ولماذا كان يبدى له كل هذا الحب ؟ لماذا كان يدافع عنه أمام غيره من الحاخامات ؟ ويبدو أن قلبى كان مع الملحد ، من هو ؟ كان يبدو من داخل اليهودية وخارجها فى الوقت نفسه، فقد أبدى احتراما غريبا لارثوذكسية تلميذه ، عندما أعاده الى اليهود فى يوم السبت المقدس ، بينما اعرض هو نفسه عن الشريعة وعن الطقوس، وسار الى ماوراء الحدود . وعندما كنت فى الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة ، شرعت فى كتابة مسرحية عن «آخر» والحاخام» ماير، وحاولت أن اكتشف المزيد عن شخصية «آخر» ، ما الذى جعله يتجاوز اليهودية ؟ هل كان من الغنوصيين؟ هل كان من أنصار مدرسة

أخرى من مدارس الفسلفة اليونانية أو الرومانية ؟ لم استطع التوصل الى جواب ، ولم أنجح فى المضى الى أبعد من الفصل الأول .

إن اليهودى الملحد الذى يتجاوز اليهودية ينتمى الى تقليد يهودى . يمكنكم اذا شئتم ان تروا فى «أخر» نموذجا لهؤلاء الثوريين العظام فى الفكر الحديث : سبينوزا ، هاينه ، ماركس ، روزا لوكسمبرج ، تروتسكى ، فرويد ، ويمكنكم اذا شئتم أيضا ، وضعهم ضمن تقليد يهودى . لقد ذهبوا جميعا الى ما وراء حدود اليهودية، وكلهم وجدوا اليهودية شديدة الضيق ، مماتة ، مليئة بالقيود ، وكلهم بحث عن مثل عليا وعن تحققها فيما وراءها ، وهم يمثلون كل ومحتوى الكثير مما هو أعظم ما فى الفكر الحديث ، كل ما وقع من تطورات فى الفلسفة وعلم الاجتماع والاقتصاد والسياسة ومحتواها العميق فى القرون الثلاثة الأخيرة .

هل كان ثمة شىء مشترك بينهم ؟ أيمكن أن يقال أنهم أثروا فى فكر البشرية كل هذا التأثير العظيم بسبب «عبقريتهم اليهودية» الخاصة ؟ أننى لا أؤمن بالعبقرية الفريدة لأى عنصر ، ومع ذلك أعتقد أنهم كانوا فى الحقيقة يهودا جدا على نحو ما . كان فيهم شىء من جوهر الحياة اليهودية والفكر اليهودى . كان بصورة قبلية استثناء من حيث كونهم يهودا عاشوا على تخوم حضارات وديانات وثقافات قومية مختلفة ، لقد ولدوا وتربوا على تخوم عصور مختلفة . ونضجت عقولهم

حيث كانت التأثيرات الثقافية المتنوعة تتداخل وتخصب بعضها بعضا عاشوا على حدود أممهم وفي زواياها وشقوقها ، وكان كل منهم في المجتمع وفي خارجه في ذات الوقت ، ولقد كان ذلك هو الذي مكنهم من أن يرتفعوا بفكرهم فوق مجتمعاتهم ، وفوق أممهم ، وفوق عصورهم وأجيالهم ، وأن يضربوا عقليا في آفاق جديدة فسيحة ، تستشرف مستقبلا بعيدا .

وأظن أنه مؤرخ انجليزي بروتستانتي لحياة سبينوزا هو الذي قال إنه لم يكن أحد يقدر أن يقود ذلك التمرد الذي قاده سبينوزا في فلسفة عصره ، سوى يهودي ، يهودي غير مرتبط بعقائد الكنائس المسيحية ، الكاثوليكية والبروتستانتية ، ولا بعقائد الديانة التي ولد عليها (١) .

فديكارت ، ولايبنز بالذات لم يستطعا أن يحررا نفسيهما الى نفس الدرجة من أحابيل تقليد العصور الوسطى الفلسفي المدرسي .

لقد تربى سبينوزا في ظل تأثيرات أسبانيا وهولندا وألمانيا وانجلترا، وايطاليا في عصر النهضة ، وقد ساهمت كل تيارات الفكر الإنساني المؤثرة آنذاك في تشكيل فكره ، وقد كان وطنه هولندا في

---

١ - «إن من أخطر المحاذير الناتجة عن الانتصار الظاهري العظيم الذي أحرزته المسيحية هو أن مفكري المسيحية نادرا ماحققوا احتكاكا حيويا مع الديانات الأخرى ، ومع غيرها من أنماط التفكير العالمي . ونتيجة هذا الافتقار الى التجربة ، فان الطرق المسيحية في النظر الى العالم مأخوذة بالصحة كأمر تقرره طبيعة الاشياء .. ولقد كان اشجع المفكرين وأكثرهم أصالة .. هو سبينوزا ، الذي تسامى على التحيزات اللاهوتية التي لم يستطيع الآخرون انتزاع أنفسهم منها» «مراسلات سبينوزا ، مقدمة بقلم أوولف» .

غمار الثورة البورجوازية ، أما أسلافه فقد كانوا ، قبل مجيئتهم الى هولندا ، من «المارانيم» ، أسبانا برتغاليين ، يهودا سابقين ، يهودا فى الباطن ومسحيين فى الظاهر ، شأن كثير من اليهود الأسبان الذين فرضت عليهم محاكم التفتيش التعميد ، وبعد أن جاءت عائلة سبينوزا الى هولندا كشفت عن يهوديتها ، إنما بالطبع، لم يكونوا هم ولا أبناؤهم غرباء عن المناخ الفكرى للمسيحية .

إن سبينوزا نفسه ، عندما بدأ كمفكر مستقل وكرائد للنقد الحديث للكتاب المقدس ، وضع يده على الفور على التناقض الرئيسى فى اليهودية . التناقض بين الاله الواحد والكون ، والوضع الذى يظهر به ذلك الاله فى الديانة اليهودية ، كإله مرتبط بشعب واحد فقط ، التناقض بين الاله الكونى وبين «شعبه المختار» ونعرف ماذا جلب ادراك هذا التناقض على سبينوزا : الطرد من الطائفة اليهودية والحرم . كان عليه أن يحارب ضد رجال الدين اليهود الذين كانوا هم أنفسهم حتى عهد قريب ضحايا محاكم التفتيش ، وأصابتهم عدوى روح محاكم التفيش ، ثم كان عليه أن يواجه عداء رجال الكنيسة الكاثوليك والقساوسة الكالفانيين . كانت حياته كلها صراعا للتغلب على قيود ديانات عصره وثقافاتها .

من بين اليهود ذوى الطاقات الفكرية العظيمة . الذين تعرضوا لتناقض مختلف الديانات والثقافات ، من تجاذبتهم المؤثرات والضغوط

المتناقضة ، فى اتجاهات مختلفة ، الى حد أفقدهم التوازن الروحى فانهاروا ، كان أوريل اكوستا ، رائد سبينوزا ، الذى تمرد على اليهودية أكثر من مرة ، وتاب أكثر من مرة . وتكرر حرمان الحاخامات له من الرحمة، وتكرر سجوده أمامهم على أرض كنيس امستردام ، وعلى خلاف أكوستا ، تمتع سبينوزا بالسعادة الفكرية العظيمة فى أن يكون قادرا على الملاءمة بين المؤثرات المتضاربة وأن يخلق منها نظرة أعلى الى العالم ، وفلسفة موحدة .

فى كل جيل تقريبا ، كلما وضع المثقف اليهودى فى سياق الثقافات المختلفة وتصارع مع نفسه ومع مشاكل عصره ، نجد من ينهار تحت الثقل ، مثل أوريل اكوستا ، ومن يجعل من ذلك العبء جناحين للعظمة مثل سبينوزا ، ولقد كان هاينه على نحو ماهو أوريل اكوستا عصره ، وكانت نسبته الى ماركس ، حفيد سبينوزا الفكرى ، تقابل نسبة أوريل اكوستا الى سبينوزا .

كان هاينه ممزقا بين المسيحية واليهودية ، وبين فرنسا وألمانيا ، ففى الراين حيث موطنه ، تصادمت مؤثرات الثورة الفرنسية والامبراطورية النابوليونية مع مؤثرات امبراطورية القياصرة الألمان الرومانية المقدسة العتيدة . وتربى فى فلك الفلسفة الألمانية الكلاسيكية ، وفى فلك الأفكار الجمهورية الفرنسية ، رأى كانت فى زى روبسبير ، وفيختة فى زى

نابليون ، من حيث الروح ، وهو هكذا يصفهم في واحدة من أغنى فقرات كتابه : «حول مسألة الدين والفلسفة فى ألمانيا» ، وأكثرها تأثيرا ، وفى سنواته الأخيرة احتك بالاشتراكية والشيوعية الفرنسية والألمانية ، وقابل ماركس بنفس الاعجاب والعطف الواعى اللذين قابل بهما اكوستا سبينوزا .

وبالمثل تربى ماركس في منطقة الراين ، ولما كان أبواه قد تخليا عن اليهودية ، فلم يدخل فى صراع مع التراث اليهودى مثلما فعل هاينه ، وكان الأكثر الحاحا عنده هو معارضته للتخلف الاجتماعى والروحى فى ألمانيا المعاصرة ، ولما كان قد عاش معظم حياته منفيا ، فقد تشرب فكره بالفلسفة الألمانية ، والاشتراكية الفرنسية ، والاقتصاد السياسى الانجليزى . ولم يحدث أن التقت هذه المؤثرات المتباينة فى عقل معاصر، مثل هذا اللقاء المثمر ، فقد ارتفع ماركس فوق الفلسفة الألمانية والاشتراكية الفرنسية والاقتصاد السياسى الانجليزى ، وتمثل أفضل ما فى كل من هذه التيارات ، وتخطى حدودها جميعا وتسامى عليها .

ولكى نقترب أكثر من عصرنا ، هناك روزا لوكسمبورج وتروتسكى وفرويد ، وقد تكوَّن كل منهم فى غمار تيارات تاريخية متقاطعة ، فروزا لوكسمبرج مزيج فريد من الشخصية الألمانية والبولندية والروسية ، ذات المزاج اليهودى ، وكان تروتسكى تلميذا للمدرسة الثانوية الروسية الألمانية اللوثرية فى أوديسا الكوسموبوليتية ، على حافة امبراطورية

القياصرة الارثوذكسية اليونانية ، ونضج عقل فرويد في فيينا ، في غربة عن اليهودية ، ومعارضا للكنيسة الكاثوليكية في عاصمة الهابسبرج، وكان يجمعهم كلهم ذلك العنصر المشترك : ان ذات الظروف التي عاشوا وعملوا فيها ، لم تسمح لهم بالتصالح مع الافكار التي كانت محدودة وطنيا أو دينيا ، ودفعتهم الى التطلع الى نظرة كونية شمولية ؛

لم تكن أخلاق سبينوزا هي الأخلاق اليهودية ، إنما كانت أخلاق الإنسان عامة ، تماما كما أن إلهه لم يكن الإله اليهودى ، فعندما أتحد إلهه مع الطبيعة ، سفح هويته المنفصلة المميزة المقدسة ، ومع ذلك ، فعلى نحو ما ظل إله سبينوزا وأخلاقه يهوديين ، فيما عدا أن يهوديته كانت هي التوحيد اليهودى ممدودا الى نتيجته المنطقية ، والإله اليهودى الكونى بعد اخضاعه لتفكير شامل . وما أن يتم اخضاعه لتفكير شامل حتى يكف ذلك الإله عن أن يكون يهوديا .

ظل هاينه طيلة حياته في صراع مع اليهودية ، كان موقفه منها مزدوجا بصورة خاصة ، مليئا بالحب الكاره ، أو الكراهية المحبة . وكان من هذه الناحية أدنى من سبينوزا ، الذى لم يصبح مسيحيا عندما حرمه اليهود من الرحمة ، لم تكن لهاينه قوة عقل سبينوزا وشخصيته وكان يعيش في مجتمع أكثر تخلفا من المجتمع الهولندى في

القرن السابع عشر ، رغم أنه كان في بداية القرن التاسع عشر ، ولقد علق آماله من البداية على ذلك التحرير . الزائف لليهود ، ذلك الذى قال عنه موسى مندلسون «أن جبن ذلك المثل الأعلى اليهودى الألمانى ، يتجانس مع خسة ليبيرالية البورجوازية الألمانية غير اليهودية ، فالليبيرالى الألمانى «رجل حر» داخل بيته ، وأكثر الرعايا اخلاصا خارجه» .. ولم يستطيع هذا أن يقنع هاينه طويلا ، فتخلى عن اليهودية واستسلم للمسيحية ، أما فى دخيلته فلم يتصالح ابدا لا مع التخلى ولا مع التحول ، فبطله دون ايزاك يقول للحاخام فون باكراش : «لاأستطيع أن أكون واحدا منكم ، إنى أحب طعامكم أفضل بكثير مما أحب ديانتكم . لا ، لا استطيع أن أكون واحدا منكم . وأشك أنه حتى فى أفضل عصوركم فى ظل حكم ملككم داوود ، فى أفضل عصوركم ، كنت سأهرب منكم الى معابد أشوريا وبابل ، التى كانت مليئة بالحب ومتعة الحياة» ومع ذلك فقد كان يهوديا منيعا غاضبا .

أما ماركس الذى كان أصغر منه بحوالى عشرين سنة فقد تغلب على المشكلة التى عذبت هاينه ، ولم يقع فى براثنها سوى مرة واحدة ، فى كتابه المبكر الشهير : «المسألة اليهودية» . وكان هذا الكتاب هو رفضه لليهودية رفضا لايقبل النقض . وبسببه هاجم المدافعون عن

الارثوذكسية اليهودية والقومية اليهودية ماركس كـ «عدو للسامية» ومع ذلك، أعتقد أن ماركس قد وصل الى لب قلب الموضوع ، عندما قال إن اليهودية قد عاشت ، ليس رغما عن التاريخ ، وإنما من خلال التاريخ ، وأنها مدينة ببقائها للدور المتميز الذى لعبه اليهود ، كعملاء لاقتصاد نقدى فى محيط يعيش فى ظل اقتصاد طبيعى ، إن اليهودية كانت أساسا هى خلاصة علاقات السوق وعقيدة التاجر ، وإن أوروبا المسيحية لدى تطورها من الاقطاع الى الرأسمالية ، أصبحت يهودية على نحو ما ، ورأى ماركس فى المسيح «اليهودى المنّظر» ورأى فى اليهودى« المسيحى العملى» وعلى ذلك رأى فى المسيحى البورجوازى «العملى» يهوديا .

ولما كان قد عالج اليهودية كانعكاس دينى لطريقة التفكير البورجوازية، فقد رأى أن اليهودية تمتص أوروبا البورجوازية. ولم يكن مثله الاعلى هو المساواة بين اليهودى وغير اليهودى فى مجتمع رأسمالى «مهود» . إنما تحرير اليهودى وغير اليهودى معا من طريقة الحياة البورجوازية، أو كما وضعها هو، على نحو أكثر استفزازا بمفردات الهيجلى الشاب المغــــرقة فى المفارقة :: «تحــــرير المجتمع من اليهودية». كانت فكرته تماثل فكرة سبينوزا فى كونيتها ، لكنها متقدمة زمنيا بمائتى ســـنة – كانت فكرة الاشتراكية والمجتمع اللاطبقى، بلا دولة .

من بين تلاميذ ماركس واتباعه ، لا يكاد يكون هناك من هو أقرب اليه من حيث الروح والمزاج من روزا لوكسمبرج وليون تروتسكى . ويتبدى شبههما به فى رؤيتهما الدرامية الديالكيتكية للعالم وصراعاته الطبقية، وفى ذلك التوافق النادر فى التفكير والاحساس والتخيل الذى يمنح لغتهما وأسلوبهما ميزة الوضوح والكثافة والغنى (ربما كان برنارد شو يفكر فى هذه الصفات عندما تحدث عن مواهب ماركس الادبية اليهودية الخاصة) . ولقد تطلع كل من تروتسكى وروزا لوكسمبرج، مثلما تطلع ماركس، مع رفاقهما من غير اليهود، الى الحلول الكونية كنقيض للحول الخاصة، والى الحلول الاممية كنقيض للحول القومية لمشاكل عصرهما. وحاولت روزا لوكسمبرج ان تتخطى التناقض بين الاشتراكية الاصلاحية الالمانية والماركسية الثورية الروسية، حاولت ان تحقق الاشتراكية الالمانية بشىء من الحماس والمثالية الثورية الروسية والبولندية ، بشىء من هذه الرومانسية الثورية، التى أطراها ، دون استحياء ، مفكر واقعى عظيم مثل لينين. وفى نفس الوقت، حاولت روزا أن تزرع الروح والتراث الديموقراطى الاوروبى الغربى فى الحركات الاشتراكية السرية فى شرق اوروبا . وفشلت فى هدفها الرئيسى، ودفعت حياتها ثمنا لذلك. لكنها لم تكن وحدها التى دفعت الثمن، فباغتيالها احتفلت المانيا الهوهنزلرن بانتصارها الأخير، واحتفلت النازية بانتصارها الأول .

أما ترتسكى ، مؤلف الثورة الدائمة فقد كانت أمامه رؤيا ثورة عالمية تغير البشرية ، ولقد اصطدم الرجل الذى شارك لينين قيادة الثورة الروسية، والذى أسس الجيش الاحمر ، بالدولة التى ساعده على خلقها، عندما رفعت الدولة وقادتها راية الاشتراكية فى بلد واحد، اذ لم يدر بخلده أن تتحدد رؤيا الاشتراكية بحدود بلد واحد.

عانى هؤلاء الثوريون العظام نقطة ضعف خطيرة، فقد كانوا، كيهود، يفتقرون على نحو ما ، إلى الجذور . لكنهم كانوا يفتقرون الى الجذور فى بعض النواحى فقط، اذ كانت لهم أعمق الجذور فى التراث الفكرى ، وفى أنبل امانى عصورهم . ومع ذلك فعندما يتصاعد التسامح الدينى أو الشعور القومى، حيثما ينتصر ضيق الافق المذهبى والتعصب، يصبحون أول الضحايا . فقد نبذهم الحاخامات اليهود، واضطهدهم القساوسة المسيحيون، وطاردتهم شرطة الحكام الريفيين المستبدين كما طاردتهم المرتزقة العسكرية. كانوا موضع كراهية الديمقراطيين الزائفين من أعداء التقدم ، كما كانوا طريدى أحزابهم ، كما نفوا كلهم تقريبا من بلادهم، وأعدمت مؤلفاتهم جميعا حرقا فى وقت أو آخر . فاسم سبينوزا ظل ممنوعا ذكره لاكثر من قرن بعد موته، وحتى لايبنز، المدين لسبينوزا بكثير من فكره، لم يجرؤ على ذكره، ومازال تروتسكى ملعونا فى روسيا حتى اليوم، وكانت اسماء ماركس وهاينه وفرويد وروزا لوكسمبرج ممنوعة فى المانيا حتى وقت قريب،

لكنهم هم الذين يحرزون النصر فى النهاية. فبعد قرن من اغراق اسم سبينوزا في النسيان، أقاموا له التماثيل. واعترفوا به كواحد من أعظم من اخصبوا العقل البشري. ولقد قال «هردر» مرة عن جوته : «أتمنى لو اقرأ جوته بعض الكتب اللاتينيه ، غير كتاب الاخلاق لسبينوزا» فالحقيقة أن جوته تربى فى احضان فكر سبينوزا، وقد وصفه هاينه بحق بان «سبينوزا هو الذى ألقى برداء الصيغ الرياضية ووقف امامنا شاعرا غنائيا» ، وكذلك انتصر هاينه نفسه على هتلر وجوبلز. وسيعيش الثوريون الأخرون من ابناء هذا الخط وسينتصرون إن عاجلا أو آجلا على من اجتهدوا لمحو ذكراهم .

واضح جدا لماذا ينتمى فرويد الى نفس الخط الفكرى، فهو فى تعاليمه - أيا كانت مزاياها وعيوبها - يتخطى حدود ماسبقه من مدارس علم النفس، فالانسان الذى يحلله ليس المانيا أو انجليزيا أو روسيا أو يهوديا، أنه الانسان العالمى الذى فيه اللا وعي مع الوعي، الانسان الذى هو جزء من الطبيعة ومن المجتمع ، الانسان الذى تتوحد رغباته وتطلعاته، وساوسه ومحرماته ، مصادر قلقه ومآزقه، بغض النظر عن العنصر أو الدين أو الأمة التى ينتمي اليها. ولقد كان النازيون ، من وجهة نظرهم ، على حق عندما قرنوا اسم فرويد باسم ماركس، واحرقوا مؤلفاتهما معا .

كل هؤلاء المفكرين والثوريين كان يجمعهم ضرب من مبادىء فلسفية عامة مشتركة. ورغم ان فلسفاتهم تتنوع، طبعا ، من قرن الى قرن ومن جيل الى جيل. فهم جميعا ، من سبينوزا الى فرويد ، حتميون ، وكلهم يؤمن بأن الكون تحكمه قوانين متأصلة وسائدة . وهم لا يرون فى الحقيقة الواقعة خليطا من المصادفات ، ولا التاريخ جماعا لرغبات الحكام ونزواتهم الجامحة. ويعلمنا فرويد، انه لا شيء يخضع للصدفة في احلامنا ولا حماقاتنا ، بل ولا فى زلات ألسنتنا ، ويقول تروتسكى أن قوانين التطور «تجسد» نفسها خلال الاحداث ، وبقوله ذلك، يقترب جدا من سبينوزا .

كلهم مؤمنون بالحتمية ، لأنهم بمراقبتهم لكثير من المجتمعات ، ودراستهم لكثير من «أساليب الحياة» عن كثب، يلتقطون العناصر الاساسية المنتظمة فى الحياة. وطريقتهم فى التفكير جدلية. ولأنهم عاشوا على تخوم الامم والديانات ، يرون المجتمع فى حالة تدفق ، ويدركون في الحقيقة تغيرها لاثباتها، أما المسجونون داخل مجتمع واحد، وامه واحدة ، او ديانة واحدة ، فيميلون الى تصور أن اساليب حياتهم وطريقتهم فى التفكير على صواب مطلق لا يتغير، وان كل مايناقض ما تواضعوا عليه هو على نحو ما «غير طبيعى» أو أدنى، أو شرير. ومن ناحية أخرى فإن هؤلاء الذين يعيشون على تخوم مختلف

الحضارات يفهمون بوضوح أكثر، الحركة العظيمة والتناقض العظيم في الطبيعة والمجتمع .

ويتفق كل هؤلاء المفكرين على نسبية الاخلاق الدارجة. وليس منهم من يؤمن بالخير المطلق او الشر المطلق ، فقد راقبوا جميعا مجتمعات تعتنق اخلاقيات مختلفة درجت عليها، وقيما اخلاقية مختلفة ، فما كان خيرا عند محكمة التفتيش الكاثوليكية الرومانية، التي عاش في ظلها اجداد سبينوزا ، كان شرا عند اليهود ، وما كان خيرا عند الحاخامات والشيوخ اليهود في امستردام ، كان شرا عند سبينوزا نفسه. ولقد عاني هاينه وماركس في شبابهما الصدام الكبير بين القيم المعنوية للثورة الفرنسية، والقيم المعنوية لالمانيا الاقطاعية .

ومع ذلك فكل هؤلاء المفكرين تقريبا تجمعهم فكرة فلسفية عظيمة أخرى مشتركة ، فكرة أن المعرفة لكي تكون حقيقة يجب ان تكون فعالة، وأثر ذلك عا آرائهم في الاخلاق ، لأنه إذا كان لا يمكن فصل المعرفة عن العمل او التطبيق ، الذي هو بطبيعته نسبي ومتناقض مع ذاته، فان القيم المعنوية ، معرفة ماهو خير وما هو شر، لا تنفصل ايضا عن التطبيق ، وهي أيضا نسبية ومتناقضة مع ذاتها، ولقد كان سبينوزا هو الذي قال : «أن تكون يعني أن تفعل ، وأن تعرف يعني أن تفعل» ، ولم تبق سوى خطوة واحدة الى قول ماركس: «حتى الآن قام الفلاسفة بتفسير العالم. ومن الآن فصاعدا، المطلوب هو تغييره . » .

وأخيرا فكل هؤلاء الرجال من سبينوزا الى فرويد، آمنوا بالتضامن النهائى بين البشر، وقد كان هذا متضمنا فى موقفهم من اليهودية. ونحن الآن ننظر الى هؤلاء الذين آمنوا بالانسانية خلال ضباب عصرنا الدامى. ننظر اليهم خلال دخان غرف الغاز، ذلك الدخان الذى لا تستطيع أى ريح أن تبدده عن ابصارنا . لقد كان «هؤلاء اليهود غير اليهود» اساسا متفائلين، وقد اوصلهم التفاؤل الى قمم ليس من السهل الارتقاء اليها فى عصرنا، لم يتصوروا انه سيكون بوسع اوروبا «المتحضرة» فى القرن العشرين، أن تغرق الى عمق من البربرية ، تقع معه مجرد كلمات «تضامن البشرية» فى آذان اليهود وقع السخرية الشريرة ، ولقد كان لدى هاينه وحده حدس الشعراء الهاجس بذلك عندما حذر اوروبا من المذبحة الموشكة للالهة الجرمان القدامى المنحدرين من الغابات الجرمانية السحيقة فى القدم، وعندما توجس من أن «مصير اليهود العصرى مأساوى بما يفوق التعبير والادراك، مأساوى الى درجة أنهم يضحكون منك عندما تتحدث عنه . وهذه هى أعظم المآسى» .

لا نجد هذا الهاجس عند سبينوزا أو ماركس . ولقد ترنح فرويد عقليا فى شيخوخته تحت ضربة النازية، ولقد صدم تروتسكى عندما استخدم ستالين ضده التعريض المعادى للسامية، فقد استنكر تروتسكى فى شبابه وباوضح العبارات مطلب «الاستقلال الذاتى

الثقافي» اليهودي ، الذي رفعه البوند، الحزب الاشتراكي اليهودي في ١٩٠٢. ولقد فعل ذلك باسم تضامن اليهودي وغير اليهودي في المعسكر الاشتراكي، وبعد ذلك بحوالي ربع قرن، عندما كان طرفا في صراع غير متكافيء مع ستالين ، وذهب الى خلايا الحزب في موسكو ليعرض أراءه ، قوبل باشارات فارغة الى يهوديته بل وباهانات صريحة معادية للسامية. ولقد صدرت الاهانات من اعضاء في الحزب الذي قاده هو ولينين ، في الثورة والحرب الاهلية، وبعد ربع قرن اخر ، وبعد «اوشوينز» و «ماجدانك» و «ويلسن»، لجأ ستالين مرة أخرى، وهذه المرة بصراحة وعداء اشد الى الاهانة والتعريض اللاساميين .

انها حقيقة لا نزاع فيها، أن المذبحة النازية لستة ملايين من اليهود الاوروبيين لم تترك أى أثر عميق على أمم اوروبا. انها لم تصدم ضمائرهم صدمة حقيقية ، بل تكاد تكون قد تركتهم باردين، هل وجد الايمان المتفائل بالانسانية الذى عبر عنه الثوريون اليهود العظام مايبرره إذن ؟ هل ما زال بوسعنا ان نشاطرهم ايمانهم بمستقبل الحضارة ؟

اعترف انه إذا ما حاول المرء أن يجيب عن تلك الاسئلة من وجهة نظر يهودية خالصة، فانه يكون صعبا، وربما مستحيلا، أن يجيب بالايجاب، أما بالنسبة لي، فليس بوسعي أن اتناول الموضوع من وجهة

نظر يهودية خالصة . وجوابى هو : نعم . لقد تحقق ايمانهم، تحقق على أى حال طالما أن الايمان بأن التضامن النهائي للبشرية هو نفسه احد الشروط اللازمة لبقاء البشرية ولتطهير حضارتنا من أدران البربرية التي مازالت موجودة بها، ومازالت تسممها .

لماذا أذن واجهت اوروبا ، أو العالم غير اليهودى كله، مصير اليهود الاوروبيين بموقف هو أقرب الي البرود ؟ لسوء الحظ ، كان ماركس اكثر صوابا ،فيما يتعلق بمكان اليهود من المجتمع الاوروبى ، مما كان بوسعنا ان ندرك حتى وقت قريب. لقد تضمن الجزء الرئيسي من المأساة اليهودية ما يلى : انه كنتيجة لتطور تاريخي طويل، اعتادت جماهير اوروبا ربط اليهود ، بداية بالتجارة والوساطة وإقراض النقود ومراكمتها ، وأصبح اليهودى في العقل الشعبي، مرادفا ورمزا لهذه الاعمال . ولننظر في قاموس اكسفورد الانجليزى ، لنرى كيف يعطينا المعنى المتداول لكلمة «يهودى أولا : هو «شخص من العنصر العبرى» . ثانيا : - وهو الاستخدام الدارج - «المرابى الجشع الشديد المساومة»، ويقول المثل «غنى كاليهودى» ، وتستخدم الكلمة ايضا كفعل ، متعد : يقول لنا قاموس اكسفورد أن «يستهود» معناه «يغش، يخدع» . هذه هى الصورة العامية لليهودى ، والتعصب العامي ضده، وهى صورة ثابتة في كل اللغات ، وليس في الانجليزية وحدها ، وفى كثير من الأعمال الفنية، وليس في «تاجر البندقية» وحدها .

وعلى كل فليست هذه هى الصورة العامية فحسب ، ولنتذكر المناسبة التى توسل فيها ماكولاى ، والطريقة التى توسل بها من أجل المساواة السياسية بين اليهودى وغير اليهودى ، ومن أجل حق اليهودى فى الجلوس فى مجلس العموم. كانت المناسبة هى دخول أحد أبناء عائلة روتشيلد الى المجلس وهو أول يهودى يجلس فى المجلس ، اليهودى الذى انتخب نائبا عن مدينة لندن. ولقد كانت حجة ماكولاى هى مايلى : اذا كنا نسمح لليهودى بأن يدير لنا شئوننا المالية ، فلماذا لا نسمح له بالجلوس بيننا هنا، فى البرلمان ، والمشاركة فى ادارة شئوننا العامة ؟ كان ذلك هو صوت المسيحى البورجوزاى الذى نظر الى شيلوخ نظرة جديدة ورحب به كأخ .

اعتقد أن ما مكن اليهود من البقاء كطائفة منفصلة ، هو كونهم قد مثلوا اقتصاد السوق وسط شعب يعيش فى اقتصاد طبيعى. أن تلك الحقيقة وذكرياتها الشعبية، كانت أيضا مسئولة ، جزئيا على الأقل ، عن الشماتة او اللامبالاه التى شهدت بها جماهير اوروبا مذبحة اليهود. لقد كان من سوء حظ اليهود، أن أمم أوروبا عندما انقلبت ضد الرأسمالية ، فعلت ذلك على نحو سطحى فقط، وهذا صحيح ، على أى حال بالنسبة للنصف الاول من هذا القرن ، فهاجموا ، ليس لب الرأسمالية ، ليس علاقاتها الانتاجية، ليس تنظيمها للملكية والعمل، وإنما أحابيلها الخارجية القديمة. التى كانت حقيقة يهودية فى كثير من

الاحيان . هذا هو صلب المأساة اليهودية ، لقد تجاوزت الرأسمالية البالية عمرها وانحطت بالبشرية معنويا، ودفعنا نحن اليهود ثمن ذلك، وربما كان لم يزل علينا بعد أن ندفع ثمنه .

لقد أدى كل ذلك باليهود الى أن يروا أن دولتهم هي المخرج ، على أن أغلب الثوريين العظام الذين ناقشت تراثهم ، قد رأوا أن الحل النهائي لمشاكل عصورهم وعصرنا، لا يتمثل في الدول القومية، وإنما في المجتمع العالمي . ولقد كانوا، كيهود ، هم الرواد الطبيعيون لهذه الفكرة، لأنه من أكثر جدارة بالتبشير بالمجتمع الدولي والبشر المتساويين، من اليهود المتحررين من كل من الارثوذكسية والقومية ، اليهودية وغير اليهودية ؟

وعلى كل حال ، فان تدهور البورجوزاية الاوروبية قد أجبر اليهود على الايمان بالدولة القومية. وهذه هي *التكملة المتناقضة للمأساة* اليهودية، لأننا نعيش في عصر تتجه فيه الدولة القومية بسرعة الى أن تصبح مفارقة، وشيئا باليا. ليس فقط دولة اسرائيل القومية، وإنما الدولة القومية في روسيا والولايات المتحدة وبريطانيا العظمى وفرنسا والمانيا وغيرها. لأنها جميعا مفارقات، ألا ترون ذلك بعد ؟ أليس واضحا انه في العصر الذي تختصر فيه الطاقة الذرية يوميا حجم الكرة الارضية ، وينطلق فيه الانسان في رحلته بين الكواكب، وتطير فيه

سفينة الفضـاء فوق دولة قومية عظيمة في دقيقة او فى بضع ثوان، أنه في مثل هذا العصر تحول التكنولوجيا الدولة القومية الى سخف فات أوانه، مثلما كانت امارات العصور الوسطى الصغيرة في زمن الآلة البخارية؟

وحتى تلك الدول القوميـة التي خرجت الى الوجود نتيجة للنضال التقدمى الذى شنته شعوب المستعمرات واشباه المستعمرات من أجل التحرر - الهند ، بورما ، غانا، الجزائر، وغيرها - لا تستطيع المحافظة على طبيعتها التقدمية لوقت طويل، فالدولة القومية تمثل مرحلة ضرورية فى تاريخ بعض الشعوب ، لكنها مرحلة سيكون على هذه الشعوب أيضا أن تتجاوزها لكى تجد آفاقا أوسع لوجودها. إن أى دولة قومية فى عصرنا ، فور تكونها ، تبدأ فى التأثر بالتدهور العام لهذا النمط من المؤسسة السياسية. ولقد ظهر هذا نفسه بالفعل فى تجربة الهند وغانا واسرائيل .

لقد اجبـر العالم اليهودى على أن يعتنق الدولة القوميـة، ويجعل منها فخره وآمله فى عصـر أصبحت فيه وليس فيها من الامـل إلا القليل ، وربما لا شيء. لا يمكنكم أن تلوموا اليهود على ذلك، عليكم أن تلوموا العالم. لكن على اليهود على الاقل - أن يدركوا التناقض ويدركوا أن حماسهم المشبوب «للسيادة القومية» متخلف تاريخيا . فهم لم

يستفيدوا من مزايا الدولة القومية فى العصور التى كانت فيها مجالا لتقدم البشرية ، وعنصرا ثوريا وتوحيديا عظيما فى التاريخ . لقد حصلوا عليها بعد أن أصبحت عنصرا للتفرقة والتدهور الاجتماعى .

وعلى ذلك فإننى أمل، أن يدرك اليهود فى النهاية، مع غيرهم من الأمم – أو أن يستعيدوا ادراك – عدم ملاءمة الدولة القومية . وأن يجدوا طريقهم مرة أخرى الى التراث المعنوى والسياسى الذى خلفه لنا اليهود الذين تخطوا اليهودية – رسالة التحرر الانسانى العالمى .

- ٢ -

من هو اليهودي ؟ [1]

إن مجرد أمكان طرح سؤال «من هو اليهودي؟» يمنحني شعورا غريبا بأنني موشك على مناقشة الموضوع الشائع لعدد كبير من الروايات الحديثة من كافكا إلى نيجل دنيس : موضوع هويات ضائعة، هويات بعضها لا يمكن العثور عليه .

فعندما يرفض كثير من المثقفين طقوس ومحرمات وأوامر ونواهي أي ديانة، كيف يتوقع الانسان من مثقف يهودي أن يربط نفسه بالتقليد الارثوذكسي اليهودي الممات؟

---

١ - «من هو اليهودي ؟»، «ما هو مكان المثقف اليهودي في المجتمع الحديث، وأي دور عليه أن يؤديه؟» . كان هذان السؤالان في قلب حوار دائر في الدوائر اليهودية في منتصف الستينيات، واتخذت مساهمة اسحق دويتشر في هذا الحوار، شكل حديث أدلى به إلى الـ «جويش كوارترلي» (لندن، ١٩٦٦)، وضع فيه موضع التساؤل الضمني وجود «متحد اجتماعي يهودي» بالمعنى الايجابي، كما شارك في مناقشة نظمها القسم البريطاني من المؤتمر اليهودي العالمي في نوفمبر ١٩٦٣. وهذه المقالة خلاصة مركزة للحديث ولقسطه في المناقشة .

منذ حوالي ثلاثين سنة كنت اعتبر سؤال «ما الذي يكون هوية اليهودي والمثقف اليهودي؟» سؤالا عديم المعنى بالمرة. وأنا أعتقد ذلك جزئيا الآن أيضاً. لا يكفي أن نسأل عن هوية مثقف يهودي مجرد، ولا من المفيد أن نتحدث عنه كأنه احدى تجليات الذات العظمى - بحروف مكبرة - الموجودة في نوع من فراغ ابدية يهودية. هوية المثقف اليهودي. نعم، لكن في أي عالم، في أي محيط ، في أي نوع من العلاقة مع مشاكل عصرنا؟ أنني أحس أنه إذا كان لابد من طرح السؤال على الاطلاق، فهكذا يجب أن يطرح.

أنه لأمر غير حقيقي وعبث أن يشغل الانسان نفسه حصرا بالمثقف اليهودي الذى يحاول تعريف نفسه دونما كثير إشارة إلى العالم الخارجي، وإلى العداوات التى تقسمه والتى تفرق بين البشر، فإذا كنا مهتمين أيضا بمكان اليهودى فى المجتمع ، فيجب أن نعرف على الفور، فى أى يهودى وفى أى مجتمع نفكر؟ اليهودي فى المجتمع الامريكى أم السوفييتى؟ في بريطانيا؟ فى فرنسا؟ فى ألمانيا أم في إسرائيل؟ ففى كل من هذه المجتمعات يختلف وضع اليهودى، ما هو المقياس المشترك بين اتجاهات وأدوار ووظائف اليهودى فى مثل هذه الظروف المتباينة؟

إن من الأمور ذات المغزى الكبير، والمميزة لعصرنا، أنه الآن أكثر من أي وقت مضى، يشعر اليهودي بضرورة محاولة تحديد وضعه فى مواجهة محيطه غير اليهودي. أنه يعرف أن دوره مختلف نوعيا عن دور

- لنقل - المثقف الايرلندى فى الولايات المتحدة. هل حدث أن بحث الرئيس كنيدى فى هويته كمثقف ايرلندى؟ اضف إلى ذلك أن اليهودى يعي دائما، ويعى بألم.أن هناك فارقا شاسعا بين وضعه وبين وضع الايرلندى فى أمريكا. أنه على نحو ما يشعر أنه فى الدولة الديمقراطية العظمي، هو الزنجي «الآخر» : زنجى أبيض البشرة، وأنه كثيرا ما يتكيء بظهره إلى الزنجي الأسود. ففي الولايات الجنوبية من الشائع أن يكون اليهودى أكثر معتنقى فكرة تفوق الرجل الأبيض تعصبا، وكم يصعب فى ظل هذا الخليط الكثيف المتشابك من المشاعر والمخاوف والتحيزات والصلف العنصرى أن تجد هوية أحد، وكم يصبح شبه مستحيل أن تكتشف فهما مقنعا لكل تعقيدات الموقف.

أعتقد، أنه منذ ثلاثين أو خمسة وثلاثين سنة، لم يكن المثقف اليهودى يشعر بالحاجة إلى تحديد دوره وهويته، وإذا أخذنا حالتى الخاصة، لم أكن لاناقش مثل هذا الموضوع، وليس ذلك لافتقارى إلى الجذور فى التراث اليهودى، فعلى العكس، تربيت فى محيط يهودى، فى مدرسة تلمودية، كنت أطلق سوالفي وأرتدى الزى اليهودى الطويل، حتى بلغت السابعة عشرة . ولقد تمردت على الارثوذكسية الدينية اليهودية فى وقت مبكر، لكننى انجذبت إلى عناصر الثقافة الييدشية العلمانية التي عبرت عن نفسها فى الأدب وفى المسرح، ولقد كتبت أنا شخصيا بالييدش، وخاطبت بالييدش اجتماعات عمالية كبيرة - ولم تكن دائما

اجتماعات سياسية. ومازلت أرى أمامي جماهير الشباب والشيوخ من العمال والحرفيين والمعوزين، الذين كانوا يتجمعون في الامسيات للاستماع إلى قراءات في الشعر والمسرح. وكانوا كثيرا ما يحضرون بملابس العمل ليحيوا «بيرتز ماركش» أو «أتزيك مانجر» وهما يقرأن الشعر ، أو «جوزيف أو بانوشو» أو «ج.ن. وسنبرج» وهما يقرأن النثر، أو هـ. د. نومبرج يروى ذكريات عن كتاب الييدش السابقين، ولم يحدث في العالم ، لم يحدث في أرقى بقاع العالم المتحضر، ربما فيما عدا موسكو اليوم ، أن كان الناس يستمتعون بالاستماع إلى كتابهم وشعرائهم مثل اليهود من عمال وارسو وعمال الاقاليم البولندية - الليتوانية، فهناك كان شيء من قبيل وعى ثقافي يهودى جديد يتكون، وكان ذلك يحدث خلال فراق حاد مع الوعى الديني.

ومنذ ذلك الوقت ، قضيت أجمل سنوات حياتي، سنوات النشاط السياسي، بين عمال يهود. كنت أكتب بالبولندية وبالييدش. وكنت أحس أن هويتي قد اتحدت بالحركة العمالية في شرق أوروبا عموما، وفي بولندا على الخصوص. وكماركسيين، حاولنا نظريا أن ننكر على الحركة العمالية اليهودية هويتها الخاصة، لكن كانت لها هذه الهوية الخاصة رغم ذلك. وكان واضحا تماما أنه في الحركة العمالية اليهودية وجد المثقف دوره ، ولم يكن عليه أن يعاني عبء تحديده . وبين صفوف الطبقة العاملة اليهودية في شرق أوروبا أزدهر الادب الييدشي. ولقد

كتب على هذه اللغة الجياشة الزاخرة، التى كانت تغنى وتجدد نفسها باستمرار، أن تصبح بين يوم وليلة، لغة ميتة، ولقد كان الكُتّاب اليهود مربوطين بتلك الحركة العمالية التي رأينها تغرق في العدم ، كأنها أطلانتيك أخرى.

أننا نعرف إلى أى حد كانت بعض أوساط اليهود في الغرب منفرة، تلك الاوساط التي لم يكن لديها شيء سوى قليل من المحرمات وكثير من النقود . أما بالنسبة لنا ، في الوسط الذى عرفته ، كان الأمر على العكس، لا نقود ولا محرمات، إنما كثير من الآمال والافكار والمثل، كنا نكن احتقارا كاملا ليهود الغرب، كان رفاقنا مصنوعين من طينة أخرى.

فى أواخر الثلاثينات ، أتيحت لي فرصة العمل فى علاقة وثيقة مع رجل أكبر منى بحوالى عشرين سنة. ولد فى فقر مدقع، وظل أميا حتى بلغ السابعة عشرة. وعندما عرفته كان واحدا من أكثر من قابلت فى أى بلد من المثقفين العمال تعليما. أين تعلم القراءة، لم أعرف أبدا ، لكنه فى زنزانات سجون روسيا القيصرية وبولندا بيلوسودسكى، وفى الدورات التعليمية اللينينية في موسكو وحلقات المناقشة فى الحلقات الثورية السرية استوعب بشغف وشره كل ما قدمه الادب العالمى، والمؤلفات الاشتراكية العالمية .

ولقد كان فتات المعرفة بالنسبة لذلك الطفل الذى عاش أكثر أشكال الفقر اليهودى مدعاة للفزع ، أثمن بكثير من لقمة الخبز، ولقد كانت الثورة الروسية الأولى فى ١٩٠٥، التماعة برق اضاءت الآفاق، وعلى نورها، في السجن وخارجه، قرأ أعمال ماركس وانجلز وكارتسكي، وقرأ روايات تولستوى وأشعار ميكيوتش ومسرحيات بيرتز. ويقول عن نفسه في مذكراته «ولولا الثورة لغرقت فى مستنقع الاجرام السرى فى شارع سموتشا» . لكنه ترك شارع سموتشا بعيدا وراءه، بمومساته ومواخيره، بنشاليه ولصوصه، بانحطاطه المعنوى والمادى، حقا ، لقد صعد من وادى الدموع في طفولته، إلى قمة العصر الروحية. كان عليه أن يعرف من أجل ماذا يناضل، ولقد عرف . لم يكن له مكان فى المجتمع الذى ولد فيه، فأوقف حياته على تغييره. فى حى مورانوف فى وارسو، كان فى طليعة العمال اليهود ، حيث كانوا جميعا يحملون هوياتهم مطبوعة على وجوههم ، فى عيونهم وفى أيديهم التى أبلاها العمل. أما نحن المثقفين اليهود، الذين كنا مشغولين بمصيرهم وبتطورهم وتعليمهم وبآمالهم وتطلعاتهم، فقد كانت لنا أيضا هويتنا المحددة جيدا، دون أن نبحث عنها.

أما يهود الغرب، البورجوازيون الحاكمون الاثرياء، فقد كانوا يحملون أساطيرهم وحكاياهم كشيء يدعم أحساسهم بالاحترام والكرامة. كان عليهم أن يقلدوا غير اليهود الذين يحملون كتاب صلواتهم

كل أحد إلى الكنيسة. كانت لنا كرامتنا، ولم نكن بحاجة إلى أن نعززها، كنا نعرف التلمود، وقد تربينا في ظل الخاسيدية، وكانت كل مثاليتها لا تزيد بالنسبة لنا عن رماد ذر في عيوننا. تربينا في ذلك الماضي اليهودي، فكانت تعيش إلى جوارنا القرون الحادي عشر والثالث عشر والسادس عشر من التاريخ اليهودي. وتحت سقفنا نفسه، كنا نريد أن نهرب من تلك القرون ونعيش في القرن العشرين. ومن خلال كل بريق ولمعان الرومانسيين، من أمثال مارتن بوبر ، أستطعنا أن نرى ونشم غموض ديانتنا ورجعيتها البالية، وما أرتبط بها من طريقة حياة لم تتغير منذ العصور الوسطى. وبالنسبة لشخص له مثل تكويني، كان التطلع الشائع بين يهود الغرب إلى العودة إلى القرن السادس عشر، وهي العودة التي يفترض فيها أن تعينه على استعادة هويته الفكرية اليهودية أو إعادة اكتشافها، كان هذا التطلع يبدو كافكاويا وغير حقيقي .

★ ★ ★

فلننتقل من الذكريات الشخصية إلى مشاكل أكثر عمومية. عندما يطرح المرء مسألة الهوية اليهودية ، يكون قد بدا من التسليم بوجود هوية ايجابية. لكن هل من حقنا أن نصل إلى مثل هذه المسلمة؟ في هذه الفترة من تاريخ العالم، أليس الوعي اليهودي، في أساسه، انعكاسا للضغوط المعادية للسامية؟ اعتقد أنه لو لم تثبت اللاسامية أنها على هذا

القدر من عمق الجذور والتأصل والقوة في الحضارة المسيحية الاوروبية، لما وجد اليهود الآن كمتحد اجتماعي متميز، لكان قد تم تمثلهم تماما.
إن ما كان يبعث اليهودية باستمرار ويمنحها حيوية متجددة تماما هو غير اليهودي المعادى. فمنذ ثلاث مائة سنة لم ير سبينوزا شيئا من المعجزة في كون اليهود قد استمروا في البقاء، رغم تشتتهم وفقدانهم للدولة خلال هذا الزمن الطويل. فهم ، كما يقول سبينوزا: «قد اثاروا كراهية عالمية بعزل أنفسهم كلية عن أية شعوب أخرى» (رسالة في الدين والسياسة، الفصل الثالث)، أنه يرجع إلى حد كبير بقاءهم إلى عداء غير اليهود، ويذكر أنه عندما أجبر ملك أسبانيا اليهود على الاختيار بين قبول ديانة مملكته أو الذهاب إلى المنفى، أعتنق عدد كبير منهم الكاثوليكية الرومانية، وبعد أن فعلوا ذلك منحوا كل المزايا والشرف اللذين يستحقهما المواطنون الآخرون. وسرعان ما ربطوا أنفسهم بالاسبان، وفي مدى بضع سنوات اندمجوا بالسكان المحليين. وحدث العكس في البرتغال. فعندما اجبر مانويل الاول اليهود على أعتناق ديانته، «تحولوا» بالفعل. لكنه ظل لا يعتبرهم جديرين بأي مركز شرف. وهكذا ظلوا يعيشون منفصلين عن المجتمع البرتغالي.

قد يقول المرء أن ما يثير مثل هذه المشاعر السلبية، لابد أن تكون شخصية أو هوية محددة إيجابيا بذاتها. وعلى كل، فمنذ حين من الوقت، ولنقل مع بداية القرن، كانت «الهوية المحددة ايجابيا» لليهود في

دور التحلل. وبعد كل شيء، ظهرت الصهيونية كاعتراض على ذلك التحلل، بينما قبلت الاشتراكية الاوروبية كقاعدة عامة وشجعت استيعاب اليهود كجزء من حركة تقدمية أوسع، استيعابا يفترض أنه نتيجة له سيسفح المجتمع الحديث تراثه التمايزى والقومى.

لقرون عديدة، كان جذر العنصر الايجابى للهوية اليهودية يتمثل فى الدور الذى لعبه اليهودي في المجتمع الأوروبي. ففي عصر الاقطاع وفجر الرأسمالية، كان يمثل الاقتصاد النقدى وأفكاره لدى أناس تتحدد طرائق تفكيرهم بالاقتصاد الطبيعي ، ولم يكن من قبيل الصدفة أن ارتبط اليهودى في العقل المسيحى برمز كـ«شيلوخ» أو «فاجين». وهو رمز يظهر في الادب العالمي بصور وتنويعات متعددة. لم يكن خبث «مشوماد» هو الذى جعل ماركس يقول أن إله اليهودى الحقيقي هو النقود. فهو لم يقصد بذلك اليهود من الزاوية الاخلاقية. وأنما كان قصده تقرير حقيقة وظيفة اليهود المتميزة في المجتمع المسيحى. واستطرد ليقول أن المجتمع المسيحى، كلما أغرق فى الرأسمالية ، أغرق في «التهود» . وكان مقتنعا تماما بأنه عندما ينتقل المجتمع الأوروبى من الرأسمالية إلي الاشتراكية، سيكف كل من المسيحيين واليهود عن أن يكونوا «يهودا» أو ، فيما يتعلق بهذا الموضوع ، مسيحيين . وفي حياة ماركس، في عصر التمثل. كانت الهوية اليهودية في الحقيقة في دور الاختفاء، في غرب أوروبا على الأقل.

وفى رأيى ، أن أحداث العهد النازى المأساوية ، لا تبطل التحليل الماركسى الكلاسيكى للمسألة اليهودية ، ولا تدعو إلى إعادة النظر فيه. فلا حاجة إلى القول بأن الماركسية الكلاسيكية تضع فى حسابها شيئا مثل «الحل النهائى» النازى، أو التعقيدات الخطيرة المشكلة فى العهد الستالينى والعهد التالى لستالين فى الاتحاد السوفييتى. فالماركسية الكلاسيكية، قدرت تطورا أكثر صحية وطبيعية لحضارتنا عموما، أى قدرت تحولا من المجتمع الرأسمالى إلى المجتمع الاشتراكى يقع فى الوقت المناسب، ولم تحسب حسابا لتشبث الرأسمالية بالبقاء وتأثيراته المدمرة على حضارتنا عموما. ومع ذلك فإن ماركس وانجلز وروزا لوكسمبورج وتروتسكى، قد كرروا القول بأن العالم يواجه الاختيار بين الاشتراكية الاممية أو البربرية، اختيارا لابديل عنه. وربما لم يعرفوا هم أنفسهم ، كم كانوا على صواب، وكم كان الاختيار حقيقيا. وعلى كل، فلم يكن بوسعهم أن يتخيلوا إلى أى هوة من البربرية يستطيع العالم أن يغرق، عندما يفشل فى اعتناق الاشتراكية.

لم تكن النازية شيئا سوى دفاع النظام القديم عن نفسه ضد الشيوعية، ولقد كان النازيون أنفسهم يشعرون أن هذا هو محتوى دورهم. ولقد رأهم المجتمع الالمانى كله فى هذا الدور، ولقد دفع يهود أوروبا ثمن بقاء الرأسمالية، ثمن نجاح الرأسمالية فى الدفاع عن نفسها ضد ثورة اشتراكية. وهذه الحقيقة، على وجه التأكيد ، لاتدعو

إلى إعادة النظر في التحليل الماركسي الكلاسيكي، أنها بالاحرى تؤكده، فالطبيب الذي يواجه سرطانا مستشريا على نحو خاص، لا يشعر بالتأكيد بالحاجة أو التبرير لإعادة النظر في علم الطب. إن مصير اليهود لا يضعف أية قناعة ماركسية ، على العكس إنه يدعم الماركسية كنظرة عالمية تعانق العالم ككل.

إن الماركسية ، كمنهج وكنظرة مادية للتاريخ، تساعد على تحليل القوى التي تشكل المجتمع وتكونه ، ولقد ساور من استخدموا هذا المنهج، هاجس بالوحشية التي تهدد بتطويق أوروبا (وفي حالة تروتسكي كان ذلك الهاجس رؤيا غير عادية) ، لكن الرعب والانحطاط الكامل، الشخصية المرضية للنظرية والتطبيق النازيين، فاقا الخيال البشري الطبيعي السوي.

إنها حقيقة مأساوية ومروعة، أن أعظم من «أعاد تحديد» الهوية اليهودية، كان هو هتلر، وليس هذا سوى نصر من انتصاراته الصغيرة التي تحققت بعد موته، لقد كان معتقل الموت في أوشفتز المهد الرهيب للوعي اليهودي الجديد وللأمة اليهودية الجديدة. ونحن الذين رفضنا التراث الديني، ننتمي الآن إلى الجماعة السلبية التي تضم هؤلاء الذين فرزوا للاضطهاد والافناء مرات كثيرة في التاريخ، بعضها قريب ومأساوي . أما من كانوا يؤكدون على اليهودية وعلى استمرارها، فمن الغريب والمرير أن يفكروا أن أبادة ستة ملايين من اليهود، قد منح

اليهودية هذه الفرصة الجديدة للحياة. وأننى لافضل لو أن الستة ملايين رجل وامرأة وطفل بقوا على قيد الحياة وفنيت اليهودية. لقد بعثت عنقاء اليهودية من رماد ستة ملايين من اليهود. فيا له من بعث !

والآن، تصرخ هذه الهوية الجديدة، التى أنبعثت انبعاثا مأساويا، لكى تحدد نفسها، لكى تجد لها موقعا فى الحقيقة الواقعة التى مزقها الماضى. وسكيون هذا الجهد البائس جهدا بغير طائل، إذا تم من وجهة نظر يهودية خالصة. فمن ذا الذى ينطلق «بحثا عن هويته اليهودية»، أهو سير أسحق وولفسون أم منديس فرانس؟ بن جوريون أم لازار كاجانوفيتش؟ كبير حاخامات بريطانيا أم أنا ؟

ولا تحدث عن نفسى مرة أخرى: بالنسبة لى، ما زالت الجماعة اليهودية جماعة سلبية، ليس غير. ليس هناك شىء مشترك بينى وبين يهود ما، فلنقل: مى شاريم «المئة بوابة»، أو أى نوع من القوميين الاسرائيليين. أننى أميل إلى الماركسيين اليساريين فى إسرائيل، لكننى أحس بنفس الدرجة من القربى إلى أصحاب نفس العقلية، مثلا فى فرنسا وإيطاليا وبريطانيا واليابان، أو إلى تلك الجماهير من الامريكيين الذين حاضرتهم في واشنطن وسان فرانسيسكو، فى اجتماعات واسعة للاحتجاج ضد الحرب فى فيتنام. هل نحن مطالبون الآن بقبول فكرة أن الروابط العنصرية أو «روابط الدم» هى التى تقيم الجماعة اليهودية؟ إلا يكون ذلك انتصارا آخر لهتلر وفلسفته المنحطة؟

إذا لم يكن العنصر هو الذى يشكل اليهودى، فما الذى يشكله ويكونه ؟

الديانة ؟ أنا ملحد ، القومية اليهودية؟ أنا أممى. لست أذن يهوديا بأى المعنيين. ومع ذلك فأنا يهودى بمعنى ما، بقوة تضامنى غير المشروط مع المضطهدين والمعرضين للابادة. أنا يهودى لانى أحس أن المأساة اليهودية هى مأساتى أنا، لانى أحس نبض التاريخ اليهودى، لانى أحب أن أفعل كل ما أستطيع لاضمن الامن واحترام الذات، الحقيقيين ، لا الزائفين ، لليهود.

إن تباين الخلفية، وظروف الوجود، والنظرة العالمية، النظرة إلى العالم ككل، ذلك الذى يميز ويفصل مثلا بين سير إسحق وولفسون وكبير حاخامات بريطانيا، وبينى أنا وصديقى من حى موراتوف فى وارسو (الذى رسمت صورته عن قصد)، يبرز عدم انسجام الطرح اليهودى الخالص للمسألة التى تشغلنا. إن تحديد اليهودى محير جدا، بالذات لأن الشتات (الدياسبورا) عرض اليهود لعدد كبير من الضغوط والمؤثرات المتباينة، كما أن التباين مماثل فى الوسائل التى اتخذوها للدفاع عن أنفسهم ضد العداء والاضطهاد. وأن أنشغالى بالمسائل اليهودية، فى بولندا ما قبل الحرب ، يعتبر بلا شك تخريبا وهرطقة وسلوكا غير يهودى بالمرة، فى نظر كل كرادلة جميع معابد اليهود فى نيويورك وباريس ولندن.

إن الحديث عن «الجماعة اليهودية» ككيــان شـامل، إذن ، أمـر لا معنى له، وبالنسبة للماركسي، هو كذلك مرتين. إن الماركسي يرى كل المجتمعات أولا من وجهة نظر انقساماتها الطبقية، لكن الطائفة اليهودية لا تضم فـقط طبقـات اجتـماعية متضـاربة وحسب، بل لقد انقسـمت جغرافيا أيضـا ، ففي كل بلد كان اليـهود فيه أقلية، أثر فـيهم التراث الثقافي القومي على نحو مختلف، وطبع منطلقهم الفكرى بطابع مختلف (أن التوتر والعداء بين اليهود الالمان ويهود شرق أوروبا مثلا مازالا قائمين وما زالا موضوعا لعدد لا يحصى من النكات الساخرة حتى الآن في إسرائيل).

في شرق أوروبـا ، كانت الحياة الثقافية البيدشية العلمانية، مرتبطة أرتباطا لا فكاك فيه بالحركة العمالية. تلك الحياة وتلك الحركة لا يمكن أحياؤهما ، وشظاياهمـا في الولايات المتحدة وغيرها ، هي بلا شك في دور الاندثار. وأذكـر أنني منذ حـوالى أربعين سنة، كنت أناقش هذا الموضوع مع موشي نادر، أستاذ البيدش العظيم وأستاذ المفارقة أيضا. في ذلك الوقت كان الناس يناقشون بالفعل فرص بقاء وتطور البيدش في أمريكا ، وكان نـادر ميـالا إلي الشك، قال : «لا أعتقد أن اليـيدش ستبقى، لكني لا أهتم لذلك، إذا ماتت لغتنا ، فاننا نحن الكتاب سنقرأ وندرس كمـا يقرأ ويدرس أسـاتذة أى أدب ميت، الاغريقي أو اللاتيني،

سنصبح من الكلاسيكيات، ستقرأ الاجيال القادمة هجائياتي كما تقرأ وتدرس الآن هوراس أو أوفيد».

ولقد تحققت مفارقة نادر مبكرا، وبطريقة أكثر كآبة مما تخيل، فبالرغم من لامبالاته الواضحة أو المصطنعة بمصير لغته، فلابد أن نادر كان يهمه أن يجد وسيلته كي يشاركه القراء الناطقون بالانجليزية، النكهة الكاملة للشعر والنثر الييدشي، ولينقل إليهم غنى التراث الادبي الييدشي. لكنه كان يدرك أنه بغض النظر عن مدى ما يمكن أن تصل إليه هذه الجهود من ذكاء ورقة ومحبة، فأنها ستحمل في داخلها عناصر البحث الأثري، مثلها مثل عمل يستهدف الاحتفاظ بقطع من عمود بومبي الضخم. صحيح أن آلافا أو عشرات الآلاف من اليهود مازالوا يتكلمون الييدشية، لكنهم أقل من أن يشكلوا قاعدة لنمو أي أدب أو ثقافة حية.

إن بقايا من اليهود مبعثرون في جميع انحاء العالم. كذلك يجد بعض التراث الأصيل تعبيره في لغات أخرى، فاحتل العنصر اليهودي مكانا بارزا في الرواية الامريكية الحديثة. لكن هذا لا يستطيع أن يساهم بأي درجة في بقاء التراث اليهودي الحقيقي. فمنذ وقت طويل، وحتى يومنا هذا، يناقش الكتاب اليهود السؤال التالي: هل هاينه كاتب يهودي؟ هل بورن كذلك؟ هل يجب اعتبارهم يهودا أم مجرد ألمان؟ لا توجد ولا يمكن أن توجد إجابة واضحة قاطعة. ولقد صارع هاينه

حيرته اليهودية طيلة حياته، وكذلك فعل بورن. «بالامس بطل ، أما اليوم فأنت مجرد شرير» . هكذا علق هاينه على تحول بورن إلى المسيحية، لكن الوقت لم يطل به قبل أن يتبع خطاه، ليحصل ، عبر التعميد، على «بطاقة دخول إلى الحضارة الاوروبية» . بعد جيل واحد، بدا أن عبء اليهودية أخف حملا على كتاب ألمان مثل فرانز ورفل، وآرنولد وستيفان زفايج، وسرمان، والكثيرين غيرهم ممن احرزوا شهرة عالمية فيما قبل النازية .

إن عددا قليلا من الكتاب اليهود البولنديين، هم الذين كانوا ينتمون إلى أصل بولندى مثل جوليان توون، وانتونى سلو ينمسكي، أشهر شعراء فترة ما بين الحربين، وتبدو القسمات اليهودية المميزة فى كتاباتهما أحيانا، لكنها تظل على نحو ما عابرة فقط، إلى آن أضفت مذبحة حوارى اليهود على شعرهما بعدا جديدا، وحتى عندئذ لم يحرزا ذلك الوعي الحاد بيهوديتهما، ذلك الوعي الذى نجده عند ايزاك بابل، البلشفي الذى حارب فى الحرب الاهلية وعاش وغرق فى بحر الثورة الروسية.

أما فى روسيا، فان «معزل المستوطنات» جعل أى نمو عضوى روحي مشترك بين اليهود والسلاف مستحيلا، أما فى بولندا فقد عاش اليهود فى معزل (حارة يهود) فعلي قبل ١٩٤٠ . لكن القومية البولندية واللا سامية، والارثوذكسية اليهودية والصهيونية من ناحية أخرى، عملت

كلها ضد أي تعايش مثمر. ويجب أن نتذكر، أن منظرى الصهيونية، لا منظرى الاشتراكية فحسب، قد تحدثوا أيضا عن الطبيعة غير المنتجة للاقتصاد اليهودى فى المنفى (الدياسبورا)، ولقد كان العداء بين العناصر المنتجة والعناصر غير المنتجة في المجتمع أمرا حتميا فى كل الاحوال . وعلى أساس هذا العداء الاجتماعي والاقتصادى المؤكد، نما على مر القرون البنيان الفوقي للغربة الفكرية. وقد كانت الغربة من العمق، إلى حد أنه فى بولندا ، مثلا ، لم توجد أبدا أى نقطة احتكاك بين الادب البولندى والادب البيدشى، أو بدقة أكثر ، فأن الكتاب والاكاديميين ورجال التعليم البولنديين لم يكونوا حتى يعرفون أن وارسو هى مركز أدب بيدشى حديث مزدهر، يقرؤه اليهود ومن يعجبون به (ليس اليهود فحسب) فى جميع انحاء العالم.

فى مطلع القرن، كان الوضع فى روسيا معقدا، فالثقافة الروسية تتمتع بقدرة فائقة على الاستيعاب، أساسا بسبب الطبيعة العالمية للافكار التي أحيتها فى العصر الحديث، أفكار تولستوي وبليخانوف ولينين، ويصعب على أي حال أن نتكلم عن أى تأثير يهودى خاص على على الثقافة الروسية. بل أن اليهود لم يبدأوا الدخول إلى الادب الروسى قبل تسعينيات القرن التاسع عشر، ولم يدخلوه بصفة نهائية إلا مع الثورة التى كانت هى «بطاقة دخولهم» إلى الثقافة التى ابقتهم قرونا على مبعدة منها. فايزاك بابل يكاد يكون بغير اسلاف، أما ليون

تروتسكى، اليهودى الذى كان أعظم أساتذة النثر الروسى فى عصر الثورة، فلم يباشر على أى حال نفوذا بصفته يهوديا، أما الادب البولندى من ميكيوتش إلى اورتسسكوا وكونوبنيكا، فقد دخلته الموضوعات اليهودية قبل ذلك بكثير، وشغلت المشكلة اليهودية الشعراء والروائيين البولنديين قبل أن تستعيد بولندا استقلالها، ومع ذلك فانني أرى أن القسمات اليهودية فى أشعارهم ورواياتهم دخيلة وخفية - بل ربما غير مفهومة بالمرة - لجيل اليهود البولنديين الذين تربوا فى بولندا بعد أن تخلصت من اليهود.

هل يمكن على أى وجه، ألا يبقى أى أثر للوجود اليهودى فى شرق أوروبا؟ بالتأكيد بقيت بعض الآثار، لكن هل سيكون لها، على المدى الطويل، معنى يفوق معنى الآثار التى تركها الهنود الحمر على الحضارة الامريكية اليوم؟ هذا أمر آخر: يصعب جدا على يهود جيلنا أن يستوعبوا أن يصبح وسط وشرق أوروبا خالصين من اليهود، أى استئصال كل العنصر الاجتماعى الذى كان له وزنه الكبير ذات حين.

إن فى إسرائيل اليوم، تحول جديد مفاجىء فى اليهودى وهويته. أن وعى إسرائيل الثقافى عبرى، ومن حيث تكونه يستمد مادة الحياة التاريخية من الكتاب المقدس ومن التلمود، فهو مدعوم بأشباح الماضى، ولم تفرز الـ مى شاريم» (المئة بوابة) أى أدب على الاطلاق، لان أى كتابة علمانية باللغة العبرية هى، بالنسبة لليهودى الارثوذكسى، من قبيل

التجديف، وبغض النظر عن اضطرار الكاتب الحديث الشاب إلى اعلان مروقه عن التراث الدينى واستقلاله عنه، فان عليه أن يحفر فى الماضى ليحيى اللغة التى كانت، مثل اللاتينية، ميتة لحوالى الفى سنة. لقد عاشت في اللاهوت، والآن لا تستطيع أن تحرز العلمانية بسهولة ، فللتقليد منطقه الموضوعى، ولابد أن يكون ذا وزن كبير على الجيل الجديد من كتاب إسرائيل ، أما بالنسبة لى، فلا أستطيع قبول ذلك التحول المفاجىء فى الوعى اليهودى واستيعابه فى هويتى، فقد تكونت من هذه الناحية، وعلى نحو قوى، فى تقليد وتراث أممى أوروبى، بولندى وروسى وألمانى وانجليزى، وفوق كل ذلك ماركسى. أن العبرية تنتمى إلى طفولتى ومراهقتى المبكرة، ولما كنت قد تخليت عنها ورفضتها آنذاك، فلا أستطيع العودة إليها الآن .

★★★

كماركسى غير نادم وكملحد وكأممى ، بأى معنى أنا يهودى إذن ؟ ما الذى يقربنى من هذه «الجماعة السلبية» ؟ .

إنها لمفارقة ، إن أجد نفسى ، على غير توقع ، قريبا من مخاوف اليهودى الارثوذكسى والصهيونى . اننى لا أعتقد أن الصهيونية قد انتهت كقوة ، اخشى أن نكون فى دولة الرفاهية الغربية ، نعيش فى فردوس مغفلين . كما أن الاحساس الواثق بالتحرر من اللاسامية قد يكون وهما آخر ، وهما يهوديا خاصا ، ولده مجتمعنا الغنى .

عندما واجه تروتسكي ظاهرة النازية ، وصفها بأنها «الرفض الجماعي للفكر السياسي الأممي» الذى دخل فى تشكيل «الخزانة الفكرية للمسيحية الالمانية الجديدة» ، والتى أثارت وعبأت كل قوى البربرية ، المترصدة تحت غلاف رقيق من المجتمع الطبقي «المتحضر» . وفي عبارة خالدة تعيش مع هواجس غرف الغاز ، استجمع تروتسكى خلاصة النازية : «كل ما كان المجتمع سيلفظه ، لو انه تطور تطورا طبيعيا (أي : نحو الاشتراكية) ، كبراز للثقافة ، يندفع الان من حلقه إن الحضارة الرأسمالية تتقيأ ما لم تهضمه من البربرية ....» . لست أعتقد أن مجتمعنا البورجوازى فى الغرب (ولسوء الحظ ينطبق ذلك على مجتمع ما بعد الرأسمالية في روسيا) قد استطاع أن يهضم ويطرد من جهازه بربرية العصور التى كان هتلر يمثلها ، ولقد سمعت اناسا يعيدون كيف أنه عندما بدأت مرحلة العقلانية ، اعتنق اليهود التسامح العالمى ، وراحوا يقولون لبعضهم البعض : «فلنكف عن الاهتمام بالتلمود والتوراة ، ولنرقص جميعا حول ألهة العقل» . ولقد كانت ألهة العقل تلك هى التى سقطت ، لقد كانت ألهة بورجوازية جدا ، ترعى مجتمعا لم يسمح له انشغاله بالنقود (الذى لم يكن انشغالا يهوديا صرفا !) بأن يهضم البربرية . وهو مجتمع كلما احتد احساسه بعدم الأمن ، لسع بسياطه العنصرية والقومية والخوف من الاجانب وكراهية الغريب والخوف منه . ومن ذا أكثر غربة من اليهودى ؟

علينا ألا نتخيل أن بورجوازية ما بعد الحرب ، في قمة رخائها ، وقد عاودت الرقص حول آلهة العقل ، لن تخذلنا هذه المرة ، بل ستسبغ علينا كل فضائلها إلى الأبد ، فحتى في المجتمع الانجليزى المعتدل ، الحر ، المتحضر ، نرى الصلبان المعقوفة تظهر هنا وهناك ، مرسومة على المبانى السكنية فى الاحياء «المحترمة» . ومن تجربتى الخاصة أعرف أنه عندما تبحث عن مسكن فى لندن ، لنقل فى هامستد ، سيقال لك أن الجيران سيعترضون على سكن مستأجر زنجى أو يهودى ، لكنهم بالتأكيد سيرحبون بك أنت كاستثناء . نعم ، تحت الغلاف الناعم تعشش البربرية ، خشنة ، فجة ، مستعدة دائما للانطلاق .

قد نحس أن اللاسامية قوة قد انتهت ، لأن الناس فى دولة الرفاهية تلك قانعون وراضون بصورة عامة ، ويبدو أن متاعبهم الاجتماعية قد تبددت . لكن دع هذا المجتمع يعانى صدمة قاسية ، من النوع الذى يتحتم عليه أن يعانيه ، فليكن هناك مرة أخرى ملايين العاطلين ، وسنرى نفس الطبقة الوسطى الدنيا مرة أخرى مع حثالة البروليتاريا ، حيث جند هتلر اتباعه ، يجرون مسعورين باللاسامية . فطالما تفرض الدولة القومية تفوقها ، وطالما أن ثروة كل أمة فى يد أقلية رأسمالية قومية ، سيكون عندنا تعصب وطنى وعنصرية ، وقمتهما اللاسامية . هذا هو السبب فى أننى اعتقد أن دور المثقفين - اليهود وغير اليهود على السواء - هؤلاء الذين يعون عمق المأساة اليهودية وخطر تجددها ،

هو أن يظلوا معارضين دائما ، وأن يتمسكوا بمعارضة القوى الكامنة ، ان يقفوا بقوة فيه ضد المحرمات والمواضعات ، ان يناضلوا من أجل مجتمع تفقد فيه القومية والعنصرية في النهاية سيطرتهما على العقل البشرى . اننى أعلم أن هذا ليس مخرجا سهلا ، وقد يكون كئيبا ومؤرقا ، ولن تكون لدى من يعتنقونه صيغة محددة من قواعد العمل . لكننا إذا لم نظل معارضين ، سنتحرك في دائرة مفرغة مهلكة ، دائرة انتحارية .

عندما ينظر المرء إلى سجل المثقفين اليهود في الغرب ، يصل إلى نتائج محزنة ومخيبة للآمال . ان الذى يصدمنا فيما يتعلق بالمثقفين اليهود في الغرب ، هو تكيفهم غير العادى ، السياسي والايديولوجي والاجتماعي . ان اليهود من أبرز العاملين في الحرب الباردة المسيطرة على حياتنا لأكثر من ثلاثة عشر سنة . وربما يستثنى من هذه الادانة المشتغلون بالدراسات العلمية . لكننا عندما ننتقل إلى ميادين العلوم الانسانية ، نرى بين جمهرة المؤرخين والسياسيين وعلماء الاجتماع ... إلخ ، عددا كبيرا من اليهود مستغرقين بحماس في هذه الحرب الباردة ، باسم مجتمعنا هذا ، ببربريته التي لم تهضم . وعندما ينظر المرء في فرق المتعصبين قوميا ، التي تعلن أن «أسلوبنا الامريكي في الحياة» أو «أسلوبنا البريطاني في الحياة» هو أحسن ما يمكن من أساليب ، يجد المرء نفسه يتمنى

أن يفرض تحديدا عدديا على قبول اليهود في مهنة التعصب القومي ، التي ترتفع فيها أصواتهم بمثل هذه الاغلبية النسبية . ان من أبعد الأمور بالنسبة لي ، أن يكون رد فعلي نحوهم ، هو أن اتخذ دور «كاسندرا» ، لأنني مازلت واثقا من أن «المعترض الابدي» (وأنا اسمح لنفسي باستخدام تعبير البروفيسور دياشز) سيرى مثله العليا تتحقق وأماله تتجسد . في رأيي أن البحث عن هوية ، يكون له ما يبرره فقط ، إذا كان من شأنه أن يساعد المثقف اليهودي في نضاله من أجل مستقبل أفضل للبشرية جمعاء .

٣ ـ

الثورة الروسية والمسألة اليهودية [1]

إن من يتناول موضوع هذه المحاضرة ، الثورة الروسية والمشكلة اليهودية ، يجب أن يعتصم بالوجل ، لأنه موضوع شديد التعقيد ، متعدد الأوجه ، وليس أسهل ولا أكثر ضررا من تبسيطه ، ومحاولة توزيع اللوم ، لوم اليهود ، أو الثورة ، أوالروس . كما يجب أن نحذر أيضا التفكير فى هذه المشكلة على نفس أسس العلاقة بين روسيا الثورة وغيرها من قوميات الاتحاد السوفييتى . فالمشكلة اليهودية ، فريدة من هذه الناحية ، ولكى نراها بكل تعقيدها يجب أن نعود إلى منبعها يجب أن نحلل بايجاز تغيرات وتحولات الثورة الروسية نفسها ، وأن نتبين أثر تلك التغيرات

---

(١) (نص محاضرة ألقيت على الجمعية اليهودية ، فى اتحاد طلاب مدرسة لندن للاقتصاد السياسى ، فى ٢٩ أكتوبر «تشرين الأول» ١٩٦٤).

على مصير اليهود في الاتحاد السوفييتي . إن السؤال الرئيسي الذي يتعين مواجهته والاجابة عليه بنزاهة ، هو : لماذا لم تنجح الثورة الروسية ، خلال ما يقرب من نصف قرن ، في حل المشكلة اليهودية ؟

لابد أن ابدأ ببيان تباين حاد بين مكان اليهود في المجتمعات الغربية ، ومكانهم في شرق أوروبا ، خصوصا في روسيا ، وبالتحذير من أن النظر إلى المشكلة اليهودية في روسيا من خلال «منظور» حياتهم في غرب أوروبا ، معناه أن تروا المشكلة رؤية مشوهة ، وان تبدأوا بحثا لن يؤدي بكم إلى أي مكان . عليكم ألا تتصوروا للحظة واحدة أن الحياة اليهودية والجماعة اليهودية في شرق أوروبا ، وفي روسيا ، كانت تشبه على أي نحو الطائفة اليهودية في انجلترا أو فرنسا ، أو حتى الولايات المتحدة .

طوال القرن التاسع عشر ، كان اليهود في بلدان غرب أوروبا ينتمون اساسا إلى الطبقة الوسطى . كان هناك قليل من العمال اليهود ، وعدد غير كبير من الحرفيين اليهود ، وبعض أصحاب الحوانيت الصغار ، وكان أغلبية اليهود تجارا يديرون أعمالهم على نطاق واسع في كثير من العواصم الغربية ، وكان بعضهم صيارفة كبارا ، وكاد بيت روتشيلد يصبح رمزا للبورجوازية العليا اليهودية ، فكان الطابع البورجوازي الغالب على الطائفة اليهودية في غرب أوروبا مختلفا بوضوح عن طابع الجماعة اليهودية في شرق أوروبا . صحيح أنه في

الشرق ، كانت لنا أيضا بورجوازيتنا اليهودية ، كان لنا تجارنا ، وأصحاب حوانيتنا ، لكن الاغلبية العظمى من اليهود كانوا كادحين فقراء ، وحرفيين بدائيين ، وعمالا غير مهرة ، وخياطين ونجارين ، ومن كنا نسميهم عموما «عمال المعادن» . لكن لا تخطئوا وتفكروا بمقاييس أقل عمال المعادن الفرنسيين وعمال الصلب الانجليز . إن «عمال المعادن» هؤلاء كما عرفتهم ، كانوا غالبا سمكرية ، وصناع صفائح ، وصناع أقفال ، وكانوا عادة يشكلون نوعا من الجمعيات يسمونه «نقابة عمال المعادن» . كانت دفعة ضخمة لهؤلاء المحلقين ان ينتموا إلى نقابة لها مثل هذا الاسم الضخم ، لكنهم كانوا معلقين على أى حال . تصوروا شعبا من ملايين اليهود والمعوزين الذين ضربهم الفقر ، بينهم جمع ممن يسمون «العايشين من الهوا» Luftmenschen ، هذا هو الشعب الذي لا جذور له في الهيكل الاجتماعي للمجتمع ، بلا أى عمل ، بلا أى مصدر منتظم للرزق ، باعة جوالون ، باعة ملابس قديمة ، ناس يعيشون على العمل كخطأب ، لم يكونوا ينظمون الخطوبات ، بل الزيجات والاعراس ، ويساومون على النسبة المئوية التى ستكون نصيبهم من البائنة .

في غرب أوروبا ، بعد الثورة الفرنسية ، تمتع اليهود بمساواة رسمية في نظر القانون (فى سنة ١٨٤٨ ، انتخب لعضوية مجلس العموم ليونيل روتشيلد ، أول عضو يهودى في البرلمان) ، وقد سارت

هذه المساواة القانونية ، يدا بيد مع الاستيعاب المتنامى للطائفة اليهودية ، لأنه حتى تلك الفئات التى احتفظت بدينها ووعيها اليهودى ، استوعبت من خلال تبنيها لغات البلدان التي عاشت فيها ، واكتسابها للمظهر الخارجي لمواطنيها . أما في شرق أوروبا ، فقد عاشت كتلة ضخمة من اليهود ، ملايين منهم ، فى جماعات متلاحمة محكمة الأواصر ، منفصلة عن محيطها غير اليهودى . لم تكن هذه المعازل اليهودية رسمية ، كان مسموحا لليهود بالخروج منها ، وكانوا بالفعل يخرجون . ومع ذلك ظلوا يعيشون فى جماعات متماسكة ، يرتدون ملابس مميزة ، تكملها اللحى والسوالف ، وكانوا يتحدثون لغتهم الخاصة ، وأنشأوا ثقافتهم الخاصة ، وأدبهم الخاص ، وكانت معرفتهم بالبولندية أو الروسية فى كثير من الاحيان أقل من بدائية ، فقد ظل لسانهم ييدشيا . كما كانت هناك بالطبع أقلية من اليهود المتعلمين الذين أصبحوا مستوعبين أكثر من غيرهم ، وأقل من غيرهم تميزا عن المثقفين من أبناء البلاد ، فى عاداتهم وعوائدهم . لكن طريقة حياة الكتلة العظمي من اليهود الارثوذكس لم تتطور إلا قليلا على مدى قرون، ظلوا يواصلون نوعا من الحرف البدائية ، كالخزف ، كانت تمارس فى القرن السادس عشر أو السابع عشر ، وكانت محرماتهم وطقوسهم الدينية على نفس القدر من القدم والتخلف .

في غرب أوروبا سار انعتاق اليهود جنبا إلى جنب مع استيعاب اليهود . وهو ما لم يحدث في شرق أوروبا ، وفى روسيا خصوصا ، حيث كان اليهود فى وضع «مواطنين من الفئة الثانية أو الثالثة» . لم يكن مسموحا لهم بالاقامة في روسيا بعمومها ، بل فيما سمى بالمقاطعات اليهودية . لم يكن مسموحا لهم بتملك الأرض ، وكانت بعض الاعمال مغلقة في وجوههم . كان وضعهم أفضل بقليل من وضع الاقنان الفلاحين الروس أو البولنديين . لكن الفلاحين على الاقل لم يكونوا معرضين للمذابح والهبّات اللاسامية ، والمذابح الجماعية ، التي كانت تلقائية ، وفى كثير من الأحيان بتشجيع من السلطات . ومن الحقائق ذات المغزى أن كلمة Pogrom التي تعنى مذبحة منظمة ، أصلها روسي ، رغم أنها الآن قد دخلت إلى اللغات الأوروبية . وقبل الثورة الروسية بخمس سنوات فقط ، كانت قد وقعت محاكمة بايليس الشهيرة في كييف ، والتي لخصت وضع اليهود في ظل القيصر ، ففى هذه المحاكمة – التي سميت محاكمة جريمة القتل الطقوسية – اتهم يهودى – هو بايليس – بقتل طفل غير يهودي ، لكي يستخدم دمه لاعداد الفطير في عيد الفصح ، وكان «المئات السود» (جمعيات الرجعيين المتطرفين العتاه أو أظلم الارثوذكس اليونانيين الذين يتمتعون بدعم القيصرية) في حالة هياج . هنا ، أمامكم ، التباين غير العادى بين وجود اليهود غير الآمن في روسيا ، وبين الحياة اليهودية فى الغرب .

قد تقولون أنه في الغرب أيضا كانت عندنا انفجارات لاسامية - قضية دريفوس - لكن هذا كان على مستوى مختلف تماما من التطور الاجتماعي والسياسي . وعلى كل فلا شك أن قضية دريفوس تقف شاهدا على نقطة تحول في تاريخ اليهود في غرب أوروبا ، إذ أن الحركة التقدمية للتحرير لم تبدأ في معاناة الردة الكاسحة إلا قرب نهاية القرن التاسع عشر ، حيث اللاسامية تظهر وتنمو، وتصل في النهاية إلى الحجم المروع الذى وصلت إليه في العهد النازى . لقد حمل القرن التالي للثورة الفرنسية ، التنوير والتقدم ، ومعهما استيعاب اليهود في محيطهم . أما في شرق أوروبا ، فكان قرنا من اضطهاد اليهود وعزلهم .

كان ذلك هو وضع اليهود عندما بدأت الحركة الاشتراكية الديمقراطية ، في العقد الأخير من القرن التاسع عشر والعقد الأول من القرن العشرين ، تنتشر وتكتسب طابعها الجماهيرى . وكثيرا ما يقال الآن ، أن الموقف من اليهود كما نراه في روسيا الآن ، يتفق مع ما أعده أصلا لينين والبلاشفة ، ومن الشائع ، خصوصا بين اليهود ، أن يلقي اللوم في كل ما حل بأبناء دينهم في روسيا من مساوىء على البلشفية والشيوعية ، ومع ذلك فعندما نعود إلى المصادر الأصلية، عندما ندقق في الوثائق ، نجد أنه حتي يوم الثورة ، كان البلاشفة والمناشفة ، بل والاشتراكيون الثوريون ، أى جميع تيارات الاشتراكية

الروسية على الاطلاق ، متفقين على تناولهم للمشكلة اليهودية . هنا كان البلشفي الروسي لينين والمنشفي اليهودي مارتوف واليهودي تروتسكي من فكر واحد . لقد تلقوا أفكارهم عن اليهود من الماركسيين الغربيين ، وعن ماركس وانجلز على وجه الخصوص . وفي مقالة شهيرة لماركس عن المشكلة اليهودية ، كتبها في اربعينيات القرن التاسع عشر ، قال أن مسألة تحرر اليهود لم تعد قائمة كمسألة مستقلة . فكل الجهود يجب أن توجه نحو تحرير المجتمع الأوروبي ، خصوصا المجتمع الغربي ، من الرأسمالية . وما أن يلقى نير الاضطهاد الرأسمالي ، حتى يحصل كل أفراد المجتمع ، بما فيهم اليهود ، على المساواة والحرية .

في الكتابات الماركسية المبكرة حول هذا الموضوع ، كان ثمة عداء خفي معين ضد اليهود ، ليس كيهود ، وانما كقطاع بارز وظاهر من بورجوازية غرب أوروبا . وكان آل روتشيلد يمثلون السلطة والسيطرة المالية للبورجوازية المالية بين الطبقات الوسطى الفرنسية والبريطانية والالمانية . ومن الناحية الأخرى ، كان هناك القادة الاشتراكيون البارزون ذوو الأصل اليهودي مثل ماركس ولاسال . لكن مرة أخرى ، قرب نهاية القرن التاسع عشر ، عندما بدأت اللاسامية تنمو حتى في المجتمع الغربي ، أصبحت الحركة الاشتراكية كلها مشغولة بالمشكلة اليهودية . وفي ذلك الحين كتب أوغيست بيبل ، قائد الاشتراكية الديمقراطية الالمانية العظيم ، كتابه الشهير عن اللاسامية ، حيث

سماها «اشتراكية المغفلين» . ولقد كانت هذه التسمية شيئا أكبر من مفارقة براقة أو فكرة ذكية لبقة . فالحقيقة أن الدور التآمرى الذى لعبه اليهود بين المصرفيين والتجار ، قد أثار بالفعل العداء ضد اليهود بين الطبقات الأفقر فى المجتمع الأوروبى . وحاول بيبل وغيره من الاشتراكيين ، ومن بينهم كاوتسكى ، آن يشرحوا للعمال أن عليهم أن يوجهوا نضالهم ليس فقط ضد البورجوازية اليهودية ، التى لم تكن سوى جزء صغير من طبقة الرأسماليين ، انما ضد البورجوازية ككل . كانت هذه هي الاشتراكية الحقيقية ، والذين يحاولون تغيير النظام الاجتماعى ، ضد بعض أعضاء الطبقة المسيطرة من اليهود ، ليسوا سوى مغفلين . وعندما نتأمل الاحداث نستطيع أن نرى مدى بعد نظر بيبل ورفاقه ، عندما بينوا أن رأسماليي غرب أوروبا ، على استعداد للتضحية بأخوتهم اليهود ككباش فداء ، بل كانوا مستعدين لاثارة العمال وحثالة البروليتاريا ، وصغار أصحاب الحوانيت ضد البورجوازية اليهودية ، لينقذوا حياتهم وممتلكاتهم . فهذه هي أرخص الطرق لكى يحولوا عنهم كراهية الجماهير المضطهدة .

فى غرب أوروبا لم يكن ثمة عمال يهود ، أو بالاحرى كانوا قليلين جدا . وبالتالى فلم تكن هناك حركة طبقة عاملة يهودية . وتمسك القادة الاشتراكيون بوجهة النظر القائلة بأن الرد الوحيد على المسألة اليهودية هو الاستيعاب الكلى . وفى ذلك الحين كان لينين ، وكذلك رفاقه ، يعلنون

أنفسهم بفخر تلاميذ للاشتراكية الديمقراطية الالمانية . ولذلك فقد اعتقدوا هم أيضا أن المشكلة فى روسيا أيضا تحل بالاستيعاب ، بامتصاص الطوائف اليهودية كليا فى المجتمع الاشتراكى الكبير . ومع ذلك ، فسرعان ما رأوا أن المشكلة فى الشرق أصعب منها فى الغرب . وبالتحديد لأن المعوزين والعمال اليهود والقطاعات الدنيا من الطبقة الوسطى منهم يعيشون فى مناطق معزولة ، فى احياء يهودية محكمة الأواصر ، يزرعون وينمون نمطهم الخاص من الحياة . ومع ذلك فقد كان لينين ومارتوف ، البلشفى والمنشفى ، مصممين تماما على جذب العمال اليهود إلى نضال رفاقهم الروس ضد القيصرية وضد النظام القديم الذى كان حاكما فى شرق أوروبا ، وكانت روزا لوكسمبرج ، تلك المرأة الثورية العظيمة ، ذات الأصل اليهودى ، تتبنى نفس الرأى ، بل كانت أكثر من لينين ومارتوف تمسكا باستيعاب اليهود .

فى هذه الفترة بدأت الصهيونية أيضا تنمو كحركة سياسية ، تجتذب مؤيديها اساسا من الجماعات اليهودية فى البلدان الغربية . ويجب أن نعرف أن الاغلبية العظمى من يهود شرق أوروبا ، كانوا حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية معارضين للصهيونية . وهذه حقيقة يندر أن يعيها اغلب اليهود غير اليهود فى الغرب . لقد كان الصهاينة فى هذا الجزء من العالم ، أقلية ذات وزن ، لكنهم لم ينجحوا ابدا فى جذب أغلبية من ابناء دينهم ، وكان أكثر اعداء

الصهيونية تعصبا هم بالتحديد العمال بالذات . هؤلاء الذين كانوا يتحدثون اليدش ، هؤلاء الذين كانوا يعتبرون انفسهم يهودا ، كانوا أشد المعارضين لفكرة الهجرة من شرق أوروبا إلى فلسطين . ففي بولندا ، في ١٩٣٩ ، كان السكان اليهود ينتخبون لآخر مرة رؤساء طوائفهم . واعتبر الشيوعيون ، الذين كانوا ذوى نفوذ قوى آنذاك ، أن الطوائف مؤسسات كنيسية ، فقاطعوا الانتخابات ، بينما شارك فيها البوند (حزب العمال اليهود) ، ذو الميول شديدة العداء للصهيونية ، وكسب الاغلبية العظمى من الأصوات (لم يحاول أن يجمع بين الاشتراكية والصهيونية سوى قطاع صغير نسبيا من الحركة الاشتراكية هو «احباء صهيون») وكثيرا جدا ما يسوى الرأى العام اليهودى في الغرب بين العداء للسامية والعداء للصهيونية . وحسب هذا الرأى ، كان يهود شرق أوروبا ، في اغلبيتهم العظمى ، مجرد «أعداء للسامية» . لكن هذه النتيجة ، بالطبع ، عبث باطل .

كانت المعارضة اليهودية للصهيونية مأساة ، فقد فشلت وانتهت إلى هلاك اليهود . لقد رأى اعداء الصهيونية في فكرة الرحيل ، في الهجرة من بلادهم التي عاش فيها اسلافهم منذ قرون ، تخليا عن حقوقهم ، واستسلاما للضغوط المعادية وتسليما للاسامية ، وبدا لهم ، أن اللاسامية تحقق انتصارها في الصهيونية ، التي اعترفت بصحة

وسلامة الصيحة القديمة : «ايها اليهود ، اخرجوا !» . كان الصهاينة يوافقون على أن «يخرجوا» .

ساد بين يهود شرق أوروبا الشعور بأنه ليس غير الثورة للاطاحة بالقيصرية ، طريقا إلى الخلاص من التفرقة والاضطهاد اللذين كانوا يتعرضون لهما ، فلعب اليهود دورا بارزا فى الحركة الثورية .

لكن عندما جاءت الثورة فعلا ، كان للتحول الفجائى فى المجتمع ، أثره الاليم والمفتت على جزء غير قليل من السكان اليهود ،. إذ أنه لما كان كثير من اليهود فى روسيا من صغار أصحاب الحوانيت والحرفيين والمضاربين و«العايشين من الهوا» فقد حاولت الثورة بالضرورة أن تعيد صياغة هيكل حياتهم بأكمله . ان ما حاولت الثورة تحقيقه هو ما سمى جعل اليهود منتجين ، تحويلهم إلى عمال مصانع ، إلى مزارعين ، إلى قوة عمل عصرية . ووجد صاحب الحانوت نفسه على حافة هاوية . فالنظام الجديد لم يحابه . صحيح أنه حرره من الخوف من المذابح والاضطهاد ، لكنه هدد طريقته المألوفة فى الحياة كوسيط وكتاجر بدائى. وفى العشرينيات بدأ البلاشفة يشجعون اليهود على الاستقرار فى الأرض فى مستوطنات يهودية في القرم وخيرسون وبيروبيجان . ولقد زرت هذه المستوطنات فى حينها ، وشهدت الجهود غير العادية التى يبذلها بعض الرواد

المثاليين وبعض اليهود المتحمسين ، لكى يحولوا على الأقل قطاعا من السكان اليهود إلى مزارعين صالحين . ولقد وضعت فى هذا العمل استثمارات غير بسيطة وجهود ضخمة من أجل هذه العملية التى استهدفت تغيير عقلية «العايشين من الهوا» . وكان متوقعا منه أن يتخلى عن حرفه تجارة التجزئة وحيلها ، وان يتعلم على مهل مهنة حراثة الأرض وتقليبها . لكن كل هذه الجهود لتحويل التاجر إلى مزارع فشلت ، فاليهود ، ببساطة ، لم يكونوا مهيئين لمثل هذا التحول ، لمثل هذا التغير العميق والغنى فى نمط وجودهم باكمله . حتى فى اسرائيل اليوم تعيش على الأرض اقلية صغيرة جدا من السكان فى الكيبوتزات ، ومازالت الاغلبية العظمى من السكان تندفع إلى المدينة وتفضل آن تكون من سكان الحواضر ، على أن تكون من سكان الريف والفلاحين . (فى اسرائيل عام ١٩٦٥ ، كان أكثر من مليونى يهودى يعيشون فى المدن ، بينما يعيش على الأرض ٢٦٧ ألفا فقط .) ولا عجب ، فقد ظل اليهود قرونا سكان مدن ، وأصبحت التقاليد الحضرية ، طبيعة ثانية لهم . ولم يهاجر من روسيا ليحترف الزراعة سوى أكثر الصهاينة مثالية ، هؤلاء الذين ارادوا العيش على أرض صهيون المقدسة . أما من بقوا فى الاتحاد السوفييتى فلم يكن لديهم استعداد ليصبحوا مزارعين ، فكان عليهم أن يدخلوا الصناعة الحديثة ، وقد أصبح كثيرون جدا منهم بالفعل عمالا فى المصانع الكبيرة ، لكن هؤلاء مع ذلك أقلية .

أما الاغلبية العظمى ، بتقاليدهم الحضرية ، وبما يتمتعون به من مستوى تعليمى يفوق فى عمومه مستوى السكان الروس ، فقد اصبحوا موظفى مكاتب ، ودخلوا جماعيا فى صفوف بيروقراطية ما بعد الثورة ، فى الحزب وفى مكاتب ومؤسسات الدولة ، كذلك لعبوا دورا كبيرا فى العالم الاكاديمى فى الاتحاد السوفييتى . ولم تبدأ عملية التعليم العالى الجماعية هذه الا بعد عام ١٩١٧ ، عندما الغى «التحديد العددى» ، وفتحت أبواب الجامعات على مصاريعها أمام الطلاب اليهود .

على الرغم من كل ذلك ، ففى أثناء أكثر مراحل الثورة بطولية ، كان هناك بين الشعب الروسى تيار خفى من اللاسامية القديمة المتأصلة ، أين يجب أن نبحث عن منبع هذا السم اللعين ؟ أولا ، فى تخلف وفى جهل وفى أمية جماهير الموجيك الروس ، بل وبعض قطاعات عمال المدن أيضا ، كان هناك النفوذ الفعال للكنيسة الارثوذكسية اليونانية ، أكثر كنائس أوروبا رجعية ، وكانت هناك الاسطورة المسيحية العميقة الجذور عن اليهود باعتبارهم من صلبوا المسيح . تلك الاسطورة ، التى كما ندرك الان ، تخللت الحضارة المسيحية كلها ، على نحو اشمل مما كان يتخيل الناس حتى خمسين سنة مضت (على عتبة القرن العشرين ، العلمانى ، كان ثمة أمل فى أن يحرر عصرنا الحديث نفسه ، ان يسفح التحيزات الدينية ، والتأثير السام

للخرافات والاساطير) . في روسيا مثلما في أي مكـان آخر ، لم تكن الكراهية والتحيز اللذين غرسا في أذهان النـاس عبر القرون ، لتجتث في مدى بضع سنوات ، أو حتى بضع عقـود . لم يكن هذا كل شئ . لكن مادة أخرى غذت النزعة اللاسـامية لدى الجماهير . كان الفلاح الروسي الفقير ينظر بغير ثقة إلى صاحب دكان أو صاحب حـانة القرية اليهودي ، الذي كانت تجارته في كثير من الاحيان تقوم على الغش . في ذلك البؤس الساحق الذي عاش فيـه الأخير ، كان يحاول أن يتخلص من فقـره على حساب الموجيك ، الذي كان يماثله بؤسا . وهنا يمكن أن نرى كيف تكـون عـداء الفلاح أو العامل الفقير ضد جاره اليهودي .

وعلى مسـتوى آخر ، كان المثقفون اليهود ، أو موظفوا المكاتب منهم ، الـذين احـتلوا مـراكـز عليـا في الحـزب والدولة والجـيش والمؤسـسـات المدنيـة ونظـام التـعليـم ، ومن كـان منهم بارزا في الصحافة والسـينما والمسرح ، يثيـرون نوعا من الحسد أو الغيرة المهنية . ففي مراسـلات تروتسـكي إلى لينين اثناء الحرب الاهلية ، ورد وصـف بارع لهـذا الجـو . فقـد كتب تروتسـكي ، الذي كان آنئذ قـائد الجيش الأحمر ووزير الدفـاع ، رسـالة سـرية مـن الجبهة يطلـب فيها أن يسحب جميع اليهـود الذين يعملـون فـي الوظائف الادارية العسـكرية الآمنـة مـن مكاتبهـم ، وان يرسلوا

إلى الجبهة ، فهناك كثير من الكلام بين الجنود ، كما كتب اليهودى تروتسكى ، أنه فى الاماكن البعيدة والآمنة ، يوجد من اليهود أكثر مما يوجد منهم فى خط المواجهة فى المعركة . حتى أثناء الحرب الاهلية ، عندما كان الجيش الأحمر يدافع عن اليهود ضد مذابح الحرس الأبيض ، كان هناك هذا التوتر الشديد ، انما الانسانى والمفهوم ، فى موقف الروس المعادى من اليهود «المميزين» بقدر أو آخر .

فى عهد لينين ، قام البلاشفة بمجهود دعائى متشدد فى عدائه للقوميات والديانات والنظم الكنيسية ، وقد قاموا به بلا أى تمييز ، يدينون ويستنكرون ويحاولون اجتثاث أى نوع من القومية ، وفى مقدمتها التعصب القومى الروسى الشديد ، وينادون بمساواة كل القوميات الصغيرة والاقليات القومية ، وسمحوا لليهود ، بل وشجعوهم ، على نشر صحفهم وأدبهم بالييدش ، وان يقيموا مسرحهم . ولقد كان المسرح اليدشى من أحسن ما عرفت من مسارح . وربما أصبح منسيا الآن أن أول مسرح عبرى عظيم فى التاريخ ، مسرح الهابيما ، قد تأسس فى روسيا بمبادرة وزير التعليم ، لوناتشارسكى (سرعان ما غادر الهابيما إلى فلسطين) . بالتأكيد كان ثمة تضارب هنا : كان البلاشفة ، من حيث المبدأ ، ضد احياء العبرية ، التى كانت عندئذ لغة ميتة ،

وعنـدما مثلـت الهابيمـا مسرحية دايبك ، مسـرحية انسكى الغيبية، ارتفـعت اصـوات الاحتجاج ضد تمجيـد الأسـاطير الخاسيدية علي مسـرح روسـيا الحمراء . لكن قوة الخلـق الفنى كانت عصية على الترويض في ذلك العصـر الذهبـى القصـير والجياش ، لفن ما بعد الثورة .



واضـح أن البلاشـفة قـد تبنـوا وجهة نظر مبالغة فى تفاؤلها حول فرص حـل المسـألة اليهـودية . ولم يكونوا وحدهم فى التقـليل من قيمة الغـريزة اللاسـامية فى الفولكـلور المسـيحى . وقد فكروا فى ثورتهم كمـقدمة لثورة تشمل القارة كلها ، تصوروا أن القوى التقـدمية فى ألمانيا وفرنسـا ستسـاعدهم على التحرك إلى الامام ، وان مـرض العداء للسـاميـة سـيختـفى فى أوروبا الاشـتراكيـة الصحيحة ، المنظمة تنظيما أصيلا . لكن ذلك لم يحدث ، فقد بقيت الثـورة الروسيـة معـزولة ، وهزمت الثـورة الألمانيـة ، ولم تـخف أوروبا لانقـاذها ، وتركت روسـيا وحـدها تتلظى بنسغ تخلفـها الموروث عن القيصرية ، من قرون من الارثوذكسية اليونانية والأمية والفقر والبربرية. وفى ظل هذه الظروف تعمقت كل العداوات الكامنة فى المجتمع الروسى. ومن بينها العداوة بين اليهودى وغير اليهودى . ولا يجوز للمرء أن يفكر أن المسـألة اليهودية وجدت فى فراغ ، وانها كانت مستقلة عما كان

يجرى فى المجتمع السوفييتى . لقد كانت مطمورة فى بنيان هذا المجتمع ومرتبطة ارتباطا وثيقا بتطوره ونموه ، وبنمائه وتقدمه ، بالتقهقر وبالتقدم الجديد .

وبالتحديد لأن المشكلة التى نحللها تشكل جزءا عضويا من المسرح السوفييتى بأكمله ، لا توجد طريقة بسيطة لمعالجة كل وجه من وجوهها فى محاضرة أو عدة محاضرات ولذلك سأقوم بقفزة منطقية ، وأحاول أن أوضح كيف أثر تطور نظام الحزب الوحيد فى مصير اليهود .

فى عهد لينين ، لم يكن الحزب الواحد موضع تفكير ، لكن نظام الحزب الوحيد كان بالفعل يلقى ظلاله على نحو ينذر بالسوء . حتى سنة ١٩٢٤ ، بل ولمدة السنتين أو الثلاث سنوات التالية كان النقاش الحر المفتوح بين البلاشفة ما زال دائرا ، وكان ضرب الاحزاب الأخرى يجرى تدريجيا . ولنذكر مثلا واحدا : ظل حزب «أحباء صهيون» اليسارى ، الحزب الاشتراكى الصهيونى ، موجودا قانونا فى روسيا حتى سنة ١٩٢٥ أو ١٩٢٦ . ورغم أن البلاشفة كانوا ضد الصهيونية ، فان حظر الآراء الصهيونية حظرا تاما لم يكن فى برنامجهم . ولقد ناقشت فى كتبى عن ستالين وتروتسكى ، العملية التى أدت إلى اختفاء جميع الاحزاب السياسية تدريجيا . وهنا استطيع أن أضيف أن هذه العملية قد أدت ، آليا ومنطقيا إلى اقامة نظام الحزب الواحد بين اليهود أيضا . فقد منعت كل الاحزاب اليهودية : البوند ، أحباء صهيون ،

وغيرهما من التجمعات الصهيونية . كان يمكن اعتبار الصهيونية ، إلى حد ما ، وبقدر كبير من الصحة ، عقيدة معادية ، أو على الأقل غير صديقة للثورة ، إذ لم تضع كل آمالها في الاشتراكية والنضال الأممي ، وانما في اقامة دولة يهودية منفصلة ، انها لم تكن تستهدف خلق مستقبل افضل للشعوب السوفيتية في الاتحاد السوفييتي ، انما استهدفت هجرة جماعية منظمة من الاتحاد السوفييتي وفي كلمة واحدة ادارت الصهيونية ظهرها للثورة ، أو على أفضل الأحوال ، حاولت تجاهلها . لكل ذلك لم يكن هناك سبب موضوعي لإعلان الصهيونية نظرية معادية خطرة ، وكانت فكرة أن «الصهيونية تهدد الثورة الروسية» ، فكرة سخيفة وغير منطقية بالنظر إلى الأهمية الكلية لكل التجمعات اليهودية في روسيا . وكانت الحقيقة أنه في النظام الواحدى الشمولي لم يكن هناك مكان لأي خروج على الاجماع أو تعدد في الآراء أو التيارات السياسية (كما يقول المثل اليهودي القديم : مثلما تسير الأمور بين المسيحيين ، يجب أيضا أن تسير بين اليهود) . فطالما أن حزبا واحدا ونظرة واحدة هي المسموح بها بين غير اليهود ، فان نظرة واحدة يمكن السماح بها بين اليهود . والذى حدث أن الروس لم يكونوا هم أشد انصار منع الاحزاب اليهودية تعصبا ، إنما كانوا اليهود انفسهم ، الشيوعيون اليهود، بيفسكتسيا (القسم اليهودي من الحزب الشيوعي) . لقد كنت في روسيا عندما كانت هذه المشاكل

موضوع مناقشات ساخنة ، وكثيرا ما شهدت كيف كان البلاشفة الروس ، ميخائيل كالينين ، رئيس الاتحاد السوفييتي وآخرين ، يناقشون الرفاق اليهود ، محاولين استئناس عدائهم الشديد للفكرة الصهيونية ، ولبقايا البوند ، بل وضد رجال الدين اليهود . لكن الشيوعيون اليهود ، كانوا يحسون أن عليهم أن يكونوا أكثر أرثوذكسية ، أكثر «شرعية» (بالتعبير اليهودى) وأكثر تصميما من زملائهم الروس . ونحن فى العادة نكون أقل تسامحا مع من نختلف معهم من أبناء محيطنا ، منا مع خصومنا البعيدين عنا . وفى نفس السياق ، يمكننا أن نتذكر أن دوجاشفيلى الجورجى (ستالين) وابناء بلده هم الذين اظهروا اشد الحماس والعنف والقوة فى تصفية «القوميين المحليين» فى تفليس .

بنظام الحزب الواحد ، بدأ تطور الستالينية وتبلورها . أن سنوات العزلة وخيبة الآمال فى العون الخارجى ، وهزيمة الشيوعية فى أوروبا : كل ذلك مهد الأرض التى تستطيع فيها نظرية ستالين عن الاشتراكية فى بلد واحد أن تمد جذورها . ولقد استجاب البلاشفة لعزلة روسيا بصياغة عقيدة عن العزلة ، وجعلوا من الضرورة افضلية . وعندما انقطعوا عن العالم ، قاطعوا العالم .

اننا الآن نعرف كم اضطر الحزب البلشفى ان يطرح من تراثه الاممى على طريق الاشتراكية فى بلد واحد ، الطريق الذى كان ستالين

ينطلق فيه . في روسيا ، كما في الغرب ، بلا اختلاف ، تمهد اللاسامية طريقها إلى السطح في أوقات الردة . وتتغذى وتنمو على المشاعر والاحقاد القومية ، ولم يتعفف ستالين ، الذى لم يكن ابدا حساسا في اختيار الوسائل ، عن استغلال الاتجاهات المعادية لليهود في صراعاته مع المعارضة . ففي البداية ، حرك الدعاة الستالينيون خفية ، بالاشارات والتلميحات المبهمة ، الاحساس المعادى للسامية ، وقربوه من السطح ، حتى وصل إلى قمته الأولى في زمن التطهير الكبير ، وبلغت التلميحات اللاسامية في الدعاية حدا من الشناعة. آنذاك جعل تروتسكى ، وكان عادة متحفظا في هذا الموضوع ، يتعذر عليه أن يضبط نفسه ، فكتب في رسالة إلى بوخارين ، في مارس ١٩٢٦ : «.. هل صحيح ، هل هو ممكن في حزبنا ، في موسكو ، في «خلايا العمال» أن تجرى الاشارة المعادية للسامية بلا عقاب ؟» ولم يتلق اجابة على نفس السؤال الغاضب عندما طرحه على اجتماع المكتب السياسي بعد ذلك بأسبوعين . كان هناك بعض الحرج وهز الأكتاف .. صحيح أن اليهود كانوا بارزين جدا بين قادة المعارضة، فصورهم خدم ستالين المخلصون بأنهم «كوسموبوليتيون بلا جذور» ، حيث أنهم كأناس ليسوا أبناء وطنيين لأمنا روسيا ، فهم بالطبع لايحرصون على الاشتراكية في بلد واحد ، في وطنهم ، ووصل هذا النفاق إلى درجة أن كلمة يهودى لم تذكر أبدا ، لكن الاشارة التي تضمنتها هذه الأتهامات كانت واضحة .

من ناحية أخرى ، كان هناك كثيرمن اليهود بين البيروقراطية الستالينية أيضا فعلى رأس التجميع الأجبارى فى أوكرانيا ، حيث نفذ التجميع بأشد الطرق قسوة ودموية ، كان يقف اليهودى كاجانوفيتش . وهنا تجدون المأزق المأساوى الذى وقع فيه اليهود . فى المدينة كانوا يضطهدون على أنهم «كوسموبوليتيون بلا جذور» ، معارضون لتقدم الاشتراكية فى روسيا ، وفى الريف كانوا مكروهين من جانب الفلاحين الذين رأوا فى اليهودى البلشفى كاجانوفيتش معذبهم الرئيسى . وأضيفت إلى هذه التناقضات ، تناقضات أخرى ،لاتقل عنها حرجا ، فتاجر المفرق ، والمضارب و«العايش من الهوا» ، اليهودى ، كان مازال طافيا على موجات التغييرات الشاسعة ، ومازال يثير عدم ثقة السكان الروس وكراهيتهم ، ومن ناحية أخرى كان هناك اليهود فى الجامعات، الأساتذة ، والمعلمون ، والدكاترة العظام ، الذين كانوا يعلمون ، إجمالا، جيلا جديدا من المثقفين ، الذين كانوا يسهمون بقدر كبير في تطوير روسيا والدفع بها فى أتجاه العصر . كل هذا يرسم لنا صورة الأتجاه الذى أتخذته التناقضات المتأصلة فى المجتمع السوفييتى المتغير إلى التأثير فى اليهود على نحو أكثرحدة وأكثر قسوة مما كان ممكنا أن تؤثر فى أى جماعة عنصرية أو قومية أخرى فى الاتحاد السوفيتى .

ثم جاءت الحرب العالمية الثانية . وبالطبع فانه فى خلال فترة الصلح والتعاهد قصير الأجل بين هتلر وستالين ، وقع اليهود فى روسيا بين

نارين : أصبح وضعهم – بأقل وصف – غيرمريح بالمرة . وقد وجد ذلك تعبيره الرمزى فى إستقالة وزير الخارجية ماكسيم لتفينوف ، وأستبداله بالروسى العظيم فاشيسلاف مولوتوف ، كيف يمكن لليهودى لتفينوف أن يوقع معاهدة مع هتلر أو روبنتروب ؟ إن مثل هذاالعمل يحتاج إلى آرى خالص . كان شيئا من قبيل التلوث العنصرى يهب من ألمانيا إلى روسيا . كانت تلك هى الأيام التى أرسل فيها ستالين ومولوتوف إلى هتلر رسالة عن الصداقة الروسية – الألمانية ، «المعمدة بالدم»، وعندما أعلن ستالين أنه يحرر «أخوانه فى الدم» ، الأوكرانيين ، من السيطرة البولندية . وأغتنت اللغة الستالينية بتعابير عنصرية من هذا النوع . وسرعان ما أستبدل ذلك بلغة عظمة روسية قومية متعصبة متشددة . ثم جاء ٢١ يونيو ١٩٤١ ، وأصبح بطل العداء للسامية مرة أخرى هو العدو العنيد لروسيا السوفيتية .

بعد كل ما مر بروسيا من تغيرات حادة فى سنوات قبيل الحرب ، وبعد الأعمال الوحشية التى أرتكبت أثناء التجميع الإجبارى ، بعد مأساة التطهيرات الكبرى ، ونفى جماهير غفيرة إلى معسكرات الاعتقال ، بعد ذلك كله، كان التوتر فى المجتمع السوفيتى من الحدة والخطر ، بحيث أنه فى بداية الحرب ، بدا البنيان كله – المعنوى والاقتصادى والسياسى – على حافة الأنهيار . ففى أوكرانيا أستقبل السكان هتلر وجيوشه المحتلة بإحساس بالخلاص بل وبالفرح ، واستمر

ذلك إلى اللحظة التى أظهر فيها النازيون للأوكرانيين قدراتهم الحقيقية وسرعان ما وصل الأوكرانيون إلى النتيجة المرة بأن ستالين فى أسوأ أحواله، كان مايزال أفضل من هتلر . ومع ذلك فان الغزو النازى لأوكرانيا وروسيا الغربية ، حمل معه موجة قوية جدا من العداء للسامية فقد تفجرالتحيز القديم ، الكـــامن دائما، الذى يغوص إحيانا ، لكنه لا ينتفى أبدا ، وحوله النازيون إلى لهب فظيع . وكان ستالين وحكومته من ناحيتهم يخشون أن يرى الأوكرانيون والروس الحرب ضد النازيين كمجرد حرب للدفاع عن اليهود . ولم يكن صوت الدعاية النازية الحاد (الراديو النازى والمنشورات والكتيبات النازية) يكل عن الترديد لسكان الاتحاد السوفيتى : «هذه مؤامرة يهودية إنكم تخوضون هذه الحرب لصالح اليهود !» . وكثيرا ما كانت هذه الحجة المزورة تبدو معقولة لأعداد كبيرة من الأوكرانيين والروس .

وكان يهم ستالين أن يواجه هذه الدعاية ، فأنطلق يفعل ذلك بطريقته الخبيثة الملتوية .فبدلا من مهاجمتها صراحة وإظهار ديماغوجيتها الخسيسة ، حاول غدرا وخلسة ، أن يوارى الموضوع الرهيب كله ويخرجه من الوجود . ولذلك ، رأيتم تلك الظاهرة البالغة الغرابة . فطوال الحرب العالمية الثانية لم تكن الصحافة السوفيتية تنشر شيئا عن مصيراليهود فى ظل النازية ، ولم تكن تذكر «أوشويتز»أو «ماجدانك» وكذلك فإنه بصورة نادرة وبطريقة عرضية

ومختصرة ما أمكن، كانت جماهير الاتحاد السوفيتى المحارب تعطى فتاتا من المعلومات عن آبادة اليهود . ولما كان ستالين بطبعه لا يثق بشعبه ويحتقرة ، فقد كان مضطرا أقل من أى وقت مضى لأن يولى معنوياته إهتماما كبيرا . ففى شهور الهزيمة ، كانت دعايته غير متقنة فى معالجتها وتبدو كاذبة . وكان الاضطراب الناتج عن ذلك يحمل لليهود إحيانا نتائج مأساوية كان يمكن تجنبها . ولاقدم لكم مثالا واحدا: كان فى تاغانروج، وهى مدينة صناعية واسعة فى منطقة بحر آزوف ،عدد كبير من السكان اليهود ، وعندما عرضت الحكومة السوفيتية فى سنة ١٩٤٢ ، تهجير السكان اليهود ، من أمام الجيوش النازية المتقدمة ، رفضوا أن يتحركوا ، رفضوا أن يصدقوا أن الأمة الألمانية ، أمة جوته وبيتهوفن ، أمة الشعراء والمفكرين ، أمة ماركس وأنجلز ، يمكن أن ترتكب ماتخبرهم به الآن السلطات السوفيتية من فظائع ضد اليهود.لم يصدق اليهود دعاية ستالين ، حتى عندما كانت هذه الدعاية صادقة ، وهلكوا جميعا فى ظل الاحتلال الألمانى ، بينما نجا من هجروا من أماكن أخرى .

رغم كل جرائم ستالين ، يجب أن نذكر أن مليونين ونصف مليون يهودى من الأراضى الروسية المحتلة قد تلقوا ، بناء على أوامره ، مساعدات للانتقال إلى داخل البلاد ، فنجوا بذلك من معتقلات النازى وغرف الغاز . وهذه حقيقة كثيرا ما تميل الصحافة القومية اليهودية

والصهيونية إلى تسيانها . لقد وجد هؤلاء اليهود أنفسهم فى وضع غريب : لما كانوا قد هجروا على وجه السرعة إلى كازاخستان وأوزبكستان وإلى جمهوريات اسيا الوسطى ، مذهولين وبائسين، فقد ألقى بهم فى وسط لم يألفوه ، وأقتلعوا مرة آخرى من جذورهم . كان عليهم أن يكسبوا رزقهم وسط الفقر المدقع وقلة الطعام ، وسط جوع ومجاعة حقيقيين ، فأصبحوا مرة أخرى تجاراً فى الأسواق السوداء ، أصبحوا مرة أخرى «عايشين من الهوا» (روى لى كثير من أصدقائى البولدنيين الذين أبعدوا من تلك المناطق الروسية هذه القصة المحزنة) . إن من الظلم أن نلوم هؤلاء اليهود والمهجرين ، فهم لم يكونوا مزارعين ولا فلاحين يستطيعون أن ينتزعوا من الأرض شيئا حتى فى أسوأ الظروف ، ولم يكن أغلبهم عمالا صناعيين مهرة ، كان أغلبهم أكبر سنا من أن يعبأ فى الجيش . لقدكانوا لايزالون يحملون شيئا من عقلية التاجر ، (أذكاها الآن الأحساس المطلق بعدم الأمان) الذى يختزن قليلا من الشاي والسكر وعددا من أكياس الحبوب والبطاطس ويبيعها بأفضل سعر يستطيع الحصول عليه . ومن حولهم كانت جمهرة العمال الروس تموت جوعا . وقد أعطى هذامرة أخرى قوة دفع جديدة للموجة المعادية للسامية . وعلى كل حال ، فهؤلاء المليونين ونصف أو الثلاثة ملايين من اليهود ، الذين يمثلون الكتلة الكبرى من الجماعات اليهودية فى روسيا ،قد نجوا من المذبحة النازية .

في أعقاب الحرب ، كانت أعصاب الأمة ، مرة أخرى ، شديدة التوتر .فبالاضافة إلى الفوضى والتعب والأنهاك أضيفت كارثة جديدة في١٩٤٦ : فقد وقع أنخفاض في المحصول بلغ حد الكارثة ، أنخفاض لم تعاني روسيا مثله منذ أكثرمن نصف قرن . انتشرت المجاعة ، وهكذا خيم اليأس عندما بدأ الناس يحصون موتاهم : فقدوا ٢٠مليون رجل في القتال ! جاء إدراك هذه الخسارة الفادحة بطيئا في البداية ، لكن سرعان ما صدم الأمةبقوة لاتحتمل .لم يكن بوسع المرء أن يرى رجلا في الحقول والمزارع الروسية ،كان النساء والشيوخ والأطفال وحدهم يفلحون الأرض وينتجون المحاصيل الضئيلة التى لاتكاد تكفي لطعام الأمة ، ورفعت كل القيود على استخدام عمل الأحداث ، كان العمل ،والعمل المجهد ، هو قانون اليوم .

كانت التناحرات القديمة والجديدة حادة وأليمة . ومرة أخرى بدأ الصراع الخفي بين التيارين الكبيرين في طريقة التفكير الروسية ، وفى عقيدة المجتمع السوفيتي ، الصراع بين القومية والأممية . وإذا لم يذكر المرء دوما حقيقة كون هذا الصراع ، يمثل الظاهرة الأساسية فى المجتمع السوفيتي ، فإنه يفقدالمفتاح إلى فهم تاريخ الفترة الستالينية ، والأحداث التى تلتها ، والمكان الذى تحتله المسألة اليهودية في الحياة السوفيتية .إننا نجد قوميين ولا ساميين بين الفلاحين والعمال

والبيروقراطية والمثقفين . ونجد أمميين وبالتالى أعداءا للاسامية فى كل هذه القطاعات من المجتمع أيضا .

★★★

علينا أن نتجه بإهتمامنا إلى عمل من أعمال سياسة ستالين الخارجية ، قد يبدو مناقضا ليس لموقفه من اليهود فحسب ، بل ولكل الموقف السوفيتى التقليدى من الصهيونية .

فى ١٩٤٨ ، عندما كانت إسرائيل تشكل نفسها فى دولة ، شهدنا موقفا غريبا ، حيث التقى الروس والأمريكيون ، العدوان اللدودان ، وتجحا معا فى إخراج البريطانيين من الشرق الأوسط ولعبا معا ، فى ميلاد إسرائيل ، دور القابلة .

أيا كانت حساسيات ستالين ، فان إسرائيل ، ويا للمفارقة ، مدينة له بوجودها المستقل . ولقد جاءت الترسانة الرئيسية للهاجاناة من تشكوسلوفاكيا الستالينية ، من مصانع السلاح التشيكية ، بهده الأسلحة «الموصومة» هزم اليهود فى فلسطين البريطانيين والعرب . إن المساعدة والعون المادى الفعال ، اللذين كان ستالين يمنحهما لليهود ، بدت شريرة فى أعين الساسة الغربيين ، وأثارت الغضب ، وحركت قدرا لايمكن تجاهله من المشاعر السيئة نحو اليهود .

ثم جاءت الحرب الباردة . وكانت إسرائيل مهتزة الأسس، محاطة

بالعالم العربى المعادى ، خائفة على مستقبلها، تعتمد على العون الاقتصادى من اليهود الأمريكيين ، فربطت نفسها فى الحقيقة الواقعة ، إن لم يكن بصورة صريحة ، بالولايات المتحدة . ولم يكن هذا ليؤدى إلا لاستفزاز عداء روسيا . وعندما وصلت السيدة جولدا مائير ، أول سفيرة للدولة الجديدة ، إلى موسكو ، حياها اليهود بإبتهاج وعبروا بصوت مرتفع عن تضامنهم مع اسرائيل . أما ستالين ، الذى كان ربما يرقب المشهد من نافذته فى الكرملين ، فقد قرر أن اليهود فى الاتحاد السوفيتى لايطمأن إليهم . وانطلاقا من تقديره لإمكان وقوع نزاع مع الولايات المتحدة الأمريكية، بل حرب بين روسيا والغرب ، بدأ يضطهد اليهود ، ويدينهم كأناس «بلا وطن» ، بلا جذور ، ومرة أخرى كـ «كوسموبوليتيين» وسرى القول همسا أن كل يهودى ، له قريب فى الغرب ، وعلى الأغلب فى أمريكا . فكيف يمكن الوثوق به كوطنى روسى مخلص ؟ هل يستطيع المرء أن يثق ثقة مطلقة من أنه في وقت الشدة سيكون ولاءه للدولة السوفيتية ؟ لاشك أن هذه كانت هى وجهة النظر السوفيتية .

أن الوضع بأكمله ، حسبما قدم نفسه في جو الحرب الباردة ، إذا ما حللناه موضوعيا وبهدوء ، يجعل لزاما علينا أن نعترف ، أن هذا النوع من التقييم ، مع غرابته ، لم يكن خاليا تماما من المنطق . كان اليهود في روسيا يحملون ولعا بأمريكا ،وولعا بأقاربهم هناك. وإذاكان

للمرء أن يتصور مثلا ، الجيوش الأمريكية زاحفة تتقدم فى روسيا مثلما فعلت الجيوش الألمانية ، فربما وجدت قدرا كبيرا من التعاطف ، وقليلا من المناوأة بين اليهود المحليين . لا حاجة لأنكار ذلك . إن مالم يسأله ستالين لنفسه ، بفجاجته ، هو أكثر الأسئلة أهمية : بعد كل هذه السنين التى تلت الثورة ، كيف مازلنا نجد أناسا في روسيا ، يمكن الشك فى ولائهم للنظام السوفيتى ؟ إذا كان صحيحا أنهم «لايطمأن إليهم» ، أفلا يكون محتملا أن اليهود ليسوا هم الذين يستحقون اللوم ، وإنما الحكومة السوفيتية ؟ حتى لو أن ستالين سأل نفسه هذا السؤال ، هل كان سيعترف أبدا أن حكمه ، وأن أنحرافه بالثورة ، هو المسئول ؟

على أى حال ، كانت هذه عقدة شديدة التشابك من المسئوليات ، وعدم الثقة والخوف . فقد كانت أية مبادرة سياسية فى أيدى ستالين تميل إلى الوصول إلى حدأقصى من العبث والوحشية والطيش . وهكذا دفع بالعالم بأكمله إلى مشهد دنىء ، عندما اصطنع ستالين ما سمى بـ «مؤامرة الأطباء» . ففى ٣يناير ١٩٥٣ ، أعلن أن تسعة من أساتذة الطب ، الذين كانوا يعملون كأطباء داخليين للكرملين ، قد أعتقلوا فجأة، وألقى بهم في السجن ، وأتهموا بأنهم سمموا بعض مرضاهم المهمين، وبالأعداد لمزيد من الاغتيالات وبمحاولات لأغتيال المارشالات والجنرالات السوفييت بقصد أضعاف دفاع البلاد وبالعمل في نفس الوقت لصالح ولحساب المخابرات الأمريكية والبريطانية ، والمنظمة اليهودية العالمية

منظمة الـ Joint (المنظمةالمشتركة) . وكانت هناك أشارات غامضة إلى مزيد من بيانات منتظرة عن تشعب المؤامرات ومداها ، وعن جرائم أخرى ، أرتكبها المتآمرون وحسب بعض الروايات ، أنتهت الحملة التى شنت ضد اليهود إلى نقل جميع اليهود من مساكنهم وإعادة إسكانهم إجباريا فى مكان فى الشرق الأقصى أو فى بيروبيجان .

وكغيرها من الخطط الدنيئة المؤذية التى كان ستالين يديرها فى السنوات الأخيرة من حياته ، إنهارت هذه الخطة أيضا فى لحظة وفاته وبدء عملية تصفية الستالينية . وكان أول ما فعلته حكومة مالينكوف الجديدة ، الذى كان السكرتير الأول للحزب ، ورئيس الوزراء فى نفس الوقت ، هو أن أعلنت أن ما سمى «مؤامرة الأطباء» هى أمر باطل وفارغ .

بموت ستالين دخل الاتحاد السوفيتى مرحلة جديدة ومرة أخرى أصبحت الحرب المستمرة بين القومية والأممية شديدة الوضوح .فأعقبت وفاة ستالين ردة فعل ضد خطه القومى الشوفينى والمعادى للسامية ، كما أعقبتها دفعة للأممية.لكن ذلك لم يكن الانتصار الأخير والحاسم للأممية القادر على هزيمة القومية بأكملها إلى الأبد . كان أبعد ما يكون عن ذلك . فقدكان هناك لسنوات ما يشبه التوازن المهزوز بين الاتجاهين، وكان ذلك التوازن الذى يميل إلى ناحية ثم إلى أخرى ، ينتج كل تلك التضاربات والتعرجات التى كنا نشهدها فى الاتحاد السوفيتى.

كما تميزت فترة الانتقال الخروشوفية بالغموض فى معالجة المسألة اليهودية . إنتهى العداء للسامية الذى ساد السنوات الأخيرة من عهد ستالين . روعيت مساواة اليهود ، لكن مازال هناك، طبقا لكل التقارير ، تيار خفى قوى نسبيا من العداء للسامية . إن المعالجة الصحيحة حقا للمسألة اليهودية لاتبدو فى الأفق البعيد . ولانستطيع أن نأمل - إلى أن تطرح كل مشاكل ماضى روسيا وحاضرها الفتى ، المأساوى، الملهم ، والكريه - لفحص حر وصريح من جانب الحكام السوفييت والمواطنين السوفييت ، والشيوعيين ككل.

٤ - بقايا عنصر [1]

(الليفتنانت جنرال سير فريدريك مورجان ، رئيس عمليات وكالة الأمم المتحدة لغوث اللاجئين فى ألمانيا ، ونائب رئيس الأركان السابق للجنرال أيزنهاور ، قال فى فرانكفورت أنه شهد هجرة جماعية يهودية من بولندا ، و«كلهم يرتدون ملابس أنيقة، حسنو التغذية ، يتمتعون بصحة طيبة ، وجيوبهم مكتظة بالنقود» وقال أنهم كلهم يرددون نفس القصة المكررة عن التهديدات والمذابح والفظائع فى بولندا كسبب لمغادرتهم أياها .

ولم يعرف من الذى يمول الحركة ، أو يحشو الجيوب اليهودية . وهو يعتقد أن «تنظيما عالميا لليهود فى طور التكوين» ، وأن لدى اليهود خطة إيجابية لهجرة جماعية ثانية ، من أوروبا ، هذه المرة) . التايمس - ٣ يناير (كانون الثانى) ١٩٤٦ .

سلط تصريح سير فردريك مورجان الضوء على وضع المسألة

(١) الـ «إيكونوميست» ، ١٢ يناير (كانون الثانى) ١٩٤٦ .

اليهودية فى أوروبا اليوم . ومن المؤسف أن كلا من التصريح والردود الغاضبة عليه ، قد أتخذت مثل هذه اللهجة الميلودرامية المثيرة.ولابد أن الجنرال مورجان كان لديه بالتأكيد سبب للحديث عن خطة منظمة لهجرة جماعية يهودية . فالدلائل على وجودها يمكن فى الحقيقة رؤيتها فى برلين على صورة الاف من اليهود القادمين من شرق أوروبا. ولو انه أقتصر على ذكر هذه الحقيقة ، وعلى تحذير قاطع وعاجل ضد المتاعب التى تخلفها الهجرة الجماعية لحكومات الحلفاء العسكرية فى ألمانيا ولليهود أنفسهم ، لما أختلف أحد مع تصريحه . ومن الممكن طبعا أن يكون قد قصد أن تحمل كلماته مثل هذا التحذير . وهو احتمال لم يعترف به أبدا أعنف من تصدوا لنقده ، ولكن حتى على هذاالنحو ، كانت صيغة التحذير هى أقلها توفيقا ، فقد تضمنت التلميح إلى أن اليهود ، بجيوبهم المحشوة بالنقود ، يكررون الحيل التى مارسوها ذات يوم على المصريين أثناء خروجهم الكبير الأول ، عندما أقترضوا – حسب ما يروى : كل رجل من جاره ، وكل امرأة من جارتها ، المجوهرات الفضية ، والمجرهرات الذهبية .

كما لمح أيضا أنهم، مرة أخرى ،قد أنتهكوا الحواجز الرسمية وتقسيمات الحدود ، مرة بتستر من الله عبروا البحر الأحمر ، والآن بتستر الروس يدخلون إلى المنطقةالبريطانية .باختصار ، نسبت إلى

اليهود أسوأ الدوافع ، فى هرب يمكن أن تعطى له كثير من الأسباب الطبيعية تماما .

أن رغبة يهود أوروبا فى «هجرة جماعية» جديدة ، لايمكن إنكارها . والمنظمات الصهيونية «وبخاصة أكثرها تطرفا »تذكيها ، وتحاول حثها وتشجيعها قبل أن يضرب من بقى من يهود أوروبا جذورهم مرة أخرى فى بلادهم القديمة . وهم يتصرفون على هذا النحو إنطلاقا من قناعة بأن اليهود على أى حال ، سوف يمنعون من الاستقرار الدائم فى مجتمعاتهم القديمة . إنهم بإختصار ، يتصرفون على اساس عدم ثقة عميق فى مستقبل أوروبا المتحضرة والمتسامحة ، وهو عدم ثقة تؤكده، للأسف ، المظاهر المستمرة للعداء للسامية فى القارة . وهذه المظاهر لايمكن إنكارها، رغم أن الخوف والذعر اليهوديين يضخمانها فالمسافرون العائدون من بولندا ، ومن منطقة الدانوب ، وتقارير صحف تلك البلدان «وتصريحات المسئولين» لاتدع مجالا للشك فى أن مناخ شرق أوروبا مازال مصابا بعداء خبيث للسامية .

إن المسألة تفوق فى أهميتهاحادثة مورجان ، بل والمتاعب الإدارية التى يسببها للحكومات العسكرية تدفق اليهود إلى ألمانيا .فالعداء للسامية يعكس ، على أى حال ، أويرسم ظلال حالة مريضة فى الحضارة الأوروبية ، وربما كان قيامها وسقوطها هو أكثر المقاييس حساسية لصحة أوروبا المعنوية والسياسية .لقد كان اليهودى هو

الضحية الأولى لعربدة الجنون النازى وللدمار الذى حاصر القارة كلها، وكان من الممكن التفكير بأنه بعد الأبادة التى تمت فى السنوات القليلة الأخيرة، يكون من حق اليهود الآن أن يتوقعوا العطف أو الفهم الإنسانى من مواطنيهم ومن العالم ككل ، لكن حقيقة أن العداء للسامية مازال على أى حال قائما فى شرق أوروبا ، ويتزايد بالتأكيد ، رغم أنه مازال بعد كامنا ،ليس غير ، فى غرب أوروبا ، وعلى ذلك فإن اللاسامية عرض مخيف من أعراض التحلل الاجتماعى والسياسى .

لقد نبع تحرير اليهود فى القرن التاسع عشر من ليبرالية الطبقة الوسطى ، ومن انتشارها عبر أوروبا . أن أول اعلان للحقوق المتساوية لليهود ، الأول فى تاريخ الحضارة المسيحية كلها ، جاء من فرنسا اليعقوبية فى ١٧٩١ «فليتطلع اليهود إلى أورشليم فى فرنسا» : ذلك كان الشعار المستنير الذى اطلقة نابوليون ، الذى لم يعرف أبدا بتعاطفه مع اليهود ، بل كانت هناك لمسة من الاستبداد فى سياسته تجاههم . فعلى سبيل المثال ، اقترح جديا ، أن واحدا من كل ثلاثة يهود ، رجلا كان أم امرأة ، يجب أن يلزم بالزواج من مسيحى . لكن قصدهُ عدم تعويد اليهودة تجارة الربا غير المشروعة ، وتحطيم إنفصاليتهم وجعلهم يدمجون أنفسهم فى السكان غيراليهود ، كان بالتأكيد قصدا مقبولا ، – ومن يدرى ؟ – لو أنه تحقق فعلا فى أوروبا كلها ، لأصبحت المسألة اليهودية منسية منذ زمن طويل ، ولكفى ذلك

جيلنا عارا لايمحي لشهوده القتل العمدة لستة ملايين من البشر فى معسكرات الاعتقال وغرف الغاز .

إن تحرير اليهود فى الجزء الأعظم من ألمانيا ، كان أيضا نتاجا جانبيا للغزو النابوليوني. لكن انتصار الرجعية فى القارة فى ظل الحلف المقدس ، حرم اليهود من معظم الحقوق التى كانوا قد حصلوا لتوهم عليها . وبالنسبة للفرد اليهودى ، أصبح التعميد - مرة أخرى - تذكرة المرور إلى الحضارة الأوروبية ، إلى أن جاء «ربيع الشعوب» سنة ١٨٤٨ ليمنح دفعة قوية جديدة لتحرير اليهود فى أوروبا الغربية على الأقل . ولقد كان أرتباط تحرير اليهود بانتشار الليبيرالية ، من القوة (رغم أنه ليس بالضرورة مرتبطا بوجود حكومات ليبرالية ملتزمة) إلى درجة أنه حيث لم ينتشر نفوذ تلك الليبرالية ، لم يحصل اليهود مطلقا على مساواة في الحقوق . وكانت قوة الطبقات الوسطى وأفكارها الليبرالية ، تضعف تدريجيا من غرب أوروبا إلى شرقها . وكانت الطبقات الوسطى غير اليهودية ، فى روسيا وبولندا ورومانيا (وهى البلدان التى عاش فيها أغلب يهود أوروبا) هى نفسها أضعف وأعمق إغراقا فى التخلف الاجتماعى والتحيز العنصرى ، من أن ترفع راية المساواة فى الحقوق لليهود ،الذين كانوا فى الغالب منافسيهم . وما حققته الليبرالية البورجوازية لليهود فى غرب أوروبا ، كانت البلشفية وحدها هى القادرة على تحقيقه لهم في شرق أوروبا . ولاشك أن الشيوعيين لم يكونوا

ليسمحوا لليهود بالاستمرار كرأسماليين أو «كعناصر غير منتجة» . لكنهم بدلا من ذلك منحوهم حقوقا متساوية .

كانت المسألة اليهودية قبل الحرب أكثر ما تكون حدة فى بولندا ورومانيا بملايينهما الأربعة من اليهود . وكان العداء للسامية حركة شعبية أكثر منها في أى بلد أخر حتى في ألمانيا . وكانت تجسد كل أنواع الأتجاهات والدوافع : الغيرة التى تستشعرها الطبقات الوسطى البولندية المتخلفة نحو منافسيها اليهود ، الكراهية الدينية العميقة الجذور لليهود «كأعداء المسيح» وأخيرا ، خوف كل الحكومات من الشيوعية المنتشرة بين الكتلة العامة للحرفيين اليهود الفقراء والمعوزين . ولقد ظلت الطبقة العاملة والفلاحون غير اليهود فى تلك البلدان ، غير متأثرين عموما بالدعاية اللاسامية الملحة . لكنهم ظلوا بعيدين عن اليهود ، وعلى نحو أو آخر لا مبالين بمصيرهم. وكانت الهوة الفاصلة بين اليهودى وغير اليهودى مسئولة جزئيا على الأقل عن السلبية واللامبالاة الغريبة، التى شهدت بها جمهرة غير اليهود مذبحة اليهود «الرؤيوية» (نسبة إلى سفر الرؤيا)، رؤيا اقتراب نهاية العالم.

ليست هذه هى الصورة كلها. لقد أصبحت مقبرة الطبقة الوسطى اليهودية مهد طبقة وسطى جديدة غير يهودية في شرق أوروبا. ففي أوج المذبحة، كتبت صحيفة بولندية : «أن النازيين يحلون المشكلة اليهودية

لصالحنا بطريقة لم نكن لنحلها بها أبدا». لقد استولى البولنديون والرومانيون والمجريون على حوانيت اليهود وبيوتهم ومساكنهم وممتلكاتهم الشخصية، وكان المستفيدون من ذلك هم أكثر عناصر تلك الأمم انحطاطا وشرها، وأكثرهم انعداما للضمير - حثالة بروليتاريا تحولت فى يوم وليلة إلى حثالة بورجوازية. وكانت اليهود القتلى هى الرخص الوحيدة الصالحة لتجارتهم . إن هذه الطبقات الوسطى الجديدة تعانى بلا شك عقدة ذنب تجعل مزاجها بالغ العصبية والوحشية. وهم ينظرون بتوتر وقلق في وجوه اليهود القلائل الذين يحاولون اليوم العودة إلى بلادهم. هل عاد المالك الحقيقي للحانوت؟ أو ابنه أو قريبه؟ وكلما زاد الفقر فى شرق أوروبا، وكلما أصبح التدافع على السلع المادية أكثر ضراوة، زاد مقدار اليأس وانعدام الضمير فى تصميم هذه الطبقة الوسطى الرهيب على الاحتفاظ بملكيتها. ان الملكية هى، فى كل الأحوال تسعة أعشار القانون، ويكفل العداء الحيوانى للسامية العشر الأخير، والطريقة الوحيدة التى تستطيع بها «الطبقة الوسطى» الجديدة أن تنقذ بها، ليس ثروتها المكتسبة حديثا فى الأساس، وانما أعصابها وادعاءها للاحترام، هى احراق من بقى من اليهود.

هذا بالتأكيد هو أقوى الملامح المرضية للحياة فى شرق أوروبا اليوم. والويل لشرق أوروبا إذا أصبحت طبقة الضباع هذه طبقة حاكمة! إن أسود وجوه نظم الحكم الحالية، الواقعة تحت الرقابة

الروسية، ستكون باهتة بالمقارنة بما تستطيع هذه الطبقة ان تختزنه من فظائع، ليس لليهود (لأنه لم يعد لديهم إلا القليل ليفقدوه) بقدر ما هو لشعوب شرق أوروبا. ان هذه الطبقة تشكل النواة الصلبة للمعارضة المعادية للروس فى كل بلد. انهم الآن «كوادر» مختلف المنظمات الإرهابية، وهم على استعداد لأن يكونوا أكثر العناصر وحشية وتصميما فى أية ثورة مضادة فى شرق أوروبا. وما الانفجارات الأخيرة للعنف المعادى للسامية سوى مجرد تحذير من عنف مختلف تماما، قد يهدد السلام فى ذلك الجزء من العالم.

ماذا لدى العالم ليقدمه للناجين من بلسن وأوشوتز وداشو وماجدانك؟ بعد الحرب العالمية الأولى ، قدم لليهود أملين : وعد بلفور بموطن يهودى فى فلسطين وحماية الاقليات من قبل عصبة الأمم. وأثبت إعلان حماية الاقليات انه قصاصة ورق. وقوبل مشروع الوطن القومى اليهودى، بالمعارضة الكاسحة من العالم العربى، وهو ما كان التنبؤ به سهلا هل يمكن أن تكون أمم العالم الديمقراطية العظيمة ، قد أصبحت من العجز لدرجة أنها لا تستطيع أن تقدم لليهود قطعة أرض فى مكان ما من الكرة الأرضية، أو بضع مئات الآلاف من تأشيرات الدخول إلى بلادها؟ أو ترى أصبحت من الفقر بحيث لا تستطيع أن تقوم بايماءة احسان إلى أسوأ حطام وضحايا لهذه الحرب : بقايا عنصر غير عادى وتعيس لكنه ليس جديرا بالاهمال تماما؟

٥ - مناخ إسرائيل الروحى[١]

ما هو الإسرائيلى ؟ وما هو اليهودى ؟ هذا السؤال يناقش بكثرة فى إسرائيل، لأن العلاقة بين إسرائيل وبين يهود العالم ذات أهمية واضحة بالنسبة إليها. ان كثيرا من الصهاينة يؤمنون بالـ «كيبوتز هاغالوث» ، أى عودة اليهود من كل بلدان الشتات، وكل يهودى خارج إسرائيل، هو فى نظرهم، منفى عمليا. وعليه واجباته نحو إسرائيل، والواجب الأقصى هو أن يصبح مواطنا إسرائيليا. أما الإسرائيليون الشبان، من الناحية الأخرى، خصوصا «الصابرا» - الذين ولدوا وتربوا فى البلاد، فليس لديهم احساس بالانتماء إلى «اليهودية العالمية» وبالتالى لا يرون «اليهودية العالمية» منتمية إلى إسرائيل، ويصل بعضهم إلى حد القول بأنهم إسرائيليون وليسوا يهودا.

ربما كان التمييز غير حقيقى تماما. ففى إسرائيل لمسة من

---

(١) ذى ريبورتر ، أبريل - مايو (نيسان - أيار) ١٩٥٤ .

اللايهودية : نجدها فى المزارعين الذين يناضلون مع الصحراء ليحولوا رقعا منها إلى بساتين للكرمة والزيتون والأحراش، وفي الجنود الذين يشهدون العرب عبر الحدود بدم بارد، فى الوعى الشائع بالدولة، وفى الضرورة التى تميز استعداد الشعب للدفاع عن دولتهم ضد العالم الخارجي.

ويسألون الزائر : «ألا تحس اننا، نحن اليهود، لنا جذورنا هنا؟» ويكثر ترديد كلمات «جذور» و«انعدام الجذور» فى الحديث. ان النزيل السابق فى معسكرات الاعتقال النازية، والذى عانى العداء البولندى القديم للسامية، وضحية الحرس الحديدى الرومانى، يشعر أخيرا أنه فى وطنه وانه آمن . أنه يعبر عن رضاه، وعن احساسه بالخلاص، وعن اعتزازه.

ومع ذلك فكثيرا جدا ما تطن فى الأذن نغمة حادة من الصوفية الوطنية الصارخة، صوفية لا تخلو من عنصرية الشعب المختار القديمة، والتى تتفق أسوأ توافق مع عنصر التعقل البارد فى العقل اليهودى، لكن إسرائيل بعد كل شىء، هى بلد «زوهار»، الانجيل الثاني لصوفية العالم، ووطن القبلانيين الذين نسجوا رؤاهم على صخور صفد القريبة الزاهية.. وعلى كل، فهناك شىء مقلق فى توتر الشعور الوطنى الذى يتخلل الأحاديث مع الإسرائيليين من رئيس الوزراء، إلى عامل رصف الطرق.

كان بن جوريون يحدثني بمرارة عن اليهود اللاصهيونيين قائلا : «أنهم لا جذور لهم، انهم كوسموبوليتيون، مقطوعو الجذور، لا يمكن أن يكون هناك ما هو أسوأ من ذلك». فعلقت بقولي انه يتحدث كما كان الدعاة الستالينيون يتحدثون عن اليهود كلهم حتى وقت قريب. لكنه لوح بيده معترضا :

«لا، لا ، انني كرئيس وزراء لهذا البلد، كنت حريصا دائما، على أن يشعر الإسرائيليون انهم مواطنون للعالم كله، لكي يكونوا ذوى قيمة وجدوى بالنسبة لدولتهم، انني لا أندد بـ «الكوسموبوليتيين العديمي الجذور» بنفس الطريقة التي نددوا بها بهؤلاء في موسكو».

هذا بالطبع تفكير بن جوريون بعد أن راجع نفسه. أما غريزيا فانه يدين ويشجب كل هؤلاء اليهود اللاصهاينة، الذين لا يمثل الانتماء لليهودية بالنسبة لهم فكرة مركزية أو احساسا مسيطرا، لكنه ما ان يلفت أحد نظره إلى التوافق بين كلماته وبين الدعاية الستالينية (على عهد مؤامرة الأطباء) حتى يحمر وجهه حرجا ويصحح نفسه.

فى إسرائيل، أقام أقدم شعب فى العالم أحدث دولة قومية، وهم يتطلعون عاطفيا إلى تعويض ما فاتهم من زمن. وبالنسبة لجميع اليهود تقريبا هنا، فان المثل الأعلى للسعادة الفردية والجماعية هو إقامة صدفة قومية صلبة وقادرة على حمايتهم، ويتضمن ذلك الخلاص من الشتات «الدياسبورا» والذكريات والعادات والأذواق وروائح المنفى، ألفى عام من

المنفى. انه يتضمن نسيان مناخات وطبيعة وأصوات ولغات بلدان كثيرة : بولندا ، روسيا، ليتوانيا، النمسا، المغرب، تركيا، العراق. ويا لها من عملية اجتثاث ذاتى ونفسى معقدة ومتعددة الوجوه، تعقب عملية احلال عضوى تراجيدية، والحقيقة ان الأغلبية الساحقة من هذا الجيل من الإسرائيليين لم تمد لها أى جذور فى إسرائيل، وهى لاتستطيع ذلك. ان إسرائيل هى دولة الشخص الطريد، وهذا هو السبب فى انهم يتحدثون كثيرا عن «الجذور».

انهم يتطلعون إلى الهرب من ماضيهم، وان يطردوا من عقولهم علامات المهانة وكل ندوب العار، وكل الوصمات التى نتجت عن كراهية اليهودى، بل انهم يتطلعون إلى أن يطردوا من عقولهم جزءا من عقولهم. ان بعض الإسرائيليين ، مثلا يشعرون بالخجل العصابى من الييدش، لغة أغانى مهدهم الأول، وقصصهم الانجيلية الأولى، و«الرطانة» التى نما بها، فى شرق أوروبا قبل الكارثة اليهودية، أدب مذهل فى ثرائه، فسواء على ظهر سفينة إسرائيلية، أو فى تل أبيب، كنت اقترب من شخص غريب وأسأله عن اللغة التى أستطيع أن أحدثه بها، وغالبا ما تكون الإجابة بالألمانية، ونادرا جدا ما تكون بالييدش. لكن ما أن يفتح الغريب فمه، حتى يتضح أنه يتحدث الييدش، وانه لا يكاد يعرف شيئا من الألمانية الصحيحة، لكنه لن يعترف بذلك. ان الييدش هى «وصمته اللغوية» التى يصر على التخلص منها.

ان الموقف من البيدش، كان على أى حال من مميزات الصهيونية قبل هتلر بوقت طويل. فقد استهدفت الصهيونية منذ بدايتها إحياء العبرية. ان فى ذلك نوعا من الحذلقة، كما هو شأن محاولة يقوم بها اليونانيون أو الايطاليون التخلى عن لغاتهم الحديثة والعودة إلى اليونانية أو اللاتينية الكلاسيكية. لقد رأت الصهيونية دائما فى اليهودية، أمير الأساطير الذى كتب عليه أن يعيش فى املاق لسنوات كثيرة لكنه يعود إلى قصره الملكى، ويطرح عن نفسه خرق التنكر المتربة القذرة ويرتدى الذهب والارجوان الملكى. وهكذا يطرح اليهود على عتبة إسرائيل خرق البيدش ليستبدلوها بذهب وارجوان العبرية.

ولقد سألنى بن جوريون بنبرة موحية بالثقة بالنفس : «متى ستبدأ كتابة كتبك بالعبرية بدل الانجليزية؟». وهو يعتبر أمرا مسلما به ان كل كاتب يهودى المولد، مدين بالتزام أدبى لأدب إسرائيل العبرى.

ان تأكيد الذات الإسرائيلى - العبرى هذا يعول عليه أن يصهر كل عناصر إسرائيل المتباينة فى أمة واحدة وان يمنح تلك الأمة عناصر وحدة روحية وثقافية. وعلى كل، فمن وراء تأكيد الذات هذا يوجد أيضا حنين اليهود الطبيعى إلى بلدان وثقافات طفولتهم وشبابهم. وهو حنين يعبر عن نفسه أحيانا فى أشكال من النبل البالغ.

تكاد كل واجهة مكتبة إسرائيلية تروى لك حكاية هذا الحنين، وتكاد كل واجهة مكتبة من هذا النوع أن تكون مرثاة ثقافية يهودية، والمكتبة

عنصر بالغ الأهمية فى الحياة الإسرائيلية، لأن اليهود ظلوا هنا هم الـ «أن هاسافر» (أهل الكتاب). ان الكتاب هنا ضرورة أولى، وفى تل أبيب وحيفا والقدس ، يبدو أن هناك من المكتبات ومكتبات الاعارة بقدر ما هناك من حوانيت البقالة والخضر، وفى المستوطنات الزراعية توجد مكتبات غنية يندر أن تجد مثلها فى أى ريف آخر.

وليس ما يملأ الرفوف هو قصص الجريمة والجنس أو القصص الهزلية أو الكتاب الرائج الرخيص، انما الكتب العظيمة والجادة للشعراء والمفكرين والحالمين الاجتماعيين لكل الأمم . وتجدها هنا فى ترجمات عبرية وفى لغاتها الأصلية. وعلى سبيل المثال : فى واجهة مكتبة صغيرة فى شارع خلفى، وجدت طبعة جيدة لجوته بالألمانية، وترجمة عبرية جديدة لكتاب هاينه «كتاب الأغانى»، وطبعات إسرائيلية جديدة من جوجول وبوشكين، إلى جانب ترجمات عبرية لأعمال فرويد، ومختارات من أشعار والت ويتمان، وإخراجا جديدا لكتاب ميكيويتش : Pan Taoeusz ، ملحمة بولندا الوطنية، وبعض الروايات المجرية والرومانية، ويبدو أن كل جماعة من المهاجرين مهتمة بأن تنقل المتع الفنية والروائع الأدبية لطفولتها وشبابها، إلى الأطفال الذين يتربون فى إسرائيل. فان محاميا أصله من ليبزغ، يحب أن يتذوق ابنه معه ثراء أسلوب نيتشه، ولا تستطيع يهودية بولندية أن تتصور ابنتها تكبر دون

أن تقرأ روايات تشير موسكى الاجتماعية – الوطنية، ويتجادل يهودى عجوز من أوديسا مع حفيده حول عمق «الاخوة كرامازوف».

كتب هنريخ هاينه ذات مرة، أن اليهود عندما طردوا من أرضهم، تركوا وراءهم كل ثرواتهم، وأخذوا إلى المنفى متاعا واحدا : الكتاب، ثم على مر القرون وقف «طيف الشعب» حارسا على الكتاب، الانجيل، يحافظ عليه من أجل بقية البشرية، والآن يتجسد «الطيف» مرة أخرى فى أمة، وعند عودتها إلى بلدها تعيد معها إلى ضفاف الأردن وتلال يهودا، كل ما لدى أمم العالم من كتب عظيمة.

★★★

لقد كانت دولة إسرائيل أساسا حصيلة جهد يهود أوروبا الشرقية، خصوصا روسيا وبولندا وليتوانيا. فمن بينهم جاء جميع مبشرى الصهيونية تقريبا، فيما عدا هرتزل ونورداو، ومنهم جاء تقريبا جميع الساسة ورجال الدولة والرواد الأوائل. وعندما أعلنت الدولة اليهودية فى ١٩٤٨، كان اليهود ذوو الأصول الروسية والبولندية، يشكلون حوالى نصف سكانها تقريبا.

ففى أحياء اليهود فى أوروبا الشرقية، جرى نهر الحياة اليهودية القديمة أقوى ما يكون، وهناك داعب اليهود أحلاما صهيونية بأعلى درجات التوتر. وعندما كانوا يتبادلون فى الأعياد تحيتهم التقليدية «العام القادم فى أورشليم»، كانت التحية تبدو مختلفة الوقع تماما عنها

فى البيوت اليهودية فى غرب أوروبا أو أمريكا. كما أن الأساليب التى كان اليهود الفرنسيون والبريطانيون والايطاليون والألمان «يستوعبون» بها، قبل قيام الفاشية، هذه الأساليب لم تؤت مفعولها فى روسيا وبولندا، فقد كان اليهود هناك يعيشون فى كتل كبيرة متماسكة، وكانت لهم طريقتهم الخاصة الأصيلة في الحياة. وكانت قوى الاستيعاب فى الحضارات السلافية ، على أى حال أضعف من أن تجذبهم وتستوعبهم، ولذلك كان شرق أوروبا هو وطن اليهودية الأفضل (لم يكن عبثا ان سميت «فيلنا» أورشليم ليتوانيا). لذلك فلا عجب أن تكون إسرائيل «مستعمرة روحية لاحياء اليهود فى شرق أوروبا» كما قال يهودى من أصل غربى.

ومع ذلك، فقد كانت أحياء يهود شرق أوروبا منقسمة على نفسها، كانت فى حالة ثورة ضد نفسها، ضد تراثها وارثوذكسيتها، وضد العالم الخارجى ، وقد اتخذت هذه الثورة الصورتين المتعارضتين : الصهيونية والاشتراكية الماركسية الثورية.

وبينما كانت كل من الاشتراكية والليبرالية والصهيونية في الغرب، متقاربة معا، كانت فى شرق أوروبا فى حالة تنافس حاد على ولاء الجماهير اليهودية. كانت هناك دائما هوة عميقة بين اليهودى الصهيونى واليهودى المعادى للصهيونية. كان المعادى للصهيونية يحرض اليهود على الثقة بمحيطهم غير اليهودى، وان يساعدوا القوى التقدمية فى هذا

المحيط لكى تصل إلى القمة، وبذلك يساعدون هذه القوى على أن تدافع على نحو فعال عن اليهود ضد اللاسامية. كانت الحجة الرئيسية لأجيال من اليساريين اليهود أن «الثورة الاشتراكية ستمنح اليهود المساواة والحرية، وبذلك لا يكونون فى حاجة إلى الصهيونية». لكن الصهاينة فى الجانب الآخر كانوا يقارعونها بالكراهية العميقة المستكنة التى يكنها غير اليهود لليهود، وكانوا يحرضون اليهود على ألا يضعوا أمانة مستقبلهم فى أى يد غير يد دولتهم، وفى هذا الصراع أحرزت الصهيونية نصرا مفزعا، نصرا لم تكن تفكر فيه أو تتوقعه. فقد كان لابد أن يهلك ستة ملايين يهودى فى غرف الغاز الهتلرية لكى توجد إسرائيل، وكان أفضل لو أن إسرائيل لم تولد وبقى الستة ملايين يهودى أحياء. لكن من ذا الذى يستطيع أن يلوم الصهيونية أو إسرائيل على هذه النتيجة، ان إسرائيل تمثل ما هو أكثر من مستعمرة روحية لأحياء اليهود فى شرق أوروبا ، إنها تمثل نضالهم المأساوى العظيم من أجل البقاء، بحيوية تبهر الأنفاس.

إن صهيونية شرق أوروبا رجعية بالضرورة، ومع ذلك فقد استنشقت نسيم الثورة الروسية، نسيم تلك الحركة الشاسعة من الأفكار الثورية التى سبقت الثورة البلشفية، ووصلت إلى قمتها فى تلك الثورة، لقد تركت حركة هذه الأفكار على الصهيونية أثرا لا يمحى.

ان اليهودى الشاب الذى لم يثق بالمعتقدات الثورية الروسية أو البولندية، فى كييف أو أوديسا أو وارسو، وتطلع إلى الريادة من أجل الدولة اليهودية فى فلسطين ، كان كقاعدة عامة منوما مغناطيسيا بالمعتقدات التى هرب منها، واكتشف ذلك بعد أن ألقى مراسيه فى فلسطين. جاء إلى فلسطين بفتات من مائدة الثورة الروسية واستخدم هذا الفتات كبذرة يبذر بها صحارى الجليل وسماريا ويهوذا المقدسة.

فى تل أبيب، فى مبنى الهستادروت الجديد المهيب ، يكون بعض القادة على رسلهم عندما يتحدثون بالروسية، أكثر منهم عندما يتحدثون أى لغة أخرى، رغم انهم هاجروا من روسيا منذ أكثر من ثلاثين سنة. وما أن استقبلنى بن جوريون حتى انطلق فى محاضرة عن الثورة الروسية. وواضح ان الموضوع يبهره.

قال : «ثمة رجل واحد كان يستطيع انقاذ العالم كله، لكنه، لسوء الحظ، أضاع فرصته، ذلك الرجل هو لينين».

وبن جوريون يهودى بولندى أكثر مما هو روسى لكن هذا الحكم الفج هو تناؤه غير المقصود على الثورة الروسية.

وعندما تسأل موردخاى تامير، السكرتير العام للهستادروت عن المبدأ التنظيمى الذى يوجه الهستادروت يجيب بثقة لا تهتز :

«إن المبدأ الحاكم هنا هو الديموقراطية المركزية. ألا تعرفها؟».

والديموقراطية المركزية بالمعنى الدقيق، ليست بالطبع اختراعا روسيا أو بلشفيا. لقد جاء بها الروس والبلاشفة من غرب أوروبا، لكنها جاءت إلى إسرائيل وإلى الهستادروت من روسيا.

إن في إسرائيل تفاوتات بين الغنى والفقر. فالمسافة بين حجرات المعسكرات الانتقالية في معايارا، المخصصة للمهاجرين المفلسين، والفنادق والفيللات الفاخرة على جبل الكرمل هي مسافة شاسعة جدا في الحقيقة، لكن هناك أيضا احساس منتشر وحاد بالخجل بسبب تلك التفاوتات، احساس بالخجل يشبه ما وجد في روسيا تولستوي وتشيكوف. فبين الطبقة العاملة تسود روح مساواة حية مثل تلك التي ازدهرت في روسيا السوفيتية قبل أن تقتلعها الستالينية. وتتمسك النقابات بسياسة أجور تقوم على شبه مساواة فمستويات أجور العمال المهرة وغير المهرة، موظف المكتب والمهني وموظف الحكومة، تتفاوت من حيث الحجم تفاوتا محدودا نسبيا. ويشكو الناس من أن نقص الأجر الحافز يعوق تقدم إسرائيل الاقتصادي.

ان الكيبوتز (الوحدة الزراعية الجماعية) هو مثال المساواة الإسرائيلية، كما انه أهم ملامح صورة إسرائيل المعنوية والفكرية، والكيبوتز سليل غير مباشر لفكرة من أفكار النارودنيك (أو الشعبيين) الروس. ويبدو أن رؤيا نارودنيكية للاشتراكية الزراعية هي التي تجسدت في الواحات اليهودية المبعثرة فوق ما كان من قبل صحراء عربية.

ولقد بشر النارودنيك باشتراكيتهم الزراعية فى النصف الثانى من القرن الماضى، عندما لم تكن روسيا تملك بعد أى صناعة حديثة، ولقد جاء «أحباء صهيون»، الرواد الأول للصهيونية الحديثة، من روسيا إلى فلسطين من قبل أن تخبو اليوتوبيا النارودنيكية تماما. وجاءت موجة الهجرة التالية بعد هزيمة الثورة الروسية فى ١٩٠٥ - ١٩٠٦ وأقام رجال تلك الموجة عددا من أعظم وأجمل الكيبوتزات فى الجليل قرب طبرية وفى تلال يهودا على مشارف القدس، ووصلت الكتيبة التالية من المهاجرين بعد الثورة البلشفية، أما اليهود الروس الأغنياء الذين نجحوا، عندما هاجروا، فى انقاذ بعض ثروتهم، فقد استقروا فى برلين أو باريس أو لندن، أما الذين جاءوا إلى فلسطين فقد كانوا ملهوفين على انقاذ حلمهم بالدولة اليهودية ليس غير.

وفى روسيا، فى ظل السياسة الاقتصادية الجديدة ، شجعت حكومة لينين حفنة من الفلاحين المثاليين ومثقفى الحزب على تكوين جماعيات زراعية تجريبية تطوعية، اعتبرت «معامل للمستقبل»، لا يجوز الخلط بينها وبين المزارع الجماعية فى عهد ستالين. ولقد انشئت الكيبوتزات الجديدة على نمط تلك الجماعيات الروسية المبكرة ، بنيت بأيد صبيان وبنات تركوا بيوتهم وأنضموا إلى منظمات صهيونية اشتراكية راديكالية مثل هاشومير ، هاتزير لا لكى يناضلوا فى صراعات طبقية، وإنما لكى

يجففوا مستنقعات الحولة، وليغطوا سفوح الكرمل وسماريا بخضرة الكروم والحدائق.

والكيبوتز مؤسسة فريدة من الناحية الاجتماعية. وترجع أصول الكيبوتزات الأولى ربما إلى ما هو أبعد من الشعبية الروسية القديمة، ربما نجدها فى تصميمات فورييه لمستوطناته التعاونية، أو فى تجارب روبرت اوين التعاونية، وفى غيرها من المشروعات الغربية البارعة للعصر الكلاسيكى للاشتراكية الخيالية. ومثلهم مثل الاشتراكيين الخياليين. داعب مؤسسى الكيبوتز الأمل فى تحقيق الاشتراكية عن طريق القدوة الشخصية بدلا من أى إطاحة ثورية مبرمجة بالمجتمع القائم. وتصادف أن لم يكن فى الصحراء الفلسطينية أى مجتمع قائم، وكانت الصروح التى تبنيها الاشتراكية الخيالية فى الهواء تنهار عادة بمجرد إقامتها. والكيبوتز مبنى فعلا على الرمال، لكنه أبدى صلابة أكبر. وستحتفل أقدم الكيبوتزات قريبا بعيدها الذهبى، وهناك كيبوتزات كثيرة يبلغ عمرها عشرين أو ثلاثين سنة، وقد أوغلت فى الرخاء والنجاح.

والذى لم ير الكيبوتز لا يكاد يستطيع أن يتخيل شجاعة وأصالة الفكرة وتطبيقها، فالكيبوتز يتكون عادة من بضع مئات من الأعضاء يعيشون فى مساكن صغيرة، تكون أحيانا مبنية ومؤثثة بذوق جمالى رفيع، وثمة صفوف مقابلة من الأكواخ البيضاء المحاطة بشرائح الزهور، هى غرف الطعام العامة والمكتبات والمدارس والمركز الطبى

وغيرها من المباني ذات النفع العام، مع ورش وحظائر على أطراف المستوطنة، وتقسيم العمل بين أعضاء الكيبوتز تطوعى ، وتتزايد كفاءته مع التقدم فى التقنية الزراعية، كما توجد فى بعض الكيبوتزات مصانع اضافية ذات أحجام لا بأس بها، وساعات العمل تسعة للأعضاء دون سن الخمسين وأربعة لمن هم أكبر من ذلك، وإذا أبدى أى عضو استعدادا علميا أو فنيا فمن حق هيئة المستوطنة أن تقلل ساعات عمله أو أن تمنحه سنة تفرغ.

والمكافآت العينية متساوية للجميع، والطعام والملابس والأثاث ، والمؤن الطبية والسجاير والكتب ، (بل واللوحات أو المنتجات الفنية) توزع كلها من صندوق جماعى : «لكل حسب حاجته» ، ويحصل كل عضو على بضعة ليرات كمصروف شخصى ، ويتوقف مستوى المعيشة فى أى كيبوتز على حجم الصندوق الجماعى أو على الثروة المتراكمة على مر السنين ، وعلى إنتاجية العمل الجارى ، وعلى الربح الذى يحققه جهاز التسويق الذى يبيع فائض الإنتاج لمشترين من الخارج.

وقد امتد المبدأ الشيوعى بشجاعة إلى تعليم الأطفال ، الذين يتربون داخل الكيبوتز ، لكنهم يعيشون فى أماكنهم الخاصة ، ويقضون مع ذويهم ساعتى فراغ فى المساء ، وقد لاحظت أن أعضاء الكيبوتز قد تعودوا على التربية الجماعية للأطفال إلى حد أنهم بطريقة طبيعية

تماما، غير مفتعلة ، يتحدثون عن جميع الأطفال فى الكيبوتز كأنهم يتحدثون عن أطفالهم هم.

والكيبوتز فى بعض النواحى ، مزيج من معسكر الكشافة ودير البندكتين ، يضيئه غياب النظام الجبرى وسهولة ووضوح أهداف العلاقات الأنسانية ، ولدى أعضاء الكيبوتز كل دواعى الفخر بمعنوياتهم، وهم يدركون ذلك تماما ، وهم يروون لك أنه أثناء الحرب زار المبعوث الدبلوماسى السوفيتى هو وهيئته كثيرا من الكيبوتزات محاولين أن يروا وجه المقارنة بينها وبين المزارع الجماعية السوفيتية ، وكانت حصيلة المقارنة – طبعا – فى غير صالح الكولخوزات السوفيتية التى تعتمد على الموجيك المكرهين ، الكسالى ، المتخلفين ، بينما بنيت الكيبوتزات بشجاعة مثقفين وعمال مثاليين وتضحيتهم بالنفس . وفى أحد الكيبوتزات ، بعد أن تفقد المبعوث السوفيتى معمل الألبان الحديث، والمدرسة ، ومكتبة المزرعة المكونة مما كان مكتبات عشرين أستاذا (جامعيا ألمانيا) وحلبة المسرح ، ثم طلب الدبلوماسى السوفيتى أن يرى سجن الكيبوتز .

وكانت الإجابة : «ليس عندنا سجن هنا» .

فصاح الدبلوماسى : «مستحيل ! وكيف إذن تتعاملون مع المجرمين والمذنبين ؟ » .

وحاول أعضاء الكيبوتز أن يشرحوا له أنهم حتى الآن لم يضطروا إلى مواجهة ذنب له من الخطورة ما يجعله يستحق مثل هذه العقوبة، وان هذا طبيعي تماما ، فالأعضاء يختارون بأقصى قدر من العناية ، وهم رجال ونساء على مستوى عال من الخلق الاجتماعي ، والمتذمرون لهم حرية المغادرة ، وفي الحالات القصوى يستطيع الكيبوتز أن يطرد من يراه غير ملائم من بين أعضائه ، وكان هذا الكيبوتز بالذات تحت سيطرة حزب المابام الموالي للستالينية ، لكن المبعوث السوفيتي رفض أن يصدق ما قيل له :

وقال «مؤكـد أن مجتمعا من عدة مئات لا يمكن أن يعيش بغير سجن !» .

لم يخف الروسي ميله إلى الشك ، وأصر أنه يعتبرها نكتة جيدة ، أن يحدث أن يعرض اليهود على روسيا قريتهم البوتيمكينية .

وعلى كل ، فان حوالي ٧٠ ألف نسمة فقط ، ليس أكثر من خمسة بالمئة من سكان إسرائيل يعيشون في الكيبوتزات ، هؤلاء هم آباء إسرائيل الروحيين ، ونفوذهم أعظم بكثير من عددهم ، وفي المدن تقابل أناسا كثيرين ، انتموا في وقت أو آخر إلى كيبوتز ، ومازالوا يستجيبون لجاذبيته المثالية ، وكثيرا من سكان المدن يحبون أن يرسلوا أطفالهم إلى مدارس الكيبوتز المشهورة بأساليبها التعليمية العصرية جدا .

فى ظل الانتداب البريطانى كان وزن الكيبوتز فى حياة فلسطين أكبر كثيرا مما هو الآن. كان السكان اليهود عندئذ أقل عددا. ولم يكن هناك جهاز حكومى يهودى ، ولا جيش يهودى ، ولا شرطة ولا قضاء ، فكان الكيبوتز بتنظيمه المحكم ومعنوياته العالية ونظامه يشكل نوعا من دولة ظل يهودية . وكثير من الموظفين المدنيين الحاليين ومن الرسميين جاءوا من الكيبوتز ، وظلوا كقاعدة عامة أعضاء فى جماعياتهم الزراعية، وبعضهم يحاول أن يجمع بين خدمة الدولة والعمل فى الكيبوتز، وهذا ممكن فقط بسبب صغر الدولة وبسبب الطبيعة القبلية على نحو ما للمجتمع الإسرائيلى . فى أحد الكيبوتزات مثلا ، اكتشفت أن سائق الجرار كان سابقا سفير إسرائيل فى براغ وبودابست وفى كيبوتز آخر ، قابلت راعى غنم، طويل قوى ، لوحته الشمس ، حافى القدمين (يشبه كثيرا داوود فى لوحة مايكل انجلو) . يسوق القطيع عائدا من الحقول فى وقت الغروب الذهبى ، وقيل لى أن هذا كان واحدا من قادة الجيش الإسرائيلى أثناء حرب «التحرير» سنة ١٩٤٨ .

مازال الكيبوتز هو محطة الطاقة المعنوية لإسرائيل ، لكنه منذ بعض الوقت يعيش على شفا الأزمة ، فقد غطت عليه الدولة الجديدة البازغة ، وهزة تدفق المهاجرين الجدد ، أن رواد الصهيونية يشاركون غيرهم من الرواد المصير الحزين : هزمهم نجاحهم نفسه .

فمنذ ١٩٤٨ ، تضاعف سكان إسرائيل . والقادمون الجدد ليسوا من طينة المثاليين الذين جاءوا في الهجرات القديمة ، أنهم حطام معسكرات الاعتقال ، انهم بقايا وحثالة يهود أوروبا ، وجماهير كبيرة من اليهود الشرقيين ، اللاجئين نجاة من الكراهية العربية والثأر العربي. وبالنسبة لكثيرين من المهاجرين الجدد ، تبدو أفكار الآباء الروحيين الصهاينة غريبة وغير مفهومة ، وبالنسبة لهم يبدو حانوت صغير أو كشك لبيع السجاير في مكان ما من المدينة ، أفضل وأدعى للاحترام ألف مرة من العجائب الجماعية التي يقدمها الكيبوتز . أن عشرات الألوف من هؤلاء المهاجرين الجدد مازالوا يعيشون في المعسكرات الانتقالية ، بل أن بعضهم يرفض الانتقال إلى المساكن الجديدة التي تبنيها لهم الحكومة ، انهم يفضلون أن يعيشوا مجانا في جحورهم القديمة على أن يدفعوا ايجارا لبيت جديد . إن عددا قليلا يهاجر مرة أخرى عائدا إلى تونس أو المغرب ، فان اقتصاد البلاد لا يستطيع استيعابهم إلا ببطء وألم ، ان استطاع استيعابهم بالمرة ، وعبثا يدعوهم الكيبوتز إلى الانضمام إلى صفوفه كأعضاء متساوين.

«نحن أبناء مدن ، لن نصبح ريفيين سذج !» : هكذا يجيب من كانوا خياطين في بوخارست ، وباعة جوالين في فيلنا .

ويقـــول البـــعض : «نريد أن نكسب نقـــودنا ، وان نجنى بعض المدخرات ، نحن نؤمن بالملكية ، الملكية العامة ليست لنا !».

ويقول أخـرون : «لا نريد أن نأكل فى غـرف طعام جماعيـة طوال حياتنا ، وان يفصل عنا أطفالنا » .

ومـازال آخرون يسـألون : «وظفـونا كـعمـال واجـراء عندكم ، لكن ادفعوا لنا نقدا ، ولا تطلبوا منا أن نكون أعضاء فى جماعيتكم !»

وهذه أكثر من اهانة لعقيدة الكيبوتز ، وهى أيضا تخلق (أو ربما فقط تضع تحت الضوء) حيرة معنوية جدية، فالكيبوتز يجد نفسه فى مواجـهة طلب بأن يصبح «صاحب عمل رأسمالى» . والغريب أن هذا الطلب يأتى ممن يمكن أن يكونوا عمـــالا واجراء . وبالنسبة للكيبوتز ، ان يســتـأجـر عـمـالا ، معناه أن يتـخلى عن مـبـــدئه الأول ويخـونه ، هكـذا على أى حال ، تشعر جمهرة الأعضاء حتى من الكيبوتزات التى تنتمى إلى اشتراكية المابای المعتدلة ، من الناحية الأخرى ، فالحكومة التى يرأسـها قـادة المابـــاى ، مـهـتـمـة باسكان المهاجرين الجـدد ، وتدعـو الكيبــوتز إلى التـخلى عن «التطهـر العـقـائدى» وان يستـأجـر العـمـال العـاطلين من المعسكرات الانتـقـاليـة ، كـمـا تصـدر الأصـوات الداعيـة إلى نفس الشىء من داخل الكيـبـوتز ، فـقـد توسع اقـتـصـاد الكوميونات الزراعية جدا فى السنوات الأخيرة لكن عضويتها تميل إلى الثـبـات ، لابد من اســـتـئـجـار عـمـال من الخـارج للمـحـافظة على التـــوسع ومنع الركود . «أن نستأجر أو لا نستأجر» : تلك هى القضية

الاخلاقية التى يدور حولها النقاش الحاد الآن . ولقد فتحت فعلا بعض الثغرات في قلعة الملكية العامة ، اذ توجد الآن مجموعات من الاجراء في داخل حدود كثير من الكيبوتزات . ويجتهد المنظرون ليخرجوا صيغا جديدة تستهدف وضع حد لكمية العمل المستأجر . وتقسم كل الكيبوتزات من «دان الى بئر سبع» الا تصبح ابدا مشروعات رأسمالية ، وبغض النظر عن تصاعد فيضان الرأسمالية خارج جدرانها .

وهكذا تعيد قصة الاشتراكية الخيالية نفسها فى اسرائيل ، فان كل المؤسسات التجريبية للاشتراكية الخيالية كان مصيرها إما الأنهيار او التحول الى مشاريع رأسمالية ذات كفاءة . وقد يكون هذا هو المصير النهائى للكيبوتز ايضا مالم يغير تحول اجتماعى مافى الشرق الأوسط من محيط الكيبوتز .

إن الكيبوتز الان يناضل للاحتفاظ بأرضه ، تساعده فى ذلك حقيقة كونه يخدم مصلحة وطنية عامة . فهو مازال الشبكة الرئيسية فى دفاع اسرائيل ، وقد تحمل وطأة الحرب عام ١٩٤٨ ، مقاتلا معارك الطليعة والمؤخرة . وهيكل تنظيم الكيبوتز يجعل منه مستوطنة مثالية للحرس الشعبى (الميليشيا) . وفى كل كيبوتز يأخذونك الى المقبرة المحلية ، يرونك قبور أزواجهم وأخواتهم ، الذين قتلوا فى العمل ضد العرب ، والأنصاب القائمة للذين سقطوا ، أقامها النحاتون المحليون

(بعضهم يتمتع بشهرة عالمية) . واذا تصادف ان وصلت الى كيبوتز بعد الغسق ، فان الحارس الذى يستوقفك وفى يده بندقيته الآلية عند بوابة الكيبوتز قد يكون فتاة فى الثامنة عشرة ، وأغلب الكيبوتزات قريبة من الحدود ، وعليها تقيم اسرائيل كل خططها للدفاع عسكريا ومعنويا .

إن معاقل الاشتراكية الخيالية فى اسرائيل متحفزة بالبنادق الآلية.

★★★

تتأثر نظرة اسرائيل الثقافية تأثرا شديدا بالتغيرات فى تركيب الشعب . ففى ظل الانتداب البريطانى ، كان اليهود الذين ينتمون الى أصول أوروبية يشكلون الأغلبية الساحقة ، أما الآن فليسوا سوى أقلية ، فالمهاجرون من آسيا وأفريقيا ، يشكلون أكثر من خمسين بالمئة من شعب اسرائيل .

إن اليهود القادمين من شمال افريقيا الفرنسية ، ذوى النظرة نصف العربية نصف الفرنسية ، يجلسون مع عائلاتهم أمام أكواخهم وحوانيتهم التى استولوا عليها من أصحابها العرب ؛ الآباء يتحدثون فى شئون الحوانيت ، ويتحدثون عن مزايا ومساوىء العودة الى المغرب أو تونس . بينما أبناؤهم يقرأون ويناقشون العدد الأخير من مجلة «نوفيل ليترير» الباريسية . ثم هناك يهود إيران بملابسهم

المصنوعة من الفراء الأسود ويهود العراق ويهود تركيا، بعضهم قد اكتسب صبغة غربية ، وبعضهم مازال محافظا على طابعه الشرقى . ويهود بخارى بملابسهم الحريرية البيضاء الواسعة التى يرتدونها فى أيام السبت ، ويطلقون لحى توراتية خفيفة . وأخيرا هناك اليمنيون بعيونهم السوداء البراقة وسوالفهم الطويلة السوداء المجعدة ، التى تتدلى عن رءوس محلوقة بالموس ، تزحم بناتهم أسواق العمل التى تعقد فى الهواء الطلق ، بحثا عن عمل كخادمات فى المنازل .

تروى قصة مجىء الطائرات المدنية البريطانية بأكثر من خمسة وأربعين الف يمنى الى اسرائيل ، مابين رجال ونساء وأطفال ، وقد صعدوا فرحين الى الطائرات التى لم يكونوا قد شاهدوها من قبل . كانوا يعتقدون أن هذه هى «أجنحة النسر الأبيض» التى كان مقدرا لهم ، حسب نبوءة قديمة ، أن يعودوا عليها الى الأراضى المقدسة ، عندما يعود المسيح . لكنهم عندما هبطت الطائرة أصابهم خوف قاتل عندما طلب منهم أن يصعدوا الى سيارات ستحملهم من المطار الاسرائيلى ، الى المعسكرات الانتقالية ، فلم يكن فى النبوءة ذكر لمثل هذه المركبات .

هنا لم يعد اليهود مجرد فائض أوروبا الذى قذفته الى آسيا ، كما كان الحال لسنوات طويلة ، فقد ساهم حوض البحر المتوسط ، وساهم جنوب الجزيرة العربية فى اسرائيل . لكن كيف يمكن أن يؤثر هذا

اللقاء بين الشرق والغرب على نظرة اسرائيل الثقافية ؟ فى القدس فى تل ابيب ، يسمع المرء كل انواع النظريات والتلفيقات . والبعض يشير الى نسبة المواليد العالية لدى اليهود الشرقيين ويتنبأ لاسرائيل بحتمية تمشرقها ، بينما يتوقع آخرون «مزيجا» وحضارة اسرائيلية جديدة . اما انا فأعتقد ان اليهود الغربيين سيتمثلون اليهود الشرقيين. انهم يمثلون الحضارة الارقى ، التى تقهر الحضارة الادنى عادة ، وهم بالفعل يقهرونها عبر المدرسة والجيش ، وكلاهما له أهميته الحاسمة فى توحيد لغة اسرائيل وثقافتها وعاداتها .

فى نفس الوقت يمكن ملاحظة عداوة معينة بين اليهودى الشرقى واليهودى الغربى . فاليهودى الغربى يتولى كل المراكز المهمة فى الوظائف المدنية والجيش والتعليم والصناعة والتجارة والمال . بينما يشعر اليهودى الشرقى انه مواطن من الدرجة الثانية ، ضحية للصلف والتمييز الاوروبيين (وفى بعض الاحيان يشكون من وجود حاجز لونى) . إن المظالم التى اعتدنا سماع اليهود يرددونها ضد غير اليهود تتردد هنا بين يهودى ويهودى . أن بعض اليهود الشرقيين يجدون أن وضعهم الاجتماعى أدنى منه فى بلدهم القديم . وعلي سبيل المثال ، ففي شمال افريقيا الفرنسية كان التاجر اليهودى فى مركز وسط بين المعمر الفرنسى وبين العربى المتخلف ، وكان يحتل مكانا فى وسط السلم الاجتماعى ، أما فى اسرائيل فإنه فى أسفل السلم . ففى

مواجهة اليهودى الأوروبى يجد نفسه فى وضع مماثل لوضع عرب شمال أفريقيا بالنسبة للفرنسى .

واليهودى الاوروبى يدرك حسد اليهودى الشرقى له وغضبه منه ، وفى بعض الاحيان يخاف منه ، بل أنه يمكن أن تسمع التشكيك بولائهم كمواطنين .

«اللع وحده يعلم ، فى وقت الأزمة قد يمدون اياديهم إلى العرب ، فليس هناك فرق كبير بينهم وبين العرب ، هل ثمة فارق !» .

وربما لم تكن هذه وجهة نظر تؤخذ مأخذ الجد ، لكنها تعكس وجود التوتر . كما أن البعض يعتقد أن عداء اليهود الشرقيين يمكن اشعاله واستغلاله مثلا من جانب التحريفيين (الصهاينة) وهو الحزب الفاشستى القومى ، والذى تبدو قوته الان تافهة ، وفى نفس الوقت تتحرك كل الاحزاب والزعماء ، وأعينهم على النصف الشرقى من الشعب ، فى محاولة لازالة حساسياتهم والتأثير فى معنوياتهم . وعندما يدعو بعض كبار الرسميين إلى اتباع سياسة خشنة نحو العرب لان الشرقيين أميل إلى اعتبار أى سياسة أخرى علامة ضعف ، فانه لا يكون فى حسابهم العرب وحدهم ، وانما الاسرائيليين الشرقيين ايضا . إن أعمال «الردع» التى تمارس ضد العرب ، بما فى ذلك مذبحة «قبية» استهدفت التأثير فى معنويات الاسرائيليين الشرقيين بقدر ما استهدفت إخضاع العرب .

إن أغلب اليهود الشرقيين ارثوذكسيون فى المسائل الدينية ، ويتبعون أحيانا قيادة حاخامات شرق أوروبا المتعصبين . ولقد كان

هذا هو الحال في المظاهرات الصاخبة ضد إدخال الخدمة العسكرية الاحتياطية للنساء . ومع ذلك فان أورثوذكسية اليهود الافريقيين والاسيويين تستوحى المحافظة الاجتماعية أكثر مما تستوحى التعصب الديني الاعمى ، وهي على اى حال أكثر مرونة وتسامحا من أورثوذكسية اليهود الأوروبيين . فان الحاخامات البولنديين والروس والليتوانيين هم بين أكثر المتعصبين الدينيين في العالم ضراوة ، وارتباطهم بـ الـ «مي شاريم» (المئة بوابة) يمثل تمسكا حقيقيا بالعصور الوسطى اليهودية .

وبرغم الاسم الذي يوحي بالآثار الشرقية الرومانتيكية ، فان «المئة بوابة» يرجع تاريخها فقط الى القرن الماضي . فقد نشأت في ذلك الحي القديم من القدس الذي يستقر فيه عجائز اليهود المتدينون عندما يجيئون الى فلسطين ليموتوا في الارض المقدسة . وفي كل لحظة من النهار ، تردد صفوف من البيوت السكنية المزدحمة القذرة أنغام الصلوات وقراءات التلمود . وفي الـ «مي شاريم» يوجد من الكنائس ومدارس التلمود ، والحوانيت التي تبيع ادوات الطقوس الدينية قدرما يوجد فيها من مساكن . ويرتدي السكان ذوو اللحى الطويلة والعيون الغائمة والوجوه الشاحبة اردية طويلة سوداء ، حتى في اشد أوقات الحر . كذلك يفعل الصبيان الصغار الذين يتمتعون بدراسة معلقي التلمود على مرمى حجر من جبل صهيون . وهنا مازال شعار

الـ «ميشنا» (اساس التلمود - وهو مجموعة شرائع غير مكتوبة) الرهيب فى كامل قوته ، ذلك الشعار الذى يقول انها خطيئة قاتلة ان يقول اليهودى : «أنظر ، ما أجمل تلك الشجرة هناك» ، لأن الاله وحده هو الذى يجوز ان يكون موضع الأعجاب . ويتجه رجال بل صبيان الـ «مى شاريم» بأنظارهم الى انفسهم او الى أسفل ، وبذلك يتجنبون القاء نظرة خاطئة على الشجرة او على المرأة العابرة . هنا يمكن طرد المارق من الكنيس على صوت قرن الخروف وعلى ضوء شمعة ، لأنه اين يمكن تنفيذ القانون الحاخامى بكل تشدده ان لم يكن بقرب الـ Gan Himan .

كل يوم جمعة قبل الغسق يحتل المتعصبون من الـ «مى شاريم» الممر المؤدى من وسط المدينة الى احيائهم ويستقبلون يوم السبت برقص محموم ، ويوقفون حركة المرور كلها حتى الليلة التالية ، وويل للعابر الذى يغامر بالسير فى يوم سبت فى شوارع «مى شاريم» الملتوية وفى فمه غليونه او فى ذراعه فتاة . فلسوف يتساقط عليه وابل من الأحجار لان الـ «مى شاريم» يؤمنون برجم الخاطىء طبقا للتوراة . واذا غامر طبيب فى سيارة او سيارة اسعاف بالسير فى هذه الشوارع الملتوية فى يوم سبت ، فسيسقط عليه ايضا وابل من الاحجار .

ان الـ «مى شاريم» مهمة ، ليس بسبب «لونها المحلى» الغريب لكن

بسبب نفوذها على مناخ اسرائيل الفكرى . ولا يجوز التقليل من قيمة ذلك النفوذ ، فالكيبوتز والـ «مى شاريم» ، هما العمادان المتعارضان لحياة اسرائيل الروحية . و«المفكرون الاحرار» و«المناضلون التقدميون»، من اليهود ، يتضاءلون جدا عندما يتركون وحدهم مع الارثوذكس اليهود . وهكذا فانه فى اسرائيل مازالت الشريعة التلمودية تحكم علاقات الزواج والاسرة . وليس هذا الا بعض من الحيز من الحياة اليهودية الواقع تحت سيطرتها ، فحتى وقت قريب جدا ، كان حاخام ارثوذكسى من الطراز القديم ، يكاد يكون بلا تعليم علمانى على الاطلاق ، عميدا لكلية الحقوق فى جامعة اورشليم . وفى كل خطوة يلتقى الانسان بشاهد يدعم التهمة القائمة القائلة بأن فى اسرائيل ماهو اكثر بكثير من لمسة لاهوتية قديمة .

ولقد ناقشت ذلك مع رئيس تحرير صحيفة يسارية رفيعة الثقافة ، وهو كاتب موهوب ترجم شكسبير الى العبرية ، واعترض بشىء من الحرارة على ملحوظة بأن اسرائيل واقعة تحت السيطرة الروحية للـ «مى شاريم» . لكنه عندما الححت عليه بالاسئلة ، اعترف بأن الاسرائيليين قدموا للارثوذكسية الدينية تقديرا غير قليل . ولنأخذ مثلا مضحكا مبكيا : انه لايجوز لهم ان يقوموا بتربية الخنازير ، رغم ان تربية الخنازير يمكن ان تحل بسرعة مشكلة اسرائيل الغذائية وتصحح ميزان المدفوعات . ان الـ «كيرين كايمت» (الصندوق القومى)

الذى يملك معظم الاراضى ، يؤجرها بشرط صريح ينص على ان المستأجر لن يربى خنازير ، وهكذا فان الكيبوتز اللادينى المنتمى الى اقصى اليسار عليه ان يمتثل لارادة الحاخامات . لقد حاول المحرر فى البداية ان يجد مبررات «تقدمية» من كل لون ، لكن وجهه احمر اخيرا وفقد اعصابه وصاح :

«هل تقترح حقيقة انه لكى نحل مشكلتنا الاقتصادية ، يجب ان نسمح بتربية الخنازير فى هذه الارض المقدسة ؟ أبدا ، أبدا ، أبدا !»

★★★

إن كثيرا من الاسرائيليين الذين عرفونى عدوا مزمنا للصهيونية ، يتطلعون الان بفضول ليسمعوا رأيى فى الصهيونية ، وانا بالطبع قد تخليت منذ زمن طويل عن عدائى للصهيونية ، ذلك العداء الذى كان مبنيا على الثقة بالحركة العمالية الأوروبية ، أو على قاعدة اعرض من الثقة بالمجتمع الأوروبى والحضارة الأوروبية ، وهى ثقة لم توفها تلك الحضارة حقها ، ولو اننى بدل الجدل ضد الصهيونية فى العشرينيات والثلاثينيات ، كنت قد دعوت اليهود الاوروبيين للهجرة الى فلسطين ، ربما كنت قد ساعدت فى انقاذ بعض الأرواح التى ابيدت بعد ذلك فى غرف الغاز الهتلرية .

بالنسبة لبقايا يهود اوروبا (هل هذا بالنسبة لهم فقط؟) اصبحت الدولة اليهودية ضرورة تاريخية ، وهى حقيقة حية ايضا . ايا كانت

انقساماتهم ومصائبهم وفشلهم ، فان يهود اسرائيل . ينعشهم احساس قوى وطازج بالقومية وتصميم عنيد على تدعيم وتقوية دولتهم بكل ما فى متناولهم من وسائل ، كما ان لديهم الشعور – المبرر – بأن «العالم المتحضر» الذى يحمل فى ضميره مصير يهود اوروبا على نحو او آخر ، لايجد له ارضا معنويـــة يقف عليها ، عندما يحاول ان يوبخ او يهدد اســـرائيل بسبب اى خرق حقيقى او متخيل للالتزامات الدولية .

ومع ذلك ، فأنا الان ، لست صهيونيا ، وقد قلت ذلك مرارا علنا وفى احاديث خاصة ، والاسرائيليون يقبلون ذلك بتسامح غير متوقع ، لكنهم يبدون حائرين .

يسألون : «كيف يمكن الا تعتنق الصهيونية ؟ اذا كان المرء يعترف بدولة اسرائيل كضرورة تاريخية ؟»

وياله من سؤال صعب وأليم !

من سفينة محترقة او غارقة ، يقفز الناس ، لا يهم الى اين ، الى قارب نجاة ، الى طوف ، او الى خشبة . ان القفز بالنسبة لهم «ضرورة تاريخية» والطوف على نحو ما ، هو اساس وجودهم كله . لكن هل ينبنى على ذلك ان يصبح القفز برنامجا ، او ان يتخذ المرء من «دولة طوف» اساسا لفكر سياسى ؟

وفى رأيى انها مـأساة يهودية أخرى ان العالم قد اضطر اليهود

الى البحث عن الأمان فى دولة قومية ، فى وسط هذا القرن ، حيث تتجه الدولة القومية الى التحلل .

لمدى عدة قرون ، كان كل تطور تقدمى فى حياة الأمم الغربية مرتبطا بتكون ونمو الدولة القومية او بحركة الدولة القومية . ولم يكن اليهودى مرتبطا بتلك الحركة ولم يستفد منها ، بقى سجين كنيسه وولاءاته الدينية . بينما جعل الانسان الغربى الولاءات الدينية تابعة للولاءات القومية ووجد وضعه داخل امته بدلا من داخل الكنيسة، والآن فقط ، عندما لم يعد وضع الانسان ينمو داخل الامة ، وعندما اصبح لايجد نفسه الا فى نطاق مجتمع اكبر من القومى ، وجد اليهودى امته ودولته ، يالها من مفارقة محزنة .

يقول أصدقائى الاسرائيليون : «لكن أرنا تلك الامة التى تخلت عن دولتها من أجل حكم كوسموبوليتى أو أممى»

لم يفعل احد ذلك طبعا ، ولم يدر بخلدى ان اقنع الاسرائيليين بأن يفعلوا ذلك ، لكن المسألة هى ان الدولة القومية تتآكل وتتقلص ، سواء ادرك الناس ذلك ام لا ، ولا اهمية لجهودهم للابقاء عليها ، وهو تطور عالمى مهما تنوعت مظاهره المحلية . ان قدرا كبيرا من قوة الكتلة السوفيتية متضمن فى سعيها لان توحد اقتصاد الرقعة الممتدة من وسط اوروبا الى بحار الصين وتوحد القوى الانتاجية للثمانمئة مليون الذين يسكنون المنطقة ، ولتحقيق ذلك حولت السياسة

الستالينية السيادة القومية الى خدعة ، رغم انها تركت رموزها الخارجية سليمة . وتحتفظ الدول القومية الغربية بما هو أكثر من الواجهات الرمزية ، لكنها ايضا ، قد تخطت عصرها الذهبى بكثير جدا . وماتمسكها بسيادتها فى أغلب الأحوال الا مصدر ضعفها ، وكأى جهاز عصرى عاش أكثر من عمره ، لاتستطيع الدولة القومية ان تطيل بقاءها ، الا بزيادة وتيرة عمليات انحطاطها . ولقد وجدت الدولة القومية فى الرايخ الثالث اوجها ودركها الأسفل معا ، مجدها وقداسها الحزين معا ، وعندما تنضم اسرائيل الان الى الدول القومية، لاتملك الا ان تشاطرها تحللها .

ولو شاء أحد ان يضع كتابا ساخرا عن الدولة القومية ، فلن يخرج بشيء أفضل من دولة اسرائيل ، بكل ممراتها ونتوءاتها وأعناقها ومثلثاتها الغريبة ، التى رسمها اساتذة الرسم فى الامم المتحدة .

والعادة ان لامعقولية الدولة القومية تتركز فى حدودها وحواجزها الجمركية ، حيث تنفصل امة عن امة . اما فى داخل الحدود ، فوق عشرات او مئات او آلاف من الاميال المربعة ، فيبنى الناس بيوتهم ، ووجودهم العادى على نحو او آخر ، وفقط فيما بعد هذه المساحات ، عند الحد الآخر يحدق فى وجهك مرة أخرى جنون الدولة القومية الصارخ . اما فى اسرائيل فلا تسطيع ابدا ان تهرب من النظرة المجنونة : اينما ذهبت فأنت عند حد من الحدود .

«انظر ، على التل هناك ، يوجد السوريون!»

«العرب الاردنيون يتسللون من هذا الوادى ليلة بعد ليلة !»

«هنالك يسير الحارس المصرى»

«انظر الى هذا الممر هنا ، انه يأخذك مباشرة الى لبنان ، على بعد ثلاثين ياردة من هنا !»

«لقد بنينا محطة الكهرباء هذه تحت الارض والا تهدمت فى اول الحرب»

«هنا تسير خطوطنا الحديدية ثلاث مرات في أراض أجنبية».

«على هذا الطريق لا تسافر بعد الغسق ، فانه قريب جدا من الحدود».

وفى القدس ، اخذنى موشى شاريت ، رئيس الوزراء ووزير الخارجية ، الى نافذة مكتبه وأرانى كثيبا رمليا فى الخارج يقسمه حزام من السلك الشائك . ان الحد الاردنى – الاسرائيلى ، او خط الهدنة ، يمر على أقل من مرمى حجر من هنا . ان وزير الخارجية ، عليه فقط ان يرفع رأسه من على مكتبه لكى يواجه «العدو» . واذا كان للأجيال اللاحقة ان تقيم متحفا لعبث الدولة القومية ، فعليها ان تعرض صورة لهذا المنظر من مكتب رئيس الوزراء ، ويجب ايضا ان تعرض السلك الشائك الذى يقسم ارض المستشفى الفرنسى فى القدس ،

وأكشاك الحراسة على الحائط القديم فى مواجهة جبل صهيون وصور الاطفال الذين يسقطون صرعى الرصاص وهم يلعبون خارج بيوتهم بين شبكات السلك الشائك . لقد جاءت حماقة الدولة القومية الى القدس ، وقسمت مهد ديانات العالم قسمين .

بأية مقاييس عادية ، يعتبر اقتصاد اسرائيل مفلسا . فصادراتها تغطى تكلفة جـــزء صغير فقط من الواردات . ومعظم العجز يدفع من جيب اليهود الامريكيين المتضخم ومن المعـــونة الحكومية الامريكية ، فاسرائيل تشترى طعاما ومواد خام غالية بالجنيهات والدولارات ، وتجتهد ان تجد اسواقا بعيدة لمنتجاتها ، وفى سالف الأيام كانت الطرق من فلسطين الى جاراتها العربية ، تزدحم بالشاحنات تحمل الطعام من البلدان العـــربية الى فلسطين وتحمل لهم السـلع الصناعية ، اما الأن فان التجارة راكدة لأن الدول العربية ترفض الاعتراف بوجود اسرائيل السياسى وتصر على مقاطعتها .

تعانى اسرائيل الغاما مدفونة فى اساسها ذاته . تلك هى مظالم مئات وآلاف من العرب المطرودين . ولا يستطيع المرء بنزاهة ان يلوم اليهود على ذلك ، فالناس الذين يطاردهم وحش فيجرون لانقاذ أرواحهم لايستطيعون تجنب ايذاء من فى طريقهم ولاتجنب التعثر فوق متاعهم . ويشعر اليهود ان ما ألحقوه بالعرب من اذى هو عبث

اطفال بالقياس الى مأساتهم هم . وهذا صحيح ، لكنه لايمنع العرب من التلظى بأحزانهم واعداد الثأر . وفى نظر الاسرائيليين ، فلسطين يهودية ولم تكف ابدا عن ان تكون كذلك . وفى نظر العرب ، اليهود معتدون ودخلاء وسيظلون كذلك لزمن طويل . وطالما يجرى البحث عن حل للمشكلة على اسس قومية ، مقدر على العرب واليهود معا ان يتحركوا ضمن دائرة مفرغة من الكراهية والثأر . والعرب يقتلون نساء واطفال يهود ، واليهود يرتكبون مذبحة «قبية» ، والعرب يرقبون تحولا فى شئون الشرق الأوسط يسمح لهم بسحق اسرائيل ، والى ان يحين ذلك يترصدون باهتمام اى خطوة خاطئة قد تتخذها اسرائيل ، وأمل اسرائيل هو ان تظل الدول العربية متخلفة ، متراخية ، فاسدة ، وبلا اصدقاء ، مثلما كانت اثناء الحرب العربية – اليهودية ، والا فان الاسرائيليين ، حتى لو زادوا ثلاثة اضعاف ، لن يستطيعوا الحفاظ على اراضيهم فى مواجهة اربعين مليون عربى . وكل جانب يرى أمنه ورخاؤه ، فى انعدام أمن وخراب وكارثة الاخر. ولايبدو ان هناك مخرج عاجل من هذا المأزق ، أما على المدى الطويل ، فقد يوجد مخرج فيما وراء الدولة القومية ، ربما فى ظل نطاق اوسع يتمثل فى أتحاد فيدرالى للشرق الأوسط ، وعندئذ تلعب اسرائيل ، بين الدول العربية دورا من التواضع يناسب عددها ، ومن

التواضع يوازى مكنوتاها الفكرية والروحية ، وقد قيل ان هذه الفكرة بدأت تكسب أرضا بين الساسة والمفكرين السياسيين الشبان على الجانبين ، لكن لايحتمل ان تكسب كثيرا من الأرض فى المستقبل القريب . فاليهود مازالوا مغرقين فى السكر بدولتهم القومية التى كسبوها حديثا ، والعرب تسيطر عليهم مظالمهم تماما الى حد يمنعهم من النظر بعيدا الى الامام . ان اى مؤسسة مافوق قومية ، كاتحاد فيدرالى للشرق الأوسط هى موسيقى المستقبل المفرحة لكليهما .

لكن فى بعض الاحيان تكون موسيقى المستقبل هى وحدها التى تستحق الانصات .

٦- الذكرى العاشرة لقيام اسرائيل (١)

يوشك الاسرائيليون من «دان الى بئر سبع» على الاحتفال بالذكرى العاشرة لقيام دولتهم . وهم يستعيدون باعتزاز بالغ البطولة التى حمل بها رجالهم ونساؤهم السلاح فى ربيع ١٩٤٨ ، وانتزعوا الاستقلال وصفة الدولة من العرب والبريطانيين وسياسات الدول الكبرى المترددة والمتآمرة . كما انهم يلتفتون وراء هم برضا وثقة الى سجل العقد الأول من عمر اسرائيل ، وهو سجل ملىء بالمنجزات فى بناء حياة وثقافة وطنية .

والحقيقة . ان قيام اسرائيل ، مثل كل تاريخ اليهود الطويل والدرامى ، هو ظاهرة فريدة فى نوعها ، أعجوبة ومعجزة فى التاريخ ، يقف امامها اليهودى وغير اليهودى معا فى جلال ودهشة ، يتأملان مغزاها . هذه هى المادة التى خلقت منها فى مراحل أسبق الأساطير والخوارق البطولية العظيمة مثل اساطير المكابيين .

---

(١) الأويزرفر ، أبريل (نيسان) ١٩٥٨ .

لذلك فليس مدعاة للدهشة ان ينظر الاسرائيليون الى تجربتهم بشيء من التمجيد المبالغ فيه . فمثلا يقول السيد ابا ايبان ، أحد ساستهم البلغاء : «ماذا تكون اسرائيل سوى اتحاد هذا الشعب والارض واللغة في تحقيق سام لدورة التاريخ ، جسرا ألقى عبر خليج القارات والأجيال ليكون رمزا لوحدة التجربة التاريخية كلها ؟» . ومع ذلك فلا يفوت المرء ان هذا التفسير الرومانتيكي المهيب لأصول اسرائيل ومعناها غير كاف . أنه يحيط الحقائق التي كنا جميعا شهودا لها ، بضباب ذهبي من الخيال ، ويلقي قناعا من الخيال فوق حقائق الماضي القريب ، وقد يستحضر امام اسرائيل آفاقا غير حقيقية وخطرة .

فنحن لم نعد نعيش في عصر الاسطورة البطولية ، فكل الاساطير التي قذف بها عصرنا كانت رثة وقصيرة العمر . ان دولة اسرائيل رغم تفردها في العالم المعاصر . لم تأت الى الوجود «كتحقيق سام لدورة التاريخ ... لتكون رمزا لوحدة التجربة التاريخية كلها» فليس حنين اليهود الديني الى ارضهم الموعودة هو الذي منحها الميلاد ، ماهي الحقائق ؟

قبل حلول النازية ، بل وبعدها ، كانت الأغلبية الساحقة من اليهود ترفض نداء الصهيونية ، حتى في شرق اوروبا ، حيث كانوا يشكلون

تجمعات كبيرة متماسكة ، يتحدثون لغتهم الخاصة ، ويطورون ثقافتهم وأدبهم ويعانون من تفرقة وحشية ، كانوا يعتبرون انفسهم مواطنين للبلدان التى يعيشون فيها ، وليس لذلك الوطن اليهودى فى فلسطين . ان نصف يهود اوروبا الشرقية ، خصوصا حركتها العمالية الضخمة النشطة ، كانت تنظر الى فكرة مثل هذا الوطن بعداء وا ع لاينكر . كانت الصهيونية هي الصوفية الوطنية للطبقة الوسطي اليهودية ، والتي لم تكن مستعدة مع ذلك ، ان تتخلى عن اوضاعها المستقرة وتقتلع نفسها من اجل الحلم الصهيونى . ومع ذلك فقد شكل يهود شرق اوروبا الخزان الرئيسى الذى حصلت منه الصهيونية على دعمها ، فمن هناك جاء أغلب القادة والرواد والجنود . اما فى سائر البقاع الاخرى فقد كانت الاستجابة الى الصهيونية اضعف نسبيا .

قد يقول الصهاينة : من ذا الذى ينكر ذلك ؟ ان يهود اوروبا كان يمكن ان ينجوا لو أنهم اتبعوا نداء الصهيونية والحقيقة ان عداء يهود اوروبا او فتورهم نحو فكرة الوطن اليهودى ، كان ينبع من ثقتهم بالأمم التى كانوا يعيشون بينها ، ومن ثقتهم العميقة فى التقاليد والتطلعات الانسانية للحضارة الأوروبية . وكانت الصهيونية

ترى ، الا مستقبل لليهود في اوروبا ، لقد كانت التعبير السياسي عن عدم ثقة اليهودى بالعالم غير اليهودى .

ان عار اوروبا الابدى قد برر عدم الثقة ذاك نفسه على افضل وجه، وفقط بعد ان اصبح ذلك واضحا مرعبا ، بعد ان هلك في غرف الغاز ستة ملايين من مجموع خمسة عشر مليونا من اليهود ، وبعد ان رأى الاسرائيليون البريطانيين يطاردون حول سواحل فلسطين سفنا متسللة محملة بحطام يهود اوروبا ، بعد ذلك فقط اصبحت اسرائيل حقيقة قائمة . لقد جاءت الى الوجود ليس «كتحقيق سام لدورة التاريخ » وانما كعمل من اعمال اليأس اليهودي . وكشاهد على أكثر مراحل التاريخ الأوروبي كآبة ، مرحلة من الجنون والتدهور .

وبلغة السياسات العملية ، تدين اسرائيل بوجودها وبقائها إلى توافق غريب في الظروف، لايكاد يلحظ عندما ينظر إلى الأحداث من علياء القومية الرومانتيكية. إن المؤرخين الاسرائيليين، وهذا أمر مفهوم، يعالجون شجاعة وأصالة ومآثر البالماخ (فيلق الدفاع اليهودى الصغير، الذى أوقع الهزيمة بعدة جيوش عربية رغم حصارها له وتفوقها العددى عليه) ومع ذلك، فقد حظى الاسرائيليون ببعض العوامل المؤاتية.

كان العرب متخلفين تماما، منقسمين ضد بعضهم البعض، وبلا أصدقاء، وكانت بريطانيا وامبراطوريتها تتحلل، وتنسحب من الشرق الأوسط وكانت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، العدوان الرئيسيان فى المرحلة الجديدة، متحدين مؤقتا ضد بريطانيا، وضغطا عليها لتنسحب مسافات أبعد. ورغم أن اليهود كانوا هم الأقل عددا، الا انهم استفادوا من مزايا التنظيم والتدريب الاوروبيين الأكثر تفوقا. وكانوا يحصلون على عصب حرب استقلالهم والسلاح الذى حاربوا به من الولايات المتحدة ومن شرق أوروبا. وربما اختلفت نتيجة الصراع لو أن العرب كانوا أقل انقساما أو أفضل تسليحا وأفضل تدريبا. ولو لم تكن بريطانيا فى تراجع، ولو أن أيا من الاتحاد السوفيتى أو الولايات المتحدة قد ساند العرب.

ولقد كان فعل الظروف المؤاتى انتقاليا بطبيعته. ويبدو أن قادة إسرائيل ينسون ذلك، وعن وعى أو غير وعى يعكسون ظروف ١٩٤٨ على مستقبل غير مطمئن. وعلى هذا الانعكاس يقيمون سياستهم . انهم خائفون إلى حد ما من المساندة التى منحها الاتحاد السوفيتى أخيرا للقومية العربية. يبدو القادة الاسرائيليين واثقين من أنهم على نحو ما سيجدون دائما اصدقاء أقوياء فى العالم، ويعتقدون أن جيرانهم العرب سيظلون إلى الأبد أو على أى الأحوال لزمن طويل، متخلفين ومنقسمين مثلما كانوا منذ عشر سنوات مضت.

كأنهم أصيبوا بعدوى الغرور والترفع الأوروبى نحو الآسيويين والافريقيين (وهو ترفع يشفى منه الأوروبيون أنفسهم بالتأكيد خلال تجربة مرة). يقلل الاسرائيليون بوضوح من امكانيات جيرانهم ومن قدرتهم على التقدم. ويبدو بن جوريون كأحد أواخر مستودعات فلسفة عبء الرجل الأبيض، لاشك ان مغامرة السويس. والتقدير الضئيل الذى أعطاه المصريون لأنفسهم، تميل إلى تأكيد غرور الاسرائيليين، واذا كان الأمر كذلك، فإن نجاح السلاح الاسرائيلى فى صحراء سيناء سيكون أكثر وبالا على الاسرائيليين من الهزيمة بكثير.

هنا تأتى عقدة علاقة اسرائيل بالعالم: موقفها من الأمم الناهضة فى آسيا وافريقيا. فعندما ينتقد المرء سياسية اسرائيل. يلقى جوابا بأن قيام اسرائيل يجب أن ينظر اليه كجزء من يقظة الشعوب المستعمرة وشبه المستعمرة. فيقول كاتب صهيونى تقدمى: على كل، هذا (النقد) ينطبق على آسيا وافريقيا كلها تقريبا. ان اسرائيل ليست وحدها، هناك الهند وبورما، وسيلان وغانا ونيجيريا. والمغرب وتونس وليبيا والسودان. والعملية مستمرة.

هنا مرة أخرى تختلط الاسطورة بالحقيقة. ان خروج الهند وبورما وغانا.. الخ من التبعية الاستعمارية الى وضع الدولة المستقلة. كان تطورا عضويا اجتماعيا وسياسيا بطريقة لم يكن بها قيام

اسرائيل كذلك. فعندما قامت إسرائيل، وجدت نفسها فى صراع ظاهر أو كامن، مع عدد كبير من الدول الناشئة فى آسيا وافريقيا. ولايمكن أن تجمع إسرائيل بين الأمرين. فتقدم نفسها كواحدة من تلك الأمم، وتزعم لنفسها ما لهم من حقوق، وتتبع فى نفس الوقت مصالحها الخاصة الحقيقية او المتصورة، فى تعارض ثابت معهم، او فى تعال مغرور.

هذا التعارض يرجع جزئيا الى الظروف التى ولدت فيها إسرائيل، ففى لحظة ميلادها لم تستطع أن تتجنب الاستحواذ على حقوق العرب. لكن كان يمكنها ويجب عليها ان تفعل، وهذا فى صالحها، كل ما فى مقدورها لتجبر مظالم العرب وتخفف العداء. بدلا من ذلك، فعلت اسرائيل تقريبا كل من شأنه تشديد العداء واستمراره، وكان أبلغ مافعلت من هذا القبيل هو غزو سيناء. وفى الحساب الختامى للعقد الأول من عمر إسرائيل، تقف هذه الحملة كدين كبير وخطير، يمكن فى أى وقت أن يفوق كل الأرصدة الحسنة، ولاتستطيع اسرائيل، فى المدى الطويل، أن تبقى على حدود آسيا وافريقيا. وفى نزاع مع آسيا وافريقيا. لقد أصبحت ملاذا يأوى من بقى من يهود أوروبا فعليها ألا تصبح فخ موت لهم!

انها لمفارقة حزينة من مفارقات التاريخ ان اليهود لم يحصلوا على صفة الدولة إلا فى منتصف هذا القرن، حيث تتضح أكثر فأكثر،

من سنة إلى أخرى، ايلولة الدولة القومية الى الزوال، ان اليهود لم يكونوا مرتبطين بالدولة القومية فى ذروتها، عندما كانت بالنسبة لكثيرين عاملا من عوامل التقدم المادى والمعنوى، عندما كانت شاهد تقدم على خصوصيات العصور الوسطى، عندما كنست انقاض الاقطاع، وساعدت على تحرير الاوروبيين من القيد الروحى الى الكنيسة، ولقد أعطت اليهودية الحديثة لأوروبا، أعظم رواد النظرة العالمية للإنسان، من سبينوزا الى ماركس، من حيث أن أفاقها الذهنية لم تكن محدودة بالكنيس او السوق.

لقد كان اليهود مهيئين بظروف وجودهم للسمو فوق حدود النظرة القومية، والتغلب على طقوس الدولة او الامبراطورية، والتطلع إلى نمو اشكال «فوق – قومية» للوجود الاجتماعى، ومع ذلك، فالآن، والدولة القومية تتحلل، وهى تصبح مفارقة تاريخية فات زمانها، مثلما كانت الامارات الاقطاعية ذات يوم، وعندما جعلت الثورة المستمرة فى التقنية العثور على أشكال الوجود فوق – قومية، مسألة حياة أو موت للبشرية، يستثمر اليهود حماسهم غير المحدود ومواهبهم العظيمة فى دولتهم القومية وفى قوميتهم الخاصة.

هذه ليست غلطتهم، وليس للعالم غير اليهودى اى حق أدبى فى لومهم، لكن المفارقة قائمة، وقد يصبح اليهود أكثر ادراكا لها مما هم

الآن، صحيح، لايتوقع أحد من إسرائيل أن تعطى العالم المثل فى التخلى عن الدولة القومية من اجل أشكال أرقى من التنظيم الاجتماعى، لكن يجب أن يتبنى الاسرائيليون على الأقل موقفا أكثر وعيا بمأزقهم وبما أمامهم من فرص، وان يحذروا ان تجرفهم قوميتهم العصرية والمتوهجة، كما أن عليهم أن يعتادوا فكرة أن دولتهم ليست فوق النقد. انها خلق ارض وليست حرمة انجيلية، ليست دولة قومية «مختارة».

مرة أخرى، يجب أن نذكر أنفسنا بقوميات الأمم الأخرى الشابة، بقومية الهنود والمصريين، وهكذا. فالتناقض فى حالة اى منهم ليس صارخا الى هذا الحد، فليس لأى من هذه الشعوب تراث كوسموبوليتى أو أممى يقارن بالتراث اليهودى. وقومية هذه الشعوب بالطبع، مفتوحة لنفس أوجه النقد والاعتراض.

إن حماس شعب يجتهد لتحرير نفسه من الحكم الأجنبى يستحق الاحترام والاعجاب، ولكن كثيرا جدا ما يحدث أن بعد كسب التحرر، يستمر الحماس تزايدا ثم يساء استخدامه ويسخر من أجل سياسات أقل احتراما بكثير. بالنسبة لشعب تابع، تعتبر الدولة المستقلة ضرورة حيوية، وخطوة تقدم، لكن ما أن يصل هذا الشعب الى مرحلة الاستقلال، لايكون هناك ما هو أكثر انتكاسا له من ان

يثبت ذهنه على تلك المرحلة. ويرفض النظر إلى ما بعدها. إن قومية الشعب المستقل، لاتستطيع أن تزعم لنفسها التبرير الذى تدعيه لنفسها وطنية الشعب المقهور.

هذه ليست مسألة مبدأ مجرد فحسب. إن مستقبل إسرائيل يتوقف على ما إذا كان الاسرائيليون متيقظين ضد الغرور القومى وقادرين على ايجاد لغة مشتركة مع الشعوب المحيطة بهم، هل سيجدونها فى العقد الثانى من وجود دولتهم؟

٧ - الحرب الإسرائيلية - العربية، يونيو / حزيران ١٩٦٧[1]

لم تحل الحرب و«معجزة» انتصار اسرائيل أيا من المشاكل التى تواجه اسرائيل والدول العربية، بل أنها. على العكس. قد زادت القضايا القديمة حدة، وخلقت قضايا جديدة أكثر خطرا، انهما لم يزيدا أمن إسرائيل بل جعلاه أكثر تعرضا مما كان قبل ٥ يونيو ١٩٦٧، ان «إعجوبة الأيام الستة»، ذلك النصر الأخير السهل للسلاح الاسرائيلى، سينظر اليه ذات يوم، ليس فى المستقبل البعيد، على أنه كارثة فى المحل الأول على اسرائيل نفسها.

لنتأمل الخلفية الدولية، يجب أن ننسب هذه الحرب الى صراع الدول الكبرى، وإلى المنازعات العقائدية فى العالم الذى يشكل بيئتها، ففى تلك السنوات الأخيرة، اشتبكت الامبريالية الأمريكية والقوى

---

(١) حديث أدلى به دويتشر إلى مجلة «نيولفت ريفيــو» فى٢٣ يونيو ١٩٦٧ .

المرتبطة بهـا والقـوى المؤيدة منهـا، فى عـدوان سـيـاسـى وعـقـائدى واقتصادى واسع على مساحة كبيرة من آسيا وافريقيا، بينما القوى المعادية للتغلغل الامريكى، وفى مقدمتها الاتحاد السوفيتى، حافظت بالكاد على أرضـهـا، او تراجـعت، وقـد نبع هذا الاتجـاه من سلسلة طويلة من الأحداث؛ التمرد الذى وقع فى غانا وأطاح بحكومة نكروما، نمو الرجـعـيـة فى عديد من البلدان الافروآسيوية، الانتـصـار الدامى الذى أحرزته القوى المعادية للشـيـوعية فى اندونـيـسـيـا، والذى كان انتصارا ضخما للثورة المضادة فى اسيا، تصعيد الحرب فى فيتنام، والانقلاب العسكرى اليمينى فى اليونان . ولم تكن الحرب العربية - الاسرائيلية حدثا معزولا، فهى تنتمى إلى تلك الفئة من الاحداث . ان الاتجاه المضاد قد عبر عن نفسه فى قلق ثورى فى أجزاء متعددة من الهند، وفى اتجـاه المزاج السياسى فى البلدان العربية نحو المزيد من الجذرية، وفى النضال الفعال للجبهة الوطنية لتحرير فيتنام، وفى نمو المعارضة العالمية للتدخل الامريكى. ان تقدم الامبريالية الامريكية والثورة المضادة الافروآسيوية، لم يتم دون معارضة، لكن نجاحه فى كل مكان، عدا فيتنام، كان واضحا.

أما فى الشـرق الأوسط فإن الاندفاع الامريكى الى الامام، كان حديثا نسبيا، فأثناء حرب السويس كانت الولايات المتحدة مازالت تتبنى الموقف «المضاد للاستعمار»، وتصرفت بتوافق ظاهر مع

الاتحاد السوفيتي، لتحقيق الانسحاب البريطاني - الفرنسي، وكان منطق السياسية الامريكية مازال هو منطق أواخر الاربعينيات، عندما كانت دولة إسرائيل في دور القيام. وطالما أن الطبقة الأمريكية الحاكمة. كانت مهتمة أساسا باخراج الدول الاستعمارية القديمة من افريقيا وآسيا. كان البيت الأبيض مقرا «للعداء للاستعمار». ولكن بعد أن ساهمت الولايات المتحدة في انهيار الامبراطوريات القديمة. أصبحت تخشى «الفراغ»، الذي قد تملؤه القوى الثورية المحلية أو الاتحاد السوفيتي أو مزيج منهما، فانطفأ العداء الأمريكي للاستعمار. و«دخلته أمريكا». وفي الشرق الأوسط، حدث ذلك في الفترة ما بين أزمة السويس والحرب الاسرائيلية الأخيرة، وكان الانزال العسكري الامريكي في لبنان في عام ١٩٥٨، مقصودا به أن يكبح مدا ثوريا عاليا في تلك المنطقة، خصوصا في العراق. ومنذ ذلك الوقت والولايات المتحدة تتجنب اى تورط عسكري مباشر في الشرق الأوسط، معتمدة بلا شك الى حد ما على «الاعتدال» السوفيتي، فحافظت على موقف من التجرد، لكن هذا الموقف لايقلل من حقيقة الوجود الامريكي هناك .



لقد تصرف الاسرائيليون ، بالطبع، حسب دوافعهم الخاصة، وليس لمجرد التلاؤم مع مطالب السياسة الأمريكية. ولا حاجة الى الشك فى كون القادة الاسرائيليين والجمهرة العظمى منهم، يعتقدون انهم مهددون بالعداء العربى، وواضح ان بعض التصريحات العربية «المتعطشة للدماء» عن «محو إسرائيل من الخارطة» جعلت أبدان الاسرائيليين تقشعر، ان الاسرائيليين تنتابهم ذكريات المأساة اليهودية فى أوروبا، وهم الآن يشعرون انهم معزولون ومحاطون بملايين «محتشدة» من عالم عربى معاد. ولم يكن هناك ما هو أسهل على دعاتهم، تعاونهم مبالغات العرب اللفظية، من أن يثيروا الخوف من «حل نهائى» آخر يهدد اليهود، فى آسيا هذه المرة. واستحضر الدعاة الأساطير الدينية، والرموز الدينية – القومية العتيقة كلها من التاريخ اليهودى، واستنفروا ذلك السعار من العداوة والصلف والتعصب، التى استعرضها الاسرائيليون بشكل مثير وهم يندفعون الى سيناء وحائط المبكى ونهر الأردن وجدران اريحا. ومن وراء السعار والصلف، كان يرقد احساس اسرائيل المكظوم بالذنب نحو العرب، الاحساس بأن العرب لن ينسوا أبدا أو يتسامحوا ابدا فى الضربات التى كالتها لهم إسرائيل: الاستيلاء على أراضيهم، مصير مليون لاجيء وأكثر، هزائم عسكرية واهانات متكررة، فقبلت الأغلبية الساحقة من الاسرائيليين – مدفوعين بالخوف من الانتقام العربى –

النظرية التى تلهم سياسة حكومتهم، تلك «النظرية» التى تقول أن أمن إسرائيل يقوم على حرب دورية، تنزل بالدول العربية كل بضع سنوات الى درك العجز.

ومع ذلك، فأيا كانت دوافعهم ومخاوفهم الخاصة، فإن الاسرائيليين ليسوا، ولايستطيعون ان يكونوا عملاء مستقلين، ان عوامل تبعية اسرائيل هى الى حد ما «مبنية» فى تاريخها فى العقدين الاخيرين، فقد أقامت كل الحكومات الاسرائيلية وجود إسرائيل على «التوجه الغربى» . وكان يمكن أن يكفى هذا وحده ليحول اسرائيل الى مخفر امامى غربى فى الشرق الأوسط، وبذلك يدخلها فى الصراع الكبير بين الامبريالية (والاستعمار الجديد) والشعوب العربية المناضلة من أجل تحررها، ولقد نشطت عوامل اخرى ايضا. فقد اعتمد اقتصاد اسرائيل فى توازنه ونموه الضعيفين، على المعونة المالية الصهيونية الاجنبية، وخصوصا على المنح الامريكية. ولقد كانت هذه المنح لعنة مقنعة للدولة الجديدة، فمكنت الحكومة من معالجة ميزان مدفوعتها بطريقة لايستطيعها اى بلد فى العالم، بدون الدخول فى تجارة مع جيرانها. لقد شوه تدفق الأرصدة الاجنبية بنيان اقتصاد اسرائيل بتشجيع نمو قطاع ضخم غير منتج، ومستوى معيشة لا علاقة له بانتاجية البلد وايراداته (فى السنوات الأخيرة، كانت اسرائيل تتلقى ٢٥٠ مليون دولار سنويا كمنح وقروض

من الدول الغربية، ومعونة من الولايات المتحدة. ومساهمات من اليهود فى الخارج، وهذا يصل الى حوالى ١٢٥ دولار سنويا للفرد من سكان اسرائيل). ولقد حافظ هذا بالطبع على ابقاء اسرائيل فى نطاق «مجال النفوذ الغربى» على نحو ثابت. والواقع ان اسرائيل قد عاشت على مايفوق امكانياتها بكثير. فلسنوات طويلة كان غذاء اسرائيل يستورد من الغرب، ولما كانت الادارة الامريكية تعفى من الضرائب المكاسب والارباح المخصصة كمنح لاسرائيل، فإن وزارة الخزانة فى واشنطن تضع يدها على الحوافظ التى يعتمد عليها اقتصاد اسرائيل، وتستطيع واشنطن فى أى وقت أن تضرب إسرائيل برفض الاعفاء الضريبى (رغم ان ذلك قد يفقدها الأصوات اليهودية فى الانتخابات). ان التهديد يمثل هذه العقوبة (الذى لم يذكر ابدا، لكنه قائم دائما. ويلمح إليه أحيانا) كان كافيا لربط السياسة الاسرائيلية بشدة الى الولايات المتحدة.

عندما زرت اسرائيل منذ سنوات، سرد لى مسئول اسرائيلى كبير، المصانع التى لم يستطيعوا اقامتها بسبب اعتراضات امريكية، ومن بينها مصانع للصلب ومشروعات لانتاج الالآت الزراعية، ومن ناحية أخرى، كانت هناك قائمة لمصانع عديمة الجدوى تنتج كميات هائلة من أدوات الطبخ واللعب البلاستيك.. الخ.. ولم تحس أى إدارة إسرائيلية بالحرية فى تقدير حاجة إسرائيل الحيوية الطويلة الأمد

للتجارة والعلاقات الاقتصادية مع جاراتها العربيات، او لتحسين العلاقات الاقتصادية مع الاتحاد السوفيتى وشرق أوروبا.

ولقد أثرت التبعية الاقتصادية على سياسة اسرائيل الداخلية و«مناخها الثقافى»، بأشكال أخرى أيضا. ان المحسن الأمريكى هو أيضا مستثمر أجنبى يعمل فى الأرض المقدسة، إن اليهودى الأمريكى الذى، هو «رجل أعمال دنيوى». بين شركائه واصدقائه غير اليهود فى نيويورك أو فيلادلفيا او ديترويت، وهو فى دخيلة نفسه فخور بأن يكون أحد افراد الشعب المختار، وهو يمارس نفوذه فى اسرائيل لصالح الظلامية والرجعية الدينية، ولأنه مؤمن بالمشروع الحر ومتحمس له، فإنه ينظر بعين العداء، حتى إلى «اشتراكية» الهاستدروت اللينة، والى حركة الكيبوتزيم وساهم بدوره فى ترويضها. وبالإضافة إلى ذلك، ساعد الحاخامات على المحافظة على قبضتهم القوية على التشريع وعلى قدر كبير من التعليم. وعن ذلك الطريق استطاع المحافظة على احياء التمييز العنصرى والتفوق التلمودى وقد غذى كل هذا العداء نحو العرب وأشعله.

لقد منحت الحرب الباردة للاتجاهات الرجعية فى اسرائيل زخما عظيما، واذكت النزاع العربى - الاسرائيلى، فالتزمت اسرائيل تماما بالعداء للشيوعية، صحيح أن سياسة ستالين فى سنواته الأخيرة، وتفجر اللاسامية فى الاتحاد السوفيتى، والشعارات المعادية لليهود

فى محاكمات سلانسكى وراجيك وكوستوف، والتشجيع السوفيتى حتى لأقل أشكال القومية العربية أصالة، تحمل كلها نصيبها من المسئولية عن موقف اسرائيل. ومع ذلك فلا يجب أن ننسى أن ستالين كان أبا روحيا لاسرائيل. وأن اليهود قاتلوا جيش الاحتلال البريطاني وقاتلوا العرب فى ١٩٤٧ و١٩٤٨ بذخيرة تشيكية، قدمت بناء على أوامر ستالين، وان المبعوث السوفيتى كان أول من صوت لاعتراف الأمم المتحدة بدولة اسرائيل، فيمكن أن يقال أن تغير موقف ستالين من اسرائيل كان رد فعل لالتزام اسرائيل بالغرب، وفى مرحلة مابعد ستالين أصرت اسرائيل على هذا الالتزام.

هكذا أصبح العداء العنيد لآمال العرب فى الوحدة والتحرر الوطنى من الغرب، بديهية فى سياسة اسرائيل. ومن هنا كان دور اسرائيل فى ١٩٥٦، فى حرب السويس، واعتنق وزراء اسرائيل الاشتراكيون الديمقراطيون - بدرجة لاتقل عن الاستعماريين الغربيين - سياسة دولة ترى حكمتها العليا فى إبقاء العرب منقسمين ومتخلفين، وفى استخدام الهاشميين وغيرهم من العناصر الرجعية ضد القوى القومية الثورية الجمهورية، وفى مطلع ١٩٦٧، عندما بدا أن تحركا جمهوريا قد يطيح بالملك حسين، لم تتردد حكومة اشكول فى إعلان انه فى حالة وقوع انقلاب ناصرى قد يطيح بالملك حسين، ستزحف القوات الاسرائيلية إلى الأردن. ولقد كانت

مقدمات أحداث يونيو (حزيران) الماضى، هى تبنى اسرائيل لموقف عدوانى نحو النظام الجديد فى سوريا، الذى أدين بأنه ناصرى، بل «ناصرى متطرف» (لأن حكومة سوريا بدا انها أشد قليلا فى عدائها للامبريالية وأكثر جذرية من حكومة مصر).

هل خططت إسرائيل حقا، لمهاجمة سوريا ذات حين فى شهر مايو، كما اعتقدت المخابرات السوفيتية، وكما حذرت موسكو عبدالناصر؟ لانعرف، ولقد كانت نتيجة لهذا التحذير ، وبتشجيع سوفيتى، أن أمر عبدالناصر بالتعبئة وبحشد القوات على حدود سيناء. ولو أن إسرائيل كان لديها مثل هذه الخطة، لأجلت حركة عبدالناصر الهجوم على سوريا بضعة أسابيع، ولو أن إسرائيل لم تكن لديها مثل هذه الخطة، فان سلوكها أضفى على تهديداتها ضد سوريا نفس القيمة التى كانت للتهديدات العربية فى نظر إسرائيل. وعلى كل حال، كان حكام إسرائيل واثقين تماما من أن عدوانيتهم - على العكس من عدوانية سوريا أو مصر - ستلقى عطفا غربيا، وسينالون عنها الثواب. ولقد كان هذا الحساب وراء قرارهم بتوجيه الضربة الأولى فى ٥ يونيو. لقد كانوا واثقين من الدعم الادبى والسياسى والاقتصادى الامريكى، وإلى حد ما، البريطانى. وكانوا يعرفون أنه بغض النظر عن الحد الذى يذهبون إليه فى الهجوم على العرب، فبوسعهم أن يعتمدوا على الحماية الدبلوماسية الامريكية، أو

فى أدنى الاحوال، على التساهل الرسمى الأمريكى. ولم يكونوا مخطئين. فالبيت الابيض والبنتاجون، لا يسعهما ألا أن يقدرا رجالا صمموا لاسبابهم الخاصة على هزيمة العرب اعداء الاستعمار الامريكى الجديد، وقد قام الجنرال دايان بدور مارشال «كى» * للشرق الاوسط، وبدا أنه يقوم بعمله بسرعة وكفاءة وشدة مذهلة. ولقد كان، ومازال ، حليفا أرخص وأقل كلفة من «كى» ،

★★★

يمثل السلوك العربى، خصوصاً عقل عبدالناصر الموزع وتردده عشية الحرب، نقيضا صارخا لتصميم إسرائيل وعدوانيتها التى لا تكبح. فبعد أن قام عبدالناصر، بتشجيع سوفيتى، بنقل قواته إلى حدود سيناء ، بل ووضع صواريخه الروسية الصنع فى حالة استعداد، قام بدون استشارة موسكو، باعلان اغلاق مضائق تيران، وهى حركة أستفزازية، رغم أنها عمليا ذات مغزى محدود جدا، ولم تعتبرها الدول الغربية من الاهمية بحيث تحاول أن «تختبر» الحصار. ولقد أمدت عبدالناصر بكسب أدبى، ومكنته من أن يدعى أنه انتزع من إسرائيل آخر ثمار انتصارها فى ١٩٥٦. (قبل حرب السويس لم

---

* «المارشال» كاوكى ، رئيس فيتنام الجنوبية الذى كان الاميركيون يدعمونه وقد أصبح اسمه «كى» مصطلحا رمزيا لعملاء الولايات المتحدة . (المترجم) .

تكن السفن الاسرائيلية تستطيع عبور تلك المضايق). وصورت إسرائيل الاغلاق على أنه خطر مميت على اقتصادها، بينما لم يكن كذلك، وردت بتعبئة قواتها والتحرك إلى الحدود.

واصلت الدعاية السوفيتية تشجيعها للعرب علنا، وعلى كل، فقد انعقد مؤتمر للاحزاب الشيوعية فى الشرق الاوسط فى مايو (لخصت قراراته فى البرافدا) وكان متحفظا تحفظا غريبا بشأن الازمة، ونقد عبد الناصر تلميحا ، لكن المناورات الدبلوماسية خلف الكواليس كانت أكثر أهمية . ففى ٢٦ مايو ، فى هدأة الليل (فى منتصف الساعة الثالثة صباحا) ، أيقظ السفير السوفيتى عبدالناصر، ليحذره تحذيرا جديا من أن الجيش المصرى يجب ألا يكون البادىء باطلاق النار. وامتثل عبدالناصر، وكان الامتثال تاما إلى حد أنه عزف عن بدء الحرب. بل أنه لم يتخذ أى احتياطات لمواجهة احتمال هجوم إسرائيلى، فتركت المطارات بغير دفاع والطائرات على الارض بلا تمويه، بل ولم يجر الاهتمام بلغم مضائق تيران، أو وضع عدة مدافع على شواطئها (كما اكتشف الاسرائيليون ذلك – لدهشتهم – عندما وصلوا هناك).

كل ذلك يوحى بعمل غير متقن من جانب عبدالناصر ومن جانب القيادة المصرية. لكن أقطاب الكرملين كانوا هم العمال غير البارعين حقيقة. إن سلوك بريجنيف وكوسيجين كان خلال هذه الاحداث

مماثلا لسلوك خروشوف أثناء الازمة الكوبية، بل أنه أشد في تشوشه الذهني، كان الطراز هو نفس الطراز، ففي المرحلة الأولى ، كان هناك استفزاز للجانب الآخر، دونما حاجة إليه، وتحرك أحمق نحو «الحافة» وفي المرحلة التالية، ذعر مفاجيء وتراجع متسرع، ثم تبعت ذلك محاولات محمومه لانقاذ ماء الوجه وتغطية الاثار. فبعد أن آثار الروس مخاوف العرب. ودفعوهم إلى تحركات خطرة، ووعدوهم بالوقوف إلى جانبهم، وبعد أن أرسلوا وحداتهم البحرية إلى البحر المتوسط لتواجه تحركات الاسطول السادس الامريكي، قام الروس بتقييد عبدالناصر من اليدين والقدمين.

لماذا فعلوا ذلك بينما كان التوتر يتصاعد ، كان الخط الساخن بين الكرملين والبيت الأبيض يعمل. اتفقت الدولتان الكبيرتان على تجنب التدخل المباشر وعلى كبح جماح طرفي النزاع. وإذا كان الامريكيون قد قاموا بعملية كبح جماح الاسرائيلين، فلابد أنهم فعلوا ذلك بشكل روتيني، أو بكثير من الايماءات، إلى حد أشعر الاسرائيليين، حقيقة، بالتشجيع على مواصلة خطتهم للضربة الأولى (لم نسمع، على أي حال أن السفير الامريكي أيقظ ليفي أشكول رئيس وزراء إسرائيل وحذره بأن على الاسرائيليين إلا يكونوا البادئين باطلاق النار). بينما كان لجم السوفيت لعبدالناصر ثقيلا ووقحا ومؤثرا. ومع ذلك يظل عدم قيام عبدالناصر باتخاذ احتياطات

عكسرية أولية أمرا محيرا. هل أخبر السفير السوفيتي عبدالناصر، أثناء زيارته الليلية ، أن موسكو واثقة من أن الإسرائيليين لن يضربوا أولا، هل أعطت واشنطن لموسكو مثل هذا التأكيد، وهل كانت موسكو من السذاجة بحيث أخذت هذا التأكيد بقيمته الظاهرة، وتصرفت بناء عليه ؟ إن تفسيرا غير هذا التفسير للاحداث، لا يمكن أن يفسر ركود عبدالناصر ، ودهشة وذهول موسكو لدى اندلاع القتال.

من وراء كل هذا التصرف غير المتقن يبدو التناقض المركزى فى السياسة السوفيتية واضحا. فمن ناحية، يرى القادة السوفيت أن المحافظة على التوازن الدولى، بما فى ذلك التوازن الاجتماعى، شرط أساسى لأمنهم القومى و«للتعايش السلمى». ولذلك يهمهم أن يكونوا على «مسافة آمنة» من مراكز عواصف الصراع الطبقى فى العالم، وأن يتجنبوا المآزق الخارجية الخطرة. بينما لا يستطيعون أن يظلوا على مسافة آمنة، عندما يصطدم الاستعمار الامريكى الجديد، على نحو مباشر أو غير مباشر، مع اعدائه الافروآسيويين أو الامريكيين اللاتينيين، والذين ينظرون إلى موسكو باعتبارها صديقتهم وحاميتهم. فى الاحوال العادية، يكون هذا التناقض كامنا، وتتلمس موسكو الانفراج والتقارب مع الولايات المتحدة الامريكية، وتساعد وتسلح بحذر أصدقاءها الافروآسيويين والكوبيين، ولكن عاجلا أو آجلا، تأتى لحظة الازمة، وينفجر التناقض فى وجه موسكو، ويكون

على السياسة السوفيتية عندئذ أن تختار جانب حلفائها وربائبها، فتعمل ضد التوازن، أو أن تلتزم بالتوازن. وعندما يكون الاختيار ملحا ويتعذر تجنبه، تأخذ جانب التوازن.

إن الحيرة حقيقية، وهى خطرة فى العصر الذرى. لكنها تواجه الولايات المتحدة الامريكية أيضا، لان لها مثل اهتمام الاتحاد السوفيتى بتجنب حرب عالمية وصدام ذرى. ويقلل هذا على أى حال من حرية تحركها، ومن حرية هجومها السياسى والمذهبى، أقل كثيرا مما يقيد حرية السوفيت. أن واشنطن أقل بكثير فى خوفها من امكانية أن تحركا ما من جانب أحد ربائبها، أو من أن تدخلها العسكرى قد يؤدى إلى مواجهة مباشرة بين الدول الكبرى. فبعد الازمة الكوبية، والحرب فى فيتنام، أظهرت الحرب العربية – الاسرائيلية، هذا الاختلاف بصورة حادة.

★★★

تقرر الوضع الحالى، إلى حد ما ، بمسيرة العلاقات العربية – الاسرائيلية باكملها منذ الحرب العالمية الثانية، بل ومنذ الحرب العالمية الأولى. ومع ذلك أعتقد أن بعض الاحتمالات كانت مفتوحة أمام الاسرائيليين . وهناك مثل حاولت أن أستعين به فى عرض هذه المشكلة على جمهور إسرائيلى.

ذات مرة، قفز رجل من الطابق الاعلى فى بيت يحترق، كان قد هلك فيه عدد كبير من أفراد أسرته، فحاول أن ينجو بحياته، لكنه اصطدم وهو يقفز بشخص واقف تحت البيت فكسرت ساقى هذا الرجل وذراعيه. لم يكن أمام الرجل الذى قفز من خيار. ومع ذلك، فبالنسبة للرجل الذى تكسرت أطرافه، كان هو سبب مصيبته، ولو تصرف كلاهما تصرفا عقلانيا، فلن يصبحا عدوين، فالرجل الذى هرب من المنزل المحترق، بعد أن يشفى، كان عليه أن يحاول مساعدة المصاب الآخر وتعزيته، وكان على الآخر أن يدرك أنه ضحية ظروف لا يتحكم فيها أى منهما، لكن ، لننظر ماذا يحدث عندما يتصرف هذان الاثنان على نحو غير عقلانى: الرجل المصاب يلوم الآخر على مصيبته ويقسم أن يجعله يدفع ثمنها، والرجل الآخر، يدفعه الخوف من انتقام الرجل المشوه، يهينه، ويركله، ويضربه كلما التقيا. فيقسم الرجل الذى ركل مرة أخرى على الانتقام، ومرة أخرى يضرب ويعاقب. وتشتد العداوة المرة، التى نشأت مصادفة، ثم تغطى وجود الرجلين كله وتسمم عقلهما.

إننى واثق انكم ستتعرفون على أنفسكم (هكذا قلت لمستمعى من الاسرائيليين) يا بقايا يهود أوروبا، فى إسرائيل، فى ذلك الرجل الذى قفز من البيت المحترق. وتمثل الشخصية الاخرى، طبعا، عرب فلسطين. أكثر من مليون منهم، فقدوا أرضهم وبيوتهم. أنهم

غاضبون، وهم ينظرون عبر الحدود إلى مواطنهم السابقة، ويغيرون عليكم خلسة، ويقسمون على الانتقام، فتضربونهم وتركلونهم بلا رحمة، ولقد أظهرتم انكم تعرفون كيف تفعلون ذلك، ولكن ما معناه؟ وما هو المستقبل؟

إن مسئولية مأساة يهود أوروبا، مسئولية أو شفتز وماجداتك، والمذابح التى وقعت فى احياء اليهود، تقع كليا على «حضارتنا» البورجوازية الغربية، التى كانت النازية - على انحطاطها - نتاجها الشرعى. ومع ذلك فقد أجبر العرب على دفع ثمن الجرائم التى ارتكبها الغرب فى حق اليهود، ومازالوا يجبرون على دفع الثمن، لان «ضمير الغرب المذنب» ، مع إسرائيل وضد العرب. وما أسهل ما سمحت إسرائيل لنفسها بأن ترتشى وتخدع «بنقود الضمير الكاذب».

إن علاقة عقلانية بين الاسرائيليين والعرب، كان يمكن أن تكون ممكنة لو أن إسرائيل حاولت على الاقل أن تقيمها، لو أن الرجل الذى ألقى بنفسه من البيت المحترق حاول أن يقيم صداقة مع الضحية البريئة لقفزته وأن يعوضه . وهو ما لم يحدث . بل أن إسرائيل، لم تعترف أبدا بالمظالم التى وقعت على العرب. فمنذ البداية عملت الصهيونية على خلق دولة يهودية خالصة، وفرحت بتخليص البلاد من سكانها العرب. ولم تبحث أية حكومة إسرائيلية عن أية فرصة

لازالة وجبر المظالم، بل لقد رفضوا أن يبحثوا مصير الكتلة الضخمة من اللاجئين، ما لم تعترف الدول العربية بإسرائيل أولا، أى ما لم تستسلم الدول العربية سياسيا قبل أن تبدأ المفاوضات. وربما أمكن تبرير ذلك كمناورة من مناورات المساومة. إلا أن الاساءة للعلاقات العربية – الاسرائيلية ، والتى تبلغ حد الكارثة، جاءت بها حرب السويس، عندما تصرفت إسرائيل بغير خجل، كراس رمح لامبرياليات أوروبا المفلسة فى موقفها الاخير المشترك فى الشرق الاوسط، فى محاولتها الاخيرة للاحتفاظ بقبضتها على مصر. إن الاسرئيليين لم يكونوا مضطرين لربط أنفسهم بحملة أسهم شركة قناة السويس. كانت المزايا والعيوب واضحة : لم يكن هناك أى اختلاط بين الصواب والخطأ على أى من الجانبين. وقد وضع الاسرائيليون أنفسهم كلية فى الجانب الخطأ، أدبيا وسياسيا.

إن النزاع العربى – الاسرائيلى، على السطح، هو صدام بين قوميتين متنافستين، كل منهما تتحرك داخل دائرة مغلقة من الصحة الذاتية، والمطامع المتضخمة، أما من وجهة نظر أممية مجردة، فليس هناك ما هو أسهل من رفض كليهما باعتبارهما يتساويان رجعية وعدم جدارة. إلا أن مثل هذه النظرة تتجاهل الحقائق الاجتماعية والسياسية للوضع. إن قومية الشعب، فى البلدان شبه المستعمرة والمستعمرة، الذى يناضل من أجل استقلاله، لا يجوز أن توضع على

نفس المستوى السياسى، المعنوى، مع قومية الغزاة والمسيطرين. إن للأولى تبريرها التاريخى ووجهها التقدمى الذى تفتقر إليه الاخرى. وواضح أن القومية العربية، على خلاف الاسرائيلية ، مازالت تنتمى إلى الفئة الأولى.

ومع ذلك، فحتى قومية المستغلين والمقهورين، لا يجب النظر إليها بغير انتقاد، لان هناك مراحل متعددة للتطور. فى احدي المراحل تتغلب المطامح التقدمية، وفى الاخرى تندفع الاتجاهات الرجعية إلى السطح. فمنذ لحظة الحصول على الاستقلال أو الاقتراب منه، تميل القومية إلى سفح محتواها التقدمى تماما، وتتحول إلى عقيدة رجعية. لقد رأينا هذا يحدث فى الهند واندونيسيا ، بل وإلى حد ما فى الصين، بل وحتى فى المرحلة الثورية، تكون لاى قومية مسحتها من عدم الاصالة، التى تتمثل فى الميل إلى التفرد والذاتية القومية والعنصرية. والقومية العربية، برغم كل مزاياها التاريخية، ووظائفها التقدمية، تحمل أيضا فى داخلها بعض تلك المحتويات الرجعية.

ولقد كشفت أزمة حرب يونيو ، بعضا من نقاط الضعف الاساسية فى الفكر والعمل السياسى العربى: الافتقار إلى الاستراتيجية السياسية، الميل العاطفى إلى خداع الذات، الاعتماد الزائد على الديماغوجية القومية. إن نقاط الضعف هذه كانت ضمن الاسباب الحاسمة للهزيمة العربية. هذا التورط فى التهديدات بتدمير

إسرائيل بل و«بالابادة»، وهى تهديدات كشف عدم الاستعداد العسكرى العربى المطبق عن مدى فراغها، قد أدى إلى أن يقدم بعض الدعاة المصريين والاردنيين كثيرا من الزيت للشوفينية الاسرائيلية، كما مكن الحكومة الاسرائيلية من طى جمهرة شعبها فى نوبة الخوف والعدوانية الضارة ، التى انفجرت عندئذ فوق رءوس العرب.

من البديهى أن الحرب هى استمرار للسياسة . ولقد اظهرت حرب الأيام الستة ، عدم النضج النسبى لنظم الحكم العربية الحالية . إن الاسرائيليين مدينون بانتصارهم ليس للضربة الأولى وحدها ، وإنما أيضا لتنظيم اقتصادى وسياسى وعسكرى عصرى . وإلى حد ما ، كانت الحرب مقياسا للتطور العربى منذ حرب السويس ، واظهرت خلله الحاد . إن أضفاء العصرية على الهياكل الاجتماعية - الاقتصادية لمصر وغيرها من الدول العربية ، وعلى التفكير السياسى العربى ، قد سار ببطء أكثر بكثير مما ظن من كانوا يتخذون من النظم العربية الحالية مثلا أعلى .

إن التخلف المستمر متأصل بالطبع فى الظروف الاجتماعية - الاقتصادية ، لكن الفكر العربى وأساليب التنظيم العربية ، هى فى ذاتها عوامل ضعف . واذكر : نظام الحزب الواحد ، نزعة التقديس الناصرية ، غيبة النقاش الحر . كل ذلك قد أعاق التثقيف السياسى للجماهير ، وفاعلية التنوير الاشتراكى ، وظهرت النتائج السلبية فى

مستويات متعددة .. فعندئذ تعتمد القرارات السياسية ، تقريبا على زعيم مطلق السلطة ، وعندئذ لا توجد في الأوقات العادية ، مشاركة شعبية حقيقية في التطورات السياسية ، ولا وعي حذر فعال ، ولا مبادرة من أسفل . إن الضربة الاسرائيلية الأولى ، والتى تمت بأسلحة تقليدية ، كان يمكن ألا يكون لها هذا الأثر الماحق ، لو أن القوات المسلحة المصرية ، كانت معتادة على الاعتماد على مبادرة الضباط والجنود الافراد ، عندئذ كان القادة المحليون سيتخذون الاحتياطات الدفاعية الاولية دون انتظار أوامر من أعلي . إن عدم الكفاءة العسكرية هنا ، كان انعكاسا لضعف اجتماعى سياسى أوسع وأعمق . كذلك فإن الأساليب البيروقراطية العسكرية الناصرية ، تعوق الاندفاع السياسى فى حركة التحرير العربية . إنها تسهل ازدهار الديماغوجية السياسية ، لكنها ليست بديلا لنبض حقيقى للوحدة القومية ، ولتعبئة حقيقية للقوى الشعبية ضد العناصر الانفصالية والاقتصادية والرجعية . ولقد رأينا كيف أن الاعتماد فى وقت الخطر على قائد واحد ، قد جعل مصير الدول العربية ، معتمدا فى الحقيقة على تدخل الدول الكبرى ، وعلى مصادفات المناورة الدبلوماسية .

إنها مفارقة أن يبدو الاسرائيليون الآن فى دور بروسى الشرق الأوسط . فقد كسبوا حتى الآن ثلاثة حروب ضد جيرانهم العرب . وهذا بالضبط ما فعله البروسيون منذ قرن مضى ، عندما هزموا كل جيرانهم

الدانمركيين والنمسويين والفرنسيين ، خلال سنوات قليلة ، ونمّى فيهم تتابع الانتصارات ثقة مطلقة فى كفاءتهم الخاصة ، واتكالا أعمى على قوة سلاحهم ، وصلفا شوفينيا واحتقارا للشعوب الأخرى ، ونخشى أن يكون انحطاط مماثل - لأن هذا انحطاط - يحدث الآن فى شخصية اسرائيل ، كبروسيا الشرق الأوسط ، إلا أن تكون تقليدا رديئا للأصل . فقد كان البروسيون على الأقل ، قادرين على استخدام انتصاراتهم كى يوحدوا فى الرايخ كل الشعوب الناطقة بالالمانية ، والتى تعيش خارج الامبراطورية النمسوية - المجرية ، وكان جيران المانيا منقسمين على أنفسهم بالمصالح والتاريخ والديانة واللغة ، وكان بوسع بسمارك وويلهلم الثانى وهتلر أن يستخدموهم ضد بعضهم البعض . أما الاسرائيليون فلا يحيطهم غير العرب ، ومحاولات استخدام الدول العربية ، الواحدة ضد الأخرى ، مكتوب عليها الفشل فى النهاية . ولقد كان العرب متناحرين سنة ١٩٤٨ ، عندما شنت إسرائيل حربها الأولى ، وكانوا أقل انقساما بكثير فى ١٩٥٦ ، أثناء حرب إسرائيل الثانية ، وشكلوا جبهة متحدة فى ١٩٦٧ ، وقد يثبتون أنهم أكثر اتحادا بكثير فى أى مواجهة مقبلة مع إسرائيل .

ولقد لخص الألمان تجربتهم الخاصة فى جملة مريرة : «تستطيع أن تدفع بنفسك منتصرا إلى قبرك» ، وهذا ما يفعله الاسرائيليون ، لقد قضموا أكثر مما يستطيعون ابتلاعه ، ففى الاراضى المحتلة وفى

إسرائيل يوجد الآن حوالى مليون ونصف مليون من العرب ، يمثلون أكثر من أربعين بالمئة من جملة السكان ، هل سيطرد الاسرائيليون هذه الجماهير العربية لكى يسيطروا على الأرض المحتلة «بأمان» ؟ إن هذا كفيل بخلق مشكلة لاجئين جديدة ، أكبر وأخطر من المشكلة القديمة . هل سيتخلون عن الأراضى المحتلة ؟ يقول معظم زعمائهم : لا ، ويدعو بن غوريون ، الروح الشريرة للشوفينية الإسرائيلية ، إلى خلق « دولة فلسطينية عربية » على ضفاف الأردن تكون محمية إسرائيلية ، هل تستطيع إسرائيل أن تتوقع أن العرب سيقبلون مثل هذه المحمية وأنهم لن يحاربوها باسنانهم واظافرهم ؟ إن أى من أحزاب اسرائيل ليس مستعدا حتى للتفكير فى دولة عربية – إسرائيلية مزدوجة القومية . وفى نفس الوقت « أغريت» اعداد كبيرة من العرب بترك بيوتها على ضفاف الأردن ، ويلقى من بقى معاملة أسوأ بكثير من معاملة الأقلية العربية فى إسرائيل ، والموضوعة تحت الحكم العسكرى منذ ١٩ سنة ، نعم ، إن هذا الانتصار أسوأ لإسرائيل من الهزيمة ، فهو أبعد ما يكون عن منح إسرائيل درجة أعلى من الأمان ، بل لقد جعلها أقل أمنا بكثير ، فإذا كان الانتقام والابادة العربيين هما ما كان يخافة الاسرائيليون ، فقد تصرفوا كمن يحول الشبح الى خطر داهم .

لقد كانت هناك لحظة ، عند وقف اطلاق النار ، بدا فيها أن هزيمة مصر قد أدت إلى سقوط عبد الناصر ، وانهيار السياسة المرتبطة

باسمه ، ولو أن هذا حدث لعاد الشرق الأوسط بالتأكيد إلى مجال النفوذ الغربي، ولأصبحت مصر غانا أو اندونيسيا أخرى . وعلى كل ، فهذا لم يحدث ، فالجماهير العربية التي خرجت إلى شوارع وميادين القاهرة ودمشق وبيروت لتطالب ببقاء عبد الناصر ، قد حالت دون ذلك ، ولقد كانت هذه واحدة من النبضات الشعبية التاريخية النادرة ، التي تصحح أو تقلب ميزانا سياسيا في لحظات قليلة ، هذه المرة في ساعة الهزيمة ، أحدثت المبادرة من أسفل ، أثرها الفوري ، ولا توجد إلا حالات قليلة في التاريخ وقف فيها شعب بهذه الطريقة ، إلى جانب قائد مهزوم ، إن الوضع ، بالطبع ، مازال مائعا ، فالمؤثرات الرجعية ستواصل فعلها داخل الدول العربية لتصل إلى ما يشبه الانقلاب الغاني أو الاندونيسي، أما الآن ، فقد حرم الاستعمار الجديد من ثمرة الانتصار الإسرائيلي

«الروس تخلوا عنا !» كانت هذه هي الصيحة المريرة التي جاءت من القاهرة ودمشق وبيروت في يونيو ، وعندما رأى العرب المندوب السوفيتي لدى الأمم المتحدة يصوت في توافق تام مع الأمريكيين ، في صف وقف اطلاق النار ، دون ربط ذلك بشرط انسحاب القوات الإسرايلية ، شعروا بأنهم قد غرر بهم تماما . وقيل أن عبد الناصر قال للسفير السوفيتي : «الآن سينحدر الاتحاد السوفيتي إلى مستوى دولة من الدرجة الثانية أو الرابعة» ، بدا أن الأحداث تؤيد الاتهام الصيني

بالتواطؤ السوفيتي مع الولايات المتحدة ، كذلك أثارت الهزيمة فزعا فى شرق أوروبا ، وقال البولنديون والتشيك : « إذا كان بوسع الاتحاد السوفيتي التخلي عن مصر على هذا النحو ، أفلن يتخلى عنا أيضا عندما يواجهنا العدوان الألماني مرة أخرى؟! كذلك غضب اليوغوسلاف ، واندفع تيتو وجومولكا وغيرهما من الزعماء إلى موسكو ليطلبوا تفسيرا وعملية انقاذ للعرب . ولقد كان هذا أمرا جديرا بالملاحظة ، حيث ان الطلب جاء من «المعتدلين» و «التحريفيين» الذين يقفون عادة مع «تعايش سلمى» ، وتقارب مع الولايات المتحدة الامريكية ، إنهم هم الآن يتحدثون عن «التواطؤ السوفيتي مع الامبريالية الامريكية » .

وكان على القادة السوفيت أن يفعلوا شيئا ، إن حقيقة أن تدخل الجماهير العربية قد انقذ نظام عبد الناصر ، قد أمد موسكو على غير توقع بمجال جديد للمناورة . فبعد التخلي الكبير ، جاء الزعماء السوفيت مرة أخرى إلى المقدمة كأصدقاء وحماة للدول العربية ، فإن عددا قليلا من الايماءات المسرحية ، وقطع العلاقات الدبلوماسية مع اسرائيل ، والخطب فى الأمم المتحدة تكلفهم القليل ، بل انه حتى البيت الابيض ابدى «تفهما» «لمأزق» الاتحاد السوفيتي ، و «للضرورة التكتيكية» التى جاءت الآن بكوسيجين الى الجمعية العامة للامم المتحدة .

وعلى كل ، فقد كان مطلوبا ما هو اكثر من الايماءات للمحافظة على مركز السوفيت . اذ طالب العرب ان يساعدهم الاتحاد السوفيتى على الفور لا عادة بناء قوتهم العسكرية ، تلك القوة التى فقدوها بسبب الامتثال للنصح السوفيتى . طلبوا طائرات جديدة ، ودبابات جديدة ، ومدافع جديدة ، وكميات جديدة من الذخيرة . لكن بغض النظر عن تكلفة ذلك (تقدر قيمة المعدات العسكرية التى خسرتها مصر وحدها بألف مليون جنيه استرلينى) فان اعادة بناء القوات المسلحة العربية ، يتضمن من وجهة نظر موسكو ، مخاطر سياسية كبيرة . فالعرب يرفضون التفاوض مع اسرائيل ، وبوسعهم ان يتحملوا ترك اسرائيل تغص بانتصارها . واعادة التسليح هى الأولوية الأولى عند القاهرة . لقد علمت إسرائيل المصريين درسا : فى المرة القادمة على القوة الجوية المصرية ، أن تضرب الضربة الأولى ، وكان على موسكو أن تقرر ما إذا كانت ستقدم الأسلحة لهذه الضربة .

ليس بإمكان موسكو أن تؤيد فكرة مثل هذا الرد العربى ، لكنها أيضا لا تستطيع أن ترفض إعادة تسليح مصر . ومع ذلك فإن إعادة التسليح العربى ، فى الأغلب ، ستغرى إسرائيل بقطع سير التطورات وتوجيه ضربة أولى أخرى ، وفى هذه الحالة سيواجه الاتحاد السوفيتى مرة أخرى بالحيرة التى قهرته في مايو ويونيو . إذا ضربت مصر أولا ، فالأغلب أن الولايات المتحدة ستتدخل ، فأسطولها السادس لن يقف

موقف المتفرج في البحر المتوسط إذا ضربت القوة الجوية الإسرائيلية ضربة قاضية ، وأصبح العرب على وشك الزحف إلى القدس وتل ابيب ، وإذا بقى الاتحاد السوفيتى مرة أخرى خارج الصراع ، فإنه يحطم مركزه الدولى تحطيما لايعوض .

بعد أسبوع من وقف اطلاق النار ، كان رئيس الاركان السوفيتى فى القاهرة ، وازدحمت الفنادق هناك بالمستشارين والخبراء السوفيت، بادئين العمل فى اعادة بناء القوات المسلحة المصرية . ومع ذلك فإن موسكو لا تستطيع أن تواجه برباطة جاش امكانيات تسابق عربى - اسرائيلى على الضربات الأولى ، وباحتمالاتها الاوسع ، ربما كان الخبراء السوفيت فى القاهرة يسرعون ببطء ، بينما تحاول الدبلوماسية السوفيتية أن «تكسب السلام» للعرب بعد أن أفقدتهم الحرب ، لكن حتى أمهر اللعب لكسب الوقت لا يستطيع أن يحل المسألة المركزية للسياسة السوفيتية : إلى أى مدى من الزمن يستطيع الاتحاد السوفيتى تكييف نفسه مع الاندفاع الامريكى إلى الامام ؟ إلى أى مدى يستطيع الاتحاد السوفيتى التراجع أمام الهجوم الاقتصادى السياسى العسكرى الامريكى عبر المنطقة الافرو - أسيوية ؟ إن أشارة صحيفة «كراسنايا زفيزدا» فى يونيو إلى أن المفهوم السوفيتى الحالى للتعايش السلمى ، ربما كان فى حاجة إلى شئ من المراجعة ، لم تكن بلا مبرر ، ويخشى العسكريون (وليسوا هم وحدهم) أن التراجعات السوفيتية تزيد من

ديناميكية الاندفاع الامريكى ، وأنه إذا استمر ذلك فإن صداما امريكيا - سوفيتيا مباشرا ، سيكون محتوما . وإذا لم ينجح بريجينيف وكوسيجين فى معالجة المسألة ، فإن تغييرات فى القيادة ممكنة جدا . لقد اسهمت الازمتان الكوبية والفيتنامية فى سقوط خروشوف ، ومازالت النتائج الكاملة لأزمة الشرق الأوسط غير متكشفة بعد .

★★★

لا أعتقد أن النزاع بين العرب والاسرائيليين يمكن حله بالوسائل العسكرية ، وبالتأكيد ، لا يستطيع أحد أن ينكر على الدول العربية حقها فى اعادة بناء قواتها المسلحة إلى حد ما . لكن ما يحتاجونه على نحو أسرع هو استراتيچية اجتماعية وسياسية ، وأساليب جديدة فى نضالهم من أجل التحرر ، وهذه لا يمكن أن تكون استراتيچية سلبية تماما يسيطر عليها الهاجس المعادى لإسرائيل ، لهم أن يرفضوا أن يتفاوضوا مع إسرائيل ، طالما أنها لم تتخلى عن الأراضى المحتلة ، ولسوف يقاومون بالضرورة حكم الاحتلال على ضفة الأردن وفى قطاع غزة ، لكن هذا لا يعنى بالضرورة تجدد الحرب .

إن الاستراتيچية التى يمكن أن تحقق للعرب كسبا آكبر مما يمكن تحقيقه بحرب مقدسة أو بضربة أولى ، الاستراتيچية التى يمكن أن تحقق لهم نصرا حقيقيا ، نصرا متحضرا ، يجب أن تتركز على الحاجة الملحة والعاجلة إلى تحقيق العصرية الشديدة لبنيان الاقتصاد العربى

والسياسة العربية ، وعلى الحاجة إلى التوحيد الحقيقى للحياة القومية العربية ، التى مازالت محطمة بفعل الحدود والتقسيمات الموروثة التى أقامها الاستعمار ، ولا يمكن تحقيق هذه الأهداف الا بتقوية وتنمية الاتجاهات الثورية والاشتراكية فى السياسة العربية .

وأخيرا ستكون القومية العربية أكثر تأثيرا ، بما لا يقاس ، تأثيرا كقوة تحرير إذا نظمت وحققت أساسا عقلانيا بقدر من الأممية يمكن العرب من تناول مشكلة اسرائيل على نحو أكثر واقعية مما حدث حتى الآن ، ليس بامكانهم أن يواصلوا انكار حق إسرائيل فى الوجود ، واطلاق العنان لخطب متعطشة للدماء ، إن النمو الاقتصادى والتصنيع والتعليم والتنظيم الأكثر كفاءة ، والسياسات الأكثر اعتدالا وواقعية يمكن أن تعطيهم ما لم تستطع أن تعطهم أياه الارقام المجردة والغضب المعادى لاسرائيل . وهذه العوامل تمثل التفوق الحقيقى الذى يستطيع تلقائيا تقريبا أن يهبط باسرائيل إلى نسبتها المتواضعة وإلى دورها الصحيح فى الشرق الأوسط .

إن هذا بالطبع ليس برنامجا للمدى القصير ، ومع ذلك فإن تحقيقه لا يحتاج إلى وقت كثير ، وليس هناك طريق أقصر منه إلى التحرر . إن الطرق المختصرة التى تعتمد الديماغوجية والثأر والحرب ، قد يثبت أنها تجلب الكوارث . وإلى أن يتحقق ذلك البرنامج ، يجب أن تقوم السياسات العربية على التوجه المباشر إلى الشعب الاسرائيلى من فوق رءوس الحكومة الاسرائيلية ، على التوجه الى العمال وأعضاء

الكيبوتزات . إن هؤلاء يجب تحريرهم من مخاوفهم بالتأكيدات والتعهدات الواضحة بأن مصالح اسرائيل المشروعة هى موضع الاحترام ، بل أن اسرائيل يمكن أن تقبل عضوا فى اتحاد فيدرالى للشرق الأوسط يمكن قيامه في المستقبل ، أن هذا من شأنه أن يجعل عربدة الشوفينية الاسرائيلية تخمد ، وأن يدعم المعارضة لسياسة إشكول ودايان القائمة على الغزو والسيطرة ، ولا يجوز التقليل من قابلية العمال الاسرائيليين للاستجابة لمثل هذا النداء .

كذلك من الضرورى تحقيق قدر أكبر من الاستقلال عن لعبة الدول الكبرى ، لقد شوهت تلك اللعبة التطور الاجتماعى – السياسى للشرق الأوسط . ولقد بينت كم فعل النفوذ الامريكي ليضفى على سياسة اسرائيل طابعها الحالى الرجعي المنفر ، لكن النفوذ الروسى قد فعل بدوره شيئا لبلف العقول العربية بتغذيتها بشعارات قاحلة ، وبتشجيع الديماغوجية ، بينما عززت أنانية موسكو وانتهازيتها الضلال والتكالب ، وإذا استمرت سياسة الشرق الأوسط كمجرد لعبة للدول الكبرى ، سيكون المستقبل مظلما حقا . ولن يكون بمقدور لا اليهود ولا العرب أن يخرجوا من لوالب دائرتهم المفرغة ، هذا ما يجب علينا نحن اليساريين أن نقوله لكل من العرب واليهود بأوضح وأصرح ما نستطيع.



كان ارتباك اليسار العالمي أمرا لا ينكر وواسع الانتشار . ولن أتحدث هنا عن اصدقاء اسرائيل مثل موليه وشركاه ، مثلهم مثل لورد افون وسلوين لسويد ممن رأوا في هذه الحرب استمرارا لحرب السويس وثأرا لخيبتهم في ١٩٥٦ ، ولن أبدد الكلمات على النادي الصهيوني اليميني في حزب العمال . بل حتى في أقصى يسار «ذلك الحزب» تصرف رجال مثل سيدني سيلفر مان بطريقة كان يمكن أن تكون نموذجا لتجسيد قول أحدهم : «حك جلد يهودي يساري ، ولن تجد غير صهيوني» .

لكن الارتباك تبدى حتى إلى مدى أبعد في اليسار ، وأثر في أناس لهم سجل لا تشوبه شائبة في النضال ضد الامبريالية . إن كاتبا فرنسيا معروفا بموقفه الشجاع ضد حرب الجزائر وحرب فيتنام ، نادى بالتضامن مع اسرائيل ، معلنا أنه إذا احتاج بقاء اسرائيل إلى تدخل أمريكي ، فإنه سيؤيد بل وسيرفع شعاراً : «يعيش الرئيس جونسون» .

ألم يعن له مدى التضارب بين الصياح «يسقط جونسون» في فيتنام و«يعيش» في اسرائيل ؟ . كذلك نادى جان بول سارتر ، رغم أنه قرن ذلك ببعض التحفظات ، بالتضامن مع اسرائيل ، لكنه تحدث بعد ذلك بصراحة ، عما في ذهنه من ارتباك وعن اسبابه . قال أنه أثناء الحرب العالمية الثانية ، تعلم كعضو في المقاومة أن ينظر إلى

اليهودى كما ينظر إلى أخ يجب الدفاع عنه فى كل الظروف . وأثناء حرب الجزائر كان العرب هم أخوته ، وقد وقف إلى جانبهم ، وعلى ذلك كان النزاع الحالى بالنسبة له نزاعا يقتتل فيه الأخوة ، لم يكن يستطيع أن يمارس فيه قضاء باردا ، وتغلبت عليه عواطف متصارعة.

ومع ذلك علينا أن نصدر حكمنا ، وعلينا ألا نسمح للعواطف والذكريات مهما كانت عميقة أو ملحة ، أن تلقى بسحبها عليه ، بل أن علينا ألا نسمح للتوسلات بأوشفتز أن تبتزنا إلى تأييد القضية الخطأ . إننى أتحدث كماركسى من أصل يهودى ، هلك أقرب الناس إليه فى أوشفتز ، ويعيش اقرباؤه فى اسرائيل : إن تبرير حروب اسرائيل ضد العرب ، والصفح عنها ، يؤدى فى الحقيقة أسوأ خدمة لاسرائيل ، ويمثل ايذاء لمصالحها على المدى البعيد. إن أمن اسرائيل – وأنا أكرر ذلك – لم يتعزز بحرب ١٩٥٦ أو ١٩٦٧ ، بل لقد ضعف وهان من جرائهما . إن «اصدقاء اسرائيل» قد حرضوا اسرائيل فى الحقيقة على السير فى طريق مهلك.

كذلك ، فإنهم ، شاءوا أو أبوا ، قد شجعوا التيار الرجعى الذى سيطر على اسرائيل أثناء الأزمة ، إننى لم أستطع إلا أن أحس بالاشمئزاز وأنا أشاهد على شاشة التليفزيون مشاهد اسرائيل فى تلك الأيام : استعراض زهو الغزاة ووحشيتهم ، انطلاقات الشوفينية .

الاحتفالات الضارية بالنصر المخزى ، تتعارض جميعا مع صور آلام العرب وخرابهم ، أفواج اللاجئين الفلسطينيين وجثث الجنود المصريين الذين قتلهم العطش فى الصحراء . ولقد رأيت مشاهد الحاخامات والخاسيديين التى ترجع إلى العصور الوسطى ، وهم يقفزون فرحا عند حائط المبكى ، ورأيت كيف تزاحمت في البلاد أشباح الظلامية التلمودية ، التى أعرفها جيدا ، وكيف أصبح المناخ الرجعى فى اسرائيل ثقيلا وخانقا ، ثم جاءت الاحاديث الكثيرة مع الجنرال دايان ، البطل والمنقذ ، بعقليته السياسية التى تليق برقيب فى الجيش ، يتحدث عن الضم ، ويكشف عن قسوة خشنة فيما يتعلق بمصير العرب فى الأرض المحتلة «ماذا يهمنى من أمرهم؟» ، «فى حدود ما يعنينى ، يمكنهم أن يبقوا أو يرحلوا» ، وبعد أن أحيط بأسطورة عسكرية كاذبة - الاسطورة كاذبة لانه لم يخطط حملة الأيام الستة ، ولم يقدها - إتخذ هيئة شريرة ، توحى بمرشح لوظيفة الديكتاتور ، وقد أشير إلى أنه إذا اتخذت الاحزاب المدنية موقفا لينا تجاه العرب ، فإن هذا الـ «يشوع الجديد» ، الـ «ميني ديجول» ، سيلقنهم درسا ويتولى السلطة بنفسه ، ويعلى «مجد» اسرائيل . ومن وراء دايان ، هناك بيجن وزير وزعيم الصهاينة اليمينيين المتطرفين ، الذى يدعى منذ زمن طويل أنه حتى شرق الأردن جزء من اسرائيل «التاريخية» . إن حربا رجعية

تنمى بالضرورة الأبطال والاتجاهات التى تعكس بأمانة ، طبيعتها وأهدافها .

على مستوى تاريخي أعمق ، تجد المأساة اليهودية في اسرائيل تكملتها الكئيبة . إن زعماء اسرائيل يستخدمون ويبالغون في استخدام أوشفتز وتربلنكا ، لتبرير الذات ، لكن أفعالهم تسخر من المعنى الحقيقى للمأساة اليهودية .

لقد دفع اليهود الأوروبيون ثمنا باهظا للدور الذى لعبوه فى العصور الماضية ، والذي لم يختاروه ، كممثلين لاقتصاد قائم على السوق ، اقتصاد نقدى ، وسط شعوب تعيش في اقتصاد زراعى طبيعي غير نقدي . لقد كانوا الحملة المتآمرين للرأسمالية المبكرة ، تجارا ، ومرابين في المجتمع قبل الرأسمالي . إن صورة التاجر والمرابى اليهودى الغنى عاشت فى الفولكلور غير اليهودى ، وظلت محفورة فى الذهن الشعبى ، تثير عدم الثقة والخوف . وأمسك النازيون بهذه الصورة ، وكبروها إلى أبعاد ضخمة ، ورفعوها دوما أمام أعين الجماهير .

قال أوغيست بيبل مرة أن معاداة السامية هى «اشتراكية المغفلين» . لقد كان هناك قدر كبير جدا من ذلك النوع من الاشتراكية ، وقليل جدا من الاشتراكية الحقيقية فى فترة الازمة الكبرى والبطالة الضخمة واليأس الكاسح فى ثلاثينيات

هـذا القـرن . ولم تكن الطبـقـات العـاملة الأوروبيـة ، قـادرة على الاطـاحة بالنظـام البورجـوازى ، لكن كراهية الرأسـمالية كانت من الحـدة والانتـشار بحيث تفتح لنفسها مخرجا وتركز على كبش فداء . وبين القطـاعات الدنيا من الطبـقة الوسطى - حثالة البورجـوازية - وحـثالة البروليتاريا ، كـان العداء المكبوت للرأسمالية الممتزج بالخوف من الشيوعية ، والخوف العصابى من الاجانب ، وكـان تأثير التحريض النازى ضـد اليـهود ، قـويا جـدا . جـزئيا ، لأن صـورة اليـهـودى ، غريبا و«مصاص دماء» وحش ، كانت بالنسبة لكثير من الناس ما زالت ماثلة ، وإلى هذا أيضـا ترجع اللامبـالاة والسـلبيـة النسـبيـة التى شهد بها كثير من غير الألمان مذبحة اليهود . وشـاهدت اشـتراكية المغفلين ، بفرح ، شيلوخ مسوقاً إلى غرفة الغاز .

ولقد وعدت اسـرائيل من بقى من الطـوائف اليهودية الأوروبية ، ليس فقط بـأن تمنحه «الوطن القومى» ، وإنمـا بأن تحرره من الوصمة القاتلة . ولقـد كانت هذه رسـالة الكيـبوتزيم والهـيستـادروت ، بل والصـهـيـونيـة ككل . كـان مـفـترضـا أن يكف اليـهود عن أن يكونوا عنـاصـر غير منتجة ، أصحـاب حـوانيت ، طفيليات اقتصـادية وثقافية ، وحملة للرأسـمالية . كان عليهم أن يستقروا فى أرضـهم «كعمال منتجين» .

ومع ذلك فهم الآن يظهرون في الشرق الأوسط في الدور المشين ، كعملاء ليس لرأسماليتهم الضعيفة نسبيا فحسب ، بل وللمصالح الغربية الواسعة القوية ، وكربائب للاستعمار الجديد . هكذا يراهم العالم العربي ، وليس ذلك مجانبا للصواب . ومرة أخرى يثيرون أحاسيس وكراهيات مريرة لدى جيرانهم ، ولدى كل من كانوا أو ما زالوا ضحايا للامبريالية . ويا له من مصير للشعب اليهودي أن يجبر على الظهور في هذا الدور ! كعملاء للرأسمالية المبكرة ، كانوا على أي حال ، روادا للتقدم في المجتمع الاقطاعي ، أما كعملاء للرأسمالية الاستعمارية الشائخة المتأخرة ، في عصرنا ، فإن دورهم يدعو إلى الرثاء ، ويضعهم مرة أخرى في وضع كبش الفداء . هل تكتمل دورة التاريخ اليهودي بهذه الطريقة ؟ إن هذا قد يصبح هو حصيلة «انتصارات» اسرائيل ، ومن هنا يجب أن يحذّرها أصدقاؤها .

ومن الناحية الأخرى يجب تحذير العرب من اشتراكية المغفلين ومن عداء المغفلين للاستعمار . ونحن واثقون أنهم لن يستسلموا لهما ، وأنهم سيتعلمون من هزيمتهم ، وسيفيقون ليرسوا أساس الشرق الأوسط ، الاشتراكي التقدمي حقا .

(٨)

مارك شاغال والخيال اليهودى[1]

أننى واثق أن كتاب «مارك شاغال» [2] لفرانز ماير ، هو اشمل دراسة عن الفنان . لقد قرأت صفحاته الستمائة بانتباه لا يكل ، وقضيت ساعات كثيرة أتأمل نسخه الجميلة عن اللوحات . والكتاب يحيط بالمرحلة الأخيرة من فن شاغال ، مثل إحاطته بمراحله المبكرة ، وأن ما يقوله المؤلف عن لوحات شاغال الأولى ، أعاد إلى ذكريات انبهارى المراهق بشاغال في أوائل العشرينيات .

---

١ – أذيع من البرنامج الثالث في الاذاعة البريطانية بتاريخ ١٢ أغسطس (آب) ١٩٦٥.

٢ – رسام وحفار من أصل يهودى روسى ولد فى فيتبسك عام ١٨٨٧ ، وعين مفوضا للفنون فى فيتبسك بعد ثورة أكتوبر حيث أسس أكاديمة للفنون . ثم غادر الاتحاد السوفييتى ليستقر في باريس ، بعد جولات عديدة فى العالم الغربى . وسافر إلى فلسطين عام ١٩٣١ لكى يحضر رسوماته لكتاب التوراة . أعماله الفنية قد طبعت فى كثير من الاحيان بطابع «فانتيزى» ويطابع فولكلورى يهودى .

عن «لاروس» .

إن ماير هو زوج ابنة شاغال . وهذه الدراسة ، هى بالتأكيد عمل يصدر عن الحب البنوى والولاء الأسروى ، مثلما يصدر عن التعمق والتحليل .

أن ماير ، كما يقول ، يفكر فى «مغزى رسم شاغال ومكانه من الفن المعاصر» . ويقول أن شاغال «يقف موقف المعارضة من الكثير مما يميز عصرنا ، موقف المعارضة من عقلانية العلم ، ومن المنفعة ، ومن التأثير المغفل للتقدم الفنى» ، ويعتبر الفنان أن «رسالته» هى أن يناضل ضد «مرض العقلانية» ، وأن يعرفنا «الحقيقة الداخلية لارواحنا». وربما لم يكن من العدل أن ننسب إلى فنان مثل هذه الفلسفة المطلقة والرفيعة ، أو نأخذ مثل هذا الزعم حرفيا إذا زعمه الفنان نفسه .

أن ناقدا آخر ، اقتبس عنه ماير ، يقترب أكثر من حقيقة الأمر ، عندما يقابل بين شاغال وبيكاسو فيبين أنه بينما يمثل بيكاسو أقصى درجات انتصار الذكاء التحليلى فى الفن ، فإن رسم شاغال يمثل تمجيد الاحساس والشعور . إن الموضوعية هى المثل الأعلى فى الفن بالنسبة لبيكاسو ، بينما الذاتية هى ذلك المثل الاعلى بالنسبة لشاغال ، وهذا ما يحاول ماير أيضا أن يقوله . لكنه يلفه فى مبالغة التعبير.

كان شاغال ، فى أعماله فى مرحلة الشباب ، أعماله التى رسمها

قبل ١٩١٠ ، رائد السيريالية . ويصفه مؤرخو الفن الألماني بأنه كان مفجر التعبيرية ، وكما يقول اندريه بريتون : عند شاغال هزم الحلم والمجاز الفن الحديث .

ومنذ البداية ، كانت منابع رؤيته التى تشبه الحلم ثابتة ، فجزئيات الحقيقة الخارجية تتكرر مرة بعد مرة فى مجرى خياله ، وهو مجرى واحد للخيال يجرى خلال كل صورة . حلم واحد يحلمه ويرسمه فى عدد كبير جدا من التنويعات .

وخلال دراسته كلها ، يركز ماير على خلفية شاغال الدينية اليهودية (رغم أنه فى خاتمته يقول أنها كانت فقط واحدة من العناصر التى كونت موقف شاغال) .فهو يقول : «إن مياه الغيبية اليهودية تروى دائما جذور عالمه الروحى السلفى» ، وعن هذا الطريق تروى منابع فنه ، وأن «عداءه الاساسى للواقعية يتفق مع لا وثنية اليهودية» .

ومرة بعد أخرى يشير ماير إلى أن الخاسيدية - الرومانتيكية الدينية ليهود شرق أوروبا - بل والقبلانية (مذهب صوفى سرى اعتنقه بعض يهود ومسيحيى العصور الوسطى ، ويقوم على تفسير الكتاب المقدس تفسيرا صوفيا) كانت مصادر وحى الرسام .

إن يهودية شاغال لا تنكر . فهو مغرق فى الفولكلور اليهودى ،

لكن مسديونيته للقبلانية وللتراث اللاهوتي يصعب تصديقها . والأصعب من ذلك على التصديق ، أن يقال أن سيرياليته تتفق من كل وجه مع اليهودية الحاخامية . فعداء اليهودية للفنون المرئية معروف . فاليهودية التي نفذت بصرامة التعاليم القائلة «لن تصنع ابدا صورة محفورة» أحبطت نمو الفنون المرئية بقسوة أكثر من قسوة الكالفنية .

إن حوائط الكنيس اليهودي عارية كئيبة ، رغم أن شعراً أو أغاني طقوسية سامية تتردد أصداؤها تحت سقفه . إن أي مدينة يهودية صغيرة في المعزل اليهودي في شرق أوروبا ، كان لها منشدوها وموسيقيوها وشعراؤها الملحميون ومؤلفوها الموسيقيون وحكاياتها الفولكلورية ، لكن لم يكن فيها رسامون ولا نحاتون . وحتى الثورة الخاسيدية ضد المدرسة التلمودية ، لم تستطع أن تنال من العداء العريق الراسخ «للصورة المحفورة» . وسرعان ما تحجر الاحياء الخاسيدي إلى ارثوذكسية حاخامية أخرى .

ولقد كان نفيا للتراث ، خارج الكنيس ، ومعارضة له ، أن بدأ اليهودي الروسي أو البولندي يرسم . ولم يحدث ذلك إلا قبيل نهاية القرن التاسع عشر . إن ايزاك ايليتش ليفيتان ، أعظم من رسم المنظر

الطبيعى فى روسيا بدأ عمله فى ثمانينيات وتسعينيات القرن التاسع عشر ، لكنه تربى خارج المعزل .

وفى داخل المعزل ، لم يبزغ الجيل الأول من الرسامين اليهود إلا مؤخرا . ويمكن اعتبار شاغال واحدا من هذا الجيل ، واحدا من الرواد ، فبالنسبة لليهودى كان أن يرسم معناه أنْ يثور ، أن يحقق عملا من اعمال الانعتاق . وكانت الثورة موجهة ضد النظام الاكليريكى اليهودى ، وموجهة فى نفس الوقت ضد الاضطهاد الروسى . فحوالى ١٩٠٥ ، ألقى العلم الاحمر بانعكاساته على لوحة الرسام . فقد اتجه شاغال إلى الرسم بعد هزيمة ثورة ١٩٠٥ مباشرة ، عندما بدأت تنتشر داخل المعزل اليهودى وخارجه روح التخلى والقنوط . كل المثقفين اليهود يمارسون الندم عن «حماقاتهم» الثورية . وكان ج . ل . بيرتز قائدهم ، فى «طريق العودة إلى الكنيس» . ومع ذلك فعند شاغال وخلاله ، كان خيال الرؤية اليهودية ، الذى طال كبته ، ينفجر كالبركان الذى يتحول إلى أقواس قزح .

ومع ذلك ، فرسم شاغال ، بكل ما يتضمنه من تمرد ضد التراث اليهودى المثبط ، يهودى بنفس القدر الذى تعتبر به رسوم موديليانى وسوتين الكوسموبوليتية ، غير يهودية . ففى أغلب اعماله ، التى هى بلا شك تمثيلية ورمزية ، هو رسام مدينته اليهودية ،

فيتبسك ، ورؤيته مركزة عليها ، فهو يرسم شوارعها الضيقة الملتوية ، بيوتها ، يرسمها أثناء وجوده فيها ، ويواصل رسمها بعد ذلك وهو فى باريس ، حيث يضعها تحت أقواس برج إيفل ، ويراها مرة أخرى فى كوابيسه المضرجة بالدماء أثناء مذبحة يهود شرق أوروبا . إنه يرسم المدينة اليهودية التى يعيش فيها الحطابون والسقاءون ، وليست تلك التى تعيش فيها الطبقات الوسطى .

إن أباه ، الذى تألقه لكثرة ما رسمه ، قد قضى حياته فى عمل الحمال الذى يقصم الظهر ، يدفع براميل سمك الرنجة للتجار المحليين . إن الاشباح المتعددة الألوان التى تزحم عالم شاغال السيريالي ، كانت تتكون من المتسولين والجزارين وتجار الماشية والجنود ، وصغار أصحاب الحوانيت والمبشرين الجوالين ، والموسيقيين الهائمين ، وفى بعض الأحيان كان يرسم يهودا يشبهون ، فى اعتزازهم الجليل بأنفسهم ، سلالة حاخامات رامبرانت . ولكن كما يخبرنا هو نفسه ، كان هؤلاء متسولين ، يلبسهم خمار الصلاة الخاص بأبيه ، قبل أن يجلسهم للرسم .

حتى المناظر الداخلية التى كان يرسمها ، البيوت الريفية ، الأسرة والموائد والكراسى وساعات الحائط المحطمة الناطقة بالفقر ، التى تبدو

شديدة الواقعية ، كانت فى عدم واقعيتها التى تشبه الحلم ، تنتمى بوضوح إلى بيت اسرته . إنه يهب الروح إلى فقر المدينة اليهودية ويحيله إلى شعر . وعندما يرسم صورة بيلا خطيبته ثم زوجته . ابنة إحدى الأسر اليهودية الغنية فى فيتبسك ، فإنه ينظر إليها عن بعد ، ينظر إليها إلى أعلى ، ويحدد وضعها الاجتماعى ، كأنه يرسم أميرة اسبانية .

عندما ننظر إلى أعمال شاغال المبكرة ، نصطدم بظهور شخصيته الفنية مبكرا . فالرسام المبتدئ الساذج الذى نعرفه ما بين ١٩٠٧ و ١٩١٠ ، يصبح باصالة وشجاعة باهرتين ، قادرا على تجسيد رؤيته فى «الموسيقيين» و «العرس» و «الزوجين» و«العائلة المقدسة» و «الختان» و«المهرجان» .

وبدفعة واحدة تقريبا وجد شاغال تعبيره واحساسه بالطبيعة ومزاجه ، ووحدته التى لازمته طول حياته .

ولقد استوعب منذ وقت مبكر ، تأثيرات سيزان وفان غوخ وغوغان ، ولكن هذه التأثيرات قد أثرته وذابت فى تكوينه الفنى . ويقول ماير عن ردود فعله الأولى نحو الطليعة فى باريس : «استعار شاغال من التكعيبيين .. عددا قليلا من حيل التكوين ... التقسيم الحسابى للمساحة ، والتقسيم المتسق تكعيبيا للشخوص» ، لكنه يستطرد : «لم تباشر التكعيبية أبدا أى تأثير

تكوينى عليه ، وظل تكعيبه لمساحة الصورة وشخوصها عرضا سطحيا» .

إذا كان رد فعل شاغال نحو بيكاسو والتكعيبية غير متكافىء ، فإن رد فعله إزاء الرواد الروس الأوائل للفن التجريدى ، خصوصا ماليفتش ومن يسمون التفوقيين Suprematists كان العداء الصريح . أن الفن الذى لا يمثل شيئا كان بالنسبة له تناقضا فى المصطلحات ، ورؤيته للعالم محكمة الانغلاق ولا تتسامح بأى تطفل خارجى .

إن تلقائية سيريالية شاغال تشهد بكونية الافكار الفنية . فلابد أن هذا المذهب الجديد كان فى الجو ، طالما أنه هو ، وهو فى محيط فيتبسك الراكد ، قد التقطه حتى من قبل أن يتعرف المثقفون فى العاصمة الروسية على هذا التناول الفرويدى للفن .

وربما لم يكن بوسع أحد سوى رسام شاب ، لم ترهقه المراسم الاكاديمية، أن يتجاهل بشجاعة القواعد الواقعية والطبيعية المتعارف عليها، والتى كانت لاتزال مسيطرة على الرسم الروسى، لكن سيريالية شاغال نبعت أيضا من خياله اليهودى، ومن الممكن القول بأن وجود اليهود الروس كله داخل المعزل كان امرا سيرياليا.

كان يهود شرق أوروبا يحومون على شفا الهاوية، شرق أوروبا التى طحنها الفقر والاضطهاد، وهزتها المذابح، وخدرتها عقيدة

مسيحية عتيقة، ممزقة بين آمال تقدمها الصهيونية من ناحية أو الاشتراكية الثورية من الناحية الأخرى. وكان اليهودى، «العايش من الهواء»، غير المنتج اقتصاديا، المعدوم الجذور، يناضل عاجزا، وان يكن بعناء، من أجل البقاء، ولقد بقى كأنما بمعجزة.،

ولقد رفع نفسه بخياله الى مافوق حقائق وجوده، واعتلى مرتفعات ضبابية من تحقيق الرغبة لمجرد أن يتدحرج مرة بعد مرة فى نوبات يقظة وقحة، كان الخيال اليهودى يحاول ان يهرب من الحقيقة او ان يجعل الحياة منسابة وضاءة، غنية بالمعجزات التى تفوق التنبؤ، وكأن حاسة السخرية والسخرية من النفس اليهوديين، تضحكان من الصدام الدائم بين الآمال والحقائق.

ولقد خلق شولم اليخم فى شخصية مناحم مندل، كيشوت شرق أوروبا اليهودى، شخصية تماثل فى السمو والطرافة، شخصية الفارس الرحالة القديم، لكنها شخصية سانكوبانزا أيضا فى داخلها. كان هذا المزاج اليهودى، هو مصدر مشاعر شاغال، وفى خياله أيضا لم يكن الحلم والحقيقة متوازيين، ولم يكونا منفصلين عن بعضهما البعض.

انه ينظر إلى العالم بعين الطفل اليهودى الغبشاء المحمومة، ذلك الطفل مازال عالم المعجزات حيا بالنسبة له. ولذلك فإن العشاق يطفون فوق أسطح بيوت فيتبسك. والمتسول ملاك هبط او قد يكون

كذلك، ان لم يكن قوة سحرية أو حيوانا مسحورا، والنجوم تستجيب للمقطوعة التى يعزفها لها عازف ملتح من فوق سطح أحد البيوت. هناك يكمن سر فن شاغال، حيث يتصارع خيال الطفل اليهودى مع كوابيس الوجود اليهودى.

لكن شاغال على أى حال، ليس اليهودى المطلق، انه اليهودى الروسى، وكثيرا ماسجل على حافة لوحاته حنينه الى الماضى، وكان يسجله بالحروف الروسية، مثلما يسجله بالحروف العبرية - البيدش، وكثيرا مايصطدم عالم الموجيك بمدينة فيتبسك اليهودية، ويرسم شاغال «أنا والقرية» فى تنويعة بعد تنويعة.

ورغم أن بعض «يهوده» يشبهون سلالة كهنة وتجار امستردام القرن السابع عشر الذين رسمهم رامبرانت، فإن أغلبهم، بما فى ذلك والدى شاغال نفسه، يشبهون جيرانهم الارثوذكس اليونانيين أبناء روسيا البيضاء.

والحقيقة ان فى شاغال الكثير من الشاعر الريفى الروسى، ان هناك رابطة وثيقة بينه وبين «خيالية» سيرجى يسينين. فشاغال، مثل يسينين، يذكرك بموجيك الحكاية الشعبية، الذى حاول ان «يمسك بالشمس ويضىء بها بيته الريفى». عند كليهما المجاز أساسى.

ان شاغال أيضا، «ينحنى امام صورة البقرة فوق حانوت الجزار»، وهو على استعداد «لأن يحمل ذيل حصان روسى كما

يحمل طرف ثوب العروس». كما أن كليهما استجاب للثورة الروسية بطريقة متماثلة، استجاب كليهما لجاذبيتها البطولية المبكرة، كما أصابت كليهما عدوى من الوهم والهبوط المعنوى.

فى لوحة شاغال، «الحرب على القصور»، فلاح عملاق يحمل قصر أحد الاقطاعيين على رأسه ويدك الأرض بخطواته. لقد فتحت الثورة أمام شاغال آفاقا لم يكن يحلم بها.

عين قوميسارا للفنون فى مقاطعة فيتبسك، وقام، بتدعيم من لوناتشارسكى، وزير التعليم العظيم على عهد لينين، بفتح اكاديمية للفنون، حيث اندفعت اليها كتل كبيرة من أطفال موجيك روسيا البيضاء والعمال اليهود الأميين.

وبعد ذلك عندما افتتح فى موسكو مسرح الدولة بلغة البيدش بدأ شاغال عمله العظيم للمسرح، وانتج لوحاته الجدارية وتصميماته المسرحية لمسرحيات غوغول، تشيكوف، وشولم اليخم. ولكى نفهم الأثر غير العادى لافتتاح مسرح بلغة البيدش فى موسكو، علينا أن نتذكر انه فى ظل القياصرة، كانت موسكو، قدس أقداس الارثوذكسية اليونانية، عمليا، مدينة ممنوعة على اليهود، وكان شاغال يطمح «لتحويل المسرح البيدشى الى مسرح عالمى». والحقيقة ان أسلوبه فى التصميمات المسرحية قد ترك بصماته على كل الحرفية المسرحية الروسية المتقدمة أنذاك.

كان ذلك وقتا عظيما وملهما، لكن الانتكاس كان ينتظره فى أوائل العشرينيات، اذ وجد شاغال نفسه مطوقا بين منظرى الفن التجريدى المعادين، وبين رسميي الحزب الذين كانوا قد شرعوا يصرخون من أجل فن المنفعة المنتمى الى «الواقعية الاشتراكية» فغادر موسكو وروسيا، مثبطا، عام ١٩٢٢.

وراء مأزق شاغال الفنى، كانت هناك مأساة أكثر أهمية، لقد حررت الثورة، المدينة اليهودية، من الاستبداد القيصرى، لكنها أيضا انهت اسلوبها فى الحياة، وتراثها الدينى، وتجارها، وحرفييها الصغار، و«العايشين من الهوا» فيها.

هنا مرة أخرى، تناظر بين شاغال ويسينين، لأن الثورة قد حررت ايضا موجيك يسينين وقضت على طريقتهم العتيقة فى الحياة، قال يسينين «أنا آخر شعراء الريف. وسيطحن القمر ساعتى الأخيرة، كما يطحن ساعة خشبية».

قدر شاغال أن يكون آخر رسامى المدينة اليهودية الأوروبية، فالساعة الخشبية والقمر الذى يطحن الساعة الأخيرة، موجودان فى الكثير جدا من لوحاته.

ومع ذلك، فحتى وهو فى برلين وباريس ونيويورك. كان يعيش على ذكرياته فى فيتبسك وروسيا، اما الآن فقد وجد ملجأه فى التراث اليهودى، يغرق نفسه فيه أعمق وأعمق.

فاليهودى الذى يحتضن بين ذراعيه الوثائق المقدسة ينقذها من النيران، يصبح وحدة دائمة فى صور شاغال: هكذا يفعل اليهودى التائه، الذى يسلك طريقه المكتوب وسط كل مايموج به العالم من فوران، ونرى هذه الوحدات فى وسط وفى مقدمة لوحته «الثورة» التى رسمها سنة ١٩٣٧ .

فالى جوار يهودى يصلى، نرى شخصا يشبه لينين، مقلوبا، واعلاما حمراء، ومشاهد من الحرب الأهلية الروسية فى الخلفية المزدحمة، لقد كان هذا تكوينا طموحا وان كان مرتبكا: كان يفتقر الى بؤرية الشكل وبؤرية الفكرة معا، كان شاهدا على حيرة شاغال فى موضوعه، ولقد مزق هو نفسه هذه الصورة.

ومع ذلك، فان شاغال، ليس بحكم تكوينه فنانا تراجيديا، لقد فرضت عليه التراجيديا، فالفترة التالية لعودته الى غرب أوروبا، الفترة بين ١٩٢٣ و١٩٣٣، كانت بالنسبة له فترة راحة، ومتعة وانتصار، فلم يعان فيها أبدا شيئا من القلق الذى يدفع بيكاسو دوما إلى نفى وانكار نفسه وما حققه.

يتميز شاغال بالسكون القانع، بل بالرضا، انه متفائل، يبحث عن اليقين، والعزاء، فى الدوام العضوى للحياة، ومع ذلك فإن محنة اليهودية الأوروبية تأتى لتملأ لوحاته، فهو يرسم جيرنيكا، او بالأحرى أكثر من جيرنيكا ، وتلك السلسلة الطويلة من لوحات

«الصلب»، الصلب باللون الأحمر، باللون الأبيض، باللون الأزرق، باللون الأصفر، ان مسيح شاغال ليس مسيحيا، انه رمز الاستشهاد اليهودى، انه ممدود بكل الامه المبرحة فوق عالم الفظائع، من حوله رجال يسقطون فريسة المطاردة والاضطهاد والقتل. وهو دائما متلفع بخمار الصلاة اليهودى. وأحيانا يرتدى طاقية القماش والسراويل الممزقة التى يرتديها فقراء يهود فيتبسك، ومن تحته على الأرض، حشود من اليهود الهاربين يتملكهم الفزع، والمعابد اليهودية والوثائق الدينية تلتهمها النار والدخان، وبينما فى اللوحات المسيحية، نجد كل المعاناة تتركز فى المســـيح الذى يتغلب عليها بتضحيـــاته، فإنه فى لوحـــات «الصلب» التى رسمها شاغال، نجد المسيح لايقهر الآلام.

إن صورة المسيح عند شاغال، تفتقر الى فكرة الخلاص، فبكل قدسيته لايبدو بأى حال ربانيا، انه رجـــل يعانى الآلام فى ألف شكل، ويحترق إلى الابد بنيران العالم، ومع ذلك يبقى عصيا على الدمار.

وأخيرا، فإننا نرى صورا كثيرة للمسيح، لا صورة واحدة، يرتدى ملابس العمل اليومى لفقراء اليهود، ممدودين على الصلبان على امتداد شوارع فيتبسك الضيقة الملتوية كما رسمها شاغال، ويعود

شاغال بالمسيح الى التاريخ اليهودى، ففى لوحة «عبور البحر الأحمر» التى رسمها فى عامى ١٩٤٥ و١٩٥٢ يفتح نظرة رمزية على مصير اليهود، عندما يرسم صورة موسى سامقة فى مقدمة اللوحة، والشهيد اليهودى على الصليب فى خلفيتها، ان رؤية شاغال تزداد قوة وحدة وتوترا، ومع ذلك فإن ابراز ذلك كله، هو شكل مصالحته مع التاريخ اليهودى واستسلامه له. انه لايستنكر ولا يدين احدا، ففوق اطلال ماجدانك واوشفتز يبكى صلاته العظمى على الموتى.

(٩)

المأساة اليهودية والمؤرخ

بالنسبة لمؤرخ يحاول أن يفهم المذبحة اليهودية، ستكون العقبة الكبرى هى التفرد المطلق للكارثة، لن يكون ذلك مجرد مسألة عصر ومنظور تاريخى، وأشك انه فى خلال ألف سنة، سيفهم الناس هتلر واوشفتز وماجدانك، وتريلنكا، أفضل مما نفهمهم الآن، هل سيكون لديهم منظور تاريخى أفضل؟ بل على العكس، ان الاجيال القادمة قد تفهمهم اقل مما نفهمهم نحن.

هل فهم يهود وغير يهود عصر التنوير والعقلانية محاكم التفتيش الاسبانية افضل مما فهمها اليهود الذين عاشوا فى ظل فرديناند وايزابيللا؟ لقد كان «فعل الايمان» (الاحتفال الذى كان يرافق الحكم بالموت من قبل محاكم التفتيش) عبث أطفال اذا قورن بأوشفتز وماجدانك. ففى محاكم التفتيش كان ثمة منطق انسانى، على أى حال، عامل اليهود كما عامل غيرهم من الكفرة والهراطقة، وسمح لهم بالبقاء عضويا، بل وكان يكافئهم عندما يبدون استعدادهم للاستسلام روحيا.

ان السعار النازى ، الذى كان مصرا على الابادة غير المشروطة لكل رجل وامرأة وطفل يهودى، فى متناول يده، يتخطى فهم المؤرخ، الذى يحاول كشف دوافع السلوك، البشرى، وان يتبين المصالح الكامنة وراء الدوافع، من ذا الذى يسـتطيع ان يحلل الدوافع والمصالح من وراء فظائع اوشفتز؟

اننى واثق، ان ارتباطى الشخصى بالكارثة اليهودية، ليس هو الذى يمنعنى الآن - كمؤرخ - حتى من الكتابة عنها موضوعيا، انها بالأكثر، حقيقة اننا نواجه بلغز ضخم مشئوم من انحطاط الشخصية الانسانية، سيظل دائما يحير البشرية ويرعبها.

ربما يستطيع اسخيلوس وسوفوكليس عصريين ان يتناولا هذا الموضوع، لكنهما سيفعلان ذلك على مستوى يختلف عن مستوى التفسير والشرح التاريخيين.

المحتويات

الهـــلال

المجلة الثقافيـة الأولـى فى مصر والعالم العربى

يناير ١٩٩٧ .. تقرأ فيها .

فكر وثقافة

حال الثقافة المصرية

جـــزء خـــاص

شعر وقصة

التكوين

الابواب الثابتة

رئيس مجلس الإدارة — رئيس التحرير
مكرم محمد أحمد — مصطفى نبيل

روايات الهلال تقدم

مصرية

تأليف

فوزية أسعد

ترجمة

أحمد عثمان

كتـاب الهلال يقدم

الديـن والعلم

تأليف

برتراند راسل

ترجمة

رمسيس عوض

رقم الايداع
١٤١٤٣ / ٩٦
I. S . B. N
977 - 07 - 0513 - 6